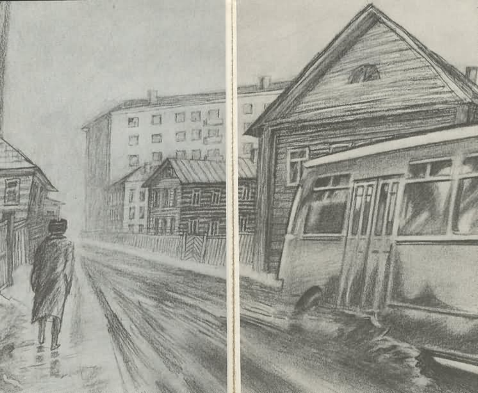

فكتور
استافييف
المفتش
الحزين




فكتور
استافييف
المفتش
الحزين




فكتور
استافييف
المفتش
الحزين



فكتور
استافييف

# المفتش الحزين

رواية

ترجمة : الدكتور أبو بكر يوسف

دار «رادوغا»
موسكو

رسوم أ. ألكسييف

**В. Астафьев**
ПЕЧАЛЬНЫЙ ДЕТЕКТИВ
Роман
*На арабском языке*


طبع في الاتحاد السوفييتي

ISBN 5-05-002851-5

## الفصل الاول

عاد ليونيد سوشنين الى البيت وهو فى أسوأ حالاته المعنوية . لم يستقل الباص على الرغم من طول المسافة التى كان عليه ان يقطعها حتى طرف المدينة تقريبا ، الى بلدة عمال السكك الحديدية ، فلتؤلمه ساقه المصابة ولكن السير سيهدئه ، وسوف يعيد النظر فى كل ما قيل له فى دار النشر ، وسيفكر فيه ، ويقرر كيف يعيش مستقبلا وماذا يفعل .

وفى الحقيقة لم تكن هناك دار نشر بمعنى الكلمة فى مدينة فيْسك ، فلم يبق منها سوى قسم ، اما الدار نفسها فنقلت الى مدينة اخرى اكبر ، بدت للتصفويين فى الغالب اكثر تحضرا وذات قاعدة طباعية ضخمة . بيد ان «القاعدة» كانت مثلها مثل تلك التى فى فيسك تماما . . ذلك الميراث المهترئ للمدن الروسية القديمة . كانت المطبعة تقع فى مبنى مشيد قبل الثورة من الطوب البنى المتين تتخلله طاقات النوافذ الضيقة من اسفل ، والمقوسة بصورة زخرفية من اعلى ، والضيقة ايضا وان كانت متصاعدة الى اعلى مثل علامة تعجب . كان نصف مبنى مطبعة فيْسك ، حيث ورش صف الحروف وماكينات الطباعة ، قد غار منذ زمن طويل فى اعماق الارض ، ورغم ان صفوف مصابيح الفلورسنت كانت تملأ السقف فقد كان جو ورش الصف والطباعة غير مريح ، يثير القشعريرة ،

وكان هناك شىء يئز طوال الوقت ، كالطنين فى الاذنين ، وكأنما كان هناك جهاز تفجير لقنبلة زمنية يعمل تحت الارض .

كان قسم دار النشر منزويا فى غرفتين ونصف غرفة خصصتها الجريدة الاقليمية له بجهد جهيد . وفى احدى الغرفتين استقرت عَلَم الثقافة المحلية اكتيابرينا بيرفيليفنا صيروكفاسوفا ، ملفعة بدخان السجائر ، وهى تتلوى وتنتفض على الكرسى ، وتنقض على سماعة التليفون وتنثر فى المكان رماد السجائر ، وتدفع الى الامام عجلة الادب المحلى . كانت تعتبر نفسها اكثر الناس اطلاعا ان لم يكن على ثقافة البلد بأسره فعلى الاقل ليس هناك من يضاهيها عقلاً فى قيسك . كانت تعد التقارير والمذكرات عن الادب المعاصر ، وتكتب فى الجريدة عن مشروعات الدار المقبلة ، واحيانا تنشر فى الجرائد ايضا استعراضات لمؤلفات الكتاب المحليين ، وتستخدم بمناسبة وبدون مناسبة اقتباسات من فرجيل ودانتى وسافوناورلا وسبينوزا وهيجل ورابله واكزوبرى وكانط واهرنبورج ويورى اوليشا وتريجوب ويرميلوف ، كما كانت تقض مضجع آينشتين ولوناتشارسكى فى قبريهما ، ولم تبخل باهتمامها ايضا على زعماء البروليتاريا العالمية .

كان كتاب سوشنين قد حسم أمره منذ زمن طويل . فقد نشرت بعض قصصه القصيرة فى مجلات ، وان كانت نحيلة ، فهى مجلات العاصمة ، وأُشير اليها بتسامح بضع مرات فى المقالات النقدية الاستعراضية ، كما وقف سوشنين خمس سنوات فى الصف حتى أُدخل فى الخطة واعتُمد فيها ، ولم يبق الا تحرير الكتاب وتوضيبه .

حددت صيروكفاسوفا موعد اللقاء العملى فى العاشرة



تماما ، اما هى فجاءت الى القسم حوالى الثانية عشرة . نفثت فى وجه سوشنين رائحة التبغ الثقيل وهرولت مارة به وهى تلهث فى الممر المظلم — فقد «لَطَش» احدهم اللمبات — ودمدمت بصوت ابح «عفوا !» وظلت تخشخش طويلا بالمفتاح فى القفل المعطوب وتسب بصوت خافت .

واخيرا زجر الباب بغضب ، وانفرجت ضلفة قديمة غير محكمة الاغلاق عن شق من الضوء الكابى دخل الممر . فقد كان المطر الدقيق يسقط منذ اسبوعين محيلا الثلج الى اوحال وجاعلا من الشوارع والحارات ميادين تزحلق . وفى النهر بدأ الجليد يذوب ويتحرك . . فى عز الشتاء !

راحت ساقه تؤلمه بلا انقطاع ألما مكتوما ، واشتدت النار والوخز فى كتفه من اثر الجرح القريب ، وغالبه الارهاق ومال الى النوم ، اذ جافاه النوم ليلا فاستنجد ثانية بالقلم والورق . وضحك فى نفسه وهو يقول لها «هوس الكتابة داء لا برء منه» ، ويبدو انه نعس ، ولكن دقا على الجدار الرنان مزق الصمت .

وصاحت صيروكفاسوفا فى الفضاء باستعلاء :

— يا جالا ، استدعى الىّ ذلك العبقرى !

جالا هى الطبّاعة على الالة الكاتبة والمحاسب والسكرتيرة ايضا . وتلفت سوشنين حوله فلم يجد احدا غيره فى الممر ، واذن فالعبقرى هو نفسه .

وفتحت جالا الباب بساقها وأطلت برأس قصير الشعر فى الممر قائلة :

— ايه ، اين انت ؟ هيا ، يدعونك .

شد سوشنين كتفيه ، وسوى على عنقه الرباط الحريرى

الجديد ، ومسد شعره براحته نحو جانب رأسه ، ففى لحظات الانفعال دائما يمسد شعره ، فكثيرا ما كانت الجارات والخالة لينا يمسدن شعره وهو صغير فتعود على ذلك . وقال سوشنين لنفسه آمرا : «هدوءا ، هدوءا !» ، وسعل بأدب وهو يستأذن :

— أتسمحون بالدخول ؟

وشمل ما فى مكتب صيروكفاسوفا على الفور بنظرة عينه المدربة كرجل شرطة جنائية سابق : رف كتب قديم مخروط فى الركن ، وعلى شماعة خشبية مخروطة تدلى متقوسا ، مبللا ، معطف القراء الامغر الذى يعرفه الجميع فى المدينة . لم يكن فى المعطف علاّقة . وخلف المعطف ، على رفوف مصقولة ولكنها غير مطلية صفت الكتب الصادرة عن دار النشر الموحدة ، وفى الصف الاول لاحت عدة كتب جيدة الاخراج مخصصة للاعلان والاهداء ومغلفة باغلفة من الجلد الاصطناعى .

واومأت صيروكفاسوفا الى دولاب أصفر قديم من الالواح السميكة وقالت :

— انزع معطفك . ليس هناك مشاجب بل مسامير مدقوقة . اجلس — وأشارت الى كرسى قبالتها . وعندما نزع سوشنين معطف المطر ألقت صيروكفاسوفا أمامها فى عصبية بحافظة اوراق وقد استخرجتها كأنما من تحت طرف ثوبها .

لم يتعرف سوشنين الا بالكاد على حافظة مخطوطاته ، فقد مرت بطريق ابداعى شاق منذ ان سلمها الى دار النشر . ومرة اخرى لاحظ بعين الشرطى الجنائى السابق ان الحافظة كانت توضع عليها غلايات الشاى ، وكانت تجلس عليها قطة ، وأُريق الشاى عليها . ورسم ابناء صيروكفاسوفا النجباء —



كان لديها ثلاثة ابناء من منتجين مبدعين مختلفين — رسموا على الحافظة حمامة السلام ودبابة بنجمة ، وطائرة . وكان قد اختار ، كما يذكر ، هذه الحافظة الزاهية وصانها خصيصا لمجموعة قصصه الاولى ، وألصق فى وسطها مستطيلا ورقيا ابيض وكتب بالقلم الفلوماستر بعناية عنوان المجموعة وان كان عنوانا غير جذاب تماما : «لا اغلى من الحياة» . فى ذلك العهد كانت لديه كل الاسس لكى يؤكد ذلك ، وحمل الحافظة الى دار النشر باحساس بالتجدد لم يخبره من قبل كما حمل ظمأ الى الحياة والابداع والى ان يكون نافعا للبشر ، فهذا ما يحدث لكل من بعثوا وعادوا سالمين «من هناك» .

أصبح المستطيل الابيض رماديا وقد كشطه احدهم بظفره او ربما كان الصمغ سيئا ، ولكن أين الاحساس بالفرحة والاشراق فى القلب ؟ رأى على الطاولة الحافظة المهملة مع تقييمين كتبهما على عجل المفكرون السكيرون المحليون النشطون الذين كانوا يتكسبون لدى صيروكفاسوفا ، ولم يروا الشرطة — التى صورها فى اعماله التى تضمها هذه الحافظة — الا فى مراكز افاقة السكارى . وكان سوشنين يعرف مدى الثمن الباهظ الذى يفرضه الاهمال البشرى على الحياة الانسانية وعلى المجتمع . وقد وعى ذلك جيدا ، وانحفر فى ذهنه الى الابد .

وقالت صيروكفاسوفا ، وهى تلوى شفتيها وتسحب انفاسا من السيجارة فتتلفع بالدخان ، وتقلّب التقييمين بسرعة :

— حسنا ، واذن فالحياة أغلى شىء . . . — وراحت تكرر مرات ومرات شاردة الذهن — أغلى شىء . . أغلى شىء . .

— هكذا كنت اعتقد منذ خمس سنوات .

— ماذا قلت ؟ — ورفعت صيروكفاسوفا رأسها فرأى

موشنين خديها الذابلين ، وجفنيها المصبوغين باللون الازرق باهمال ، ورموشها وحاجبيها المكحلة باهمال ايضا بكحل قد جف ، فعلقت حبات سوداء صغيرة منه فى رموشها وحاجبيها التى قسا شعرها وتساقط . وكانت صيروكفاسوفا ترتدى ملابس مريحة ، اشبه بزى عمل نسائى : بلوزة سوداء برقبة ، فلا داعى لغسلها كثيرا ، وثوب جينز بلا اكمام فوق البلوزة فلا داعى لكيّه .

— هكذا كنت اعتقد منذ خمس سنوات يا اكتيابرينا بيرفيليفنا .

— والآن لم تعد تعتقد هكذا ؟ — كانت السلاطة تتخلل هيئة صيروكفاسوفا وكلماتها وهى تنقب فى المخطوطات وكأنها تنقب فى مخلفات الكرنب — هل خاب أملك فى الحياة ؟

— لم يخب تماما بعد .

— هكذا اذن ! هذا طريف ، طريف ! محمود ، محمود ! واذن ليس تماما ؟ . . .

«آه ، انها نسيت المخطوطة ! وهى تكسب الوقت الآن لكى تتعرف عليها ثانية ولو على الماشى . من الطريف ان أرى كيف ستخرج من هذا المأزق ؟ من الطريف للغاية !» وتمهل سوشنين فلم يجب على سؤال المحررة الاخير .

— اعتقد انه لن يكون بيننا حديث طويل . ثم انه لا داعى لتضييع الوقت . المخطوطة معتمدة فى الخطة . وسأصلح منها قليلا وأضفى عليها المنظر اللائق واسلمها للرسام . وفى الصيف على ما اعتقد ، سوف تمسك فى يديك اول انتاجك المطبوع . بالطبع اذا اعطونا الورق ، واذا لم يحدث



طارئ فى المطبعة ، واذا لم يقلصوا الخطة وهلمّ جرا وهلمّ جرا . ولكنى اريد ان احدثك فى الموضوع التالى ، حديثا للمستقبل . يبدو من الصحافة انك تواصل العمل بدأب وعناد ، وتنشر فى المواضيع الملحة ، وان كنت تنشر قليلا ، ثم ان الموضوع لديك مُلح ايضا . . موضوع بوليسى !

— انسانى يا اكتيابرينا بيرفيليفنا .

— ماذا قلت ؟ من حقك ان تفكر هكذا . اما اذا شئت الصراحة فما زلت ابعد ما تكون عن المواضيع الانسانية ، فضلا عن المواضيع الانسانية العامة ! فكما قال جوته : «اونر ايخ بار فى دير خيميل» — «عال وبعيد المنال كالسماء» .

. لا يذكر سوشنين انه قرأ للشاعر الالمانى العظيم شيئا كهذا . يبدو ان صيروكفاسوفا قد خلطت فى زحمة الحياة بين جوته وشخص آخر او انها استشهدت به استشهادا محرفا .

— انك لم تستوعب جيدا معنى الحبكة ، وبدونها ، واعذرنى ، فان قصصك البوليسية الخفيفة ليست سوى تبن لا غلة — اندفعت صيروكفاسوفا الى مجال نظرية الادب — اما ايقاع النثر ، او ما يعتبر خلاصته المركزة ، فهذا سر مختوم بسبعة اختام . وعدا ذلك فهناك الفورمة ، المتجددة دوما ، الفورمة المتحركة . . .

— انى اعرف ما هى الفورمة .

— ماذا قلت ؟ — أفاقت صيروكفاسوفا . كانت قد اغمضت عينيها وهى تلقى موعظتها الحماسية ، وبعثرت رماد السيجارة على لوح الزجاج الذى كانت تلوح تحته رسوم اطفالها العباقرة وصورة مجعدة لشاعر وافد شنق نفسه فى الفندق وهو سكران منذ ثلاث سنوات ولهذا السبب اصبح فى عداد

شعراء الموضة وفى مقام الشخصيات شبه المقدسة الراحلة . انتثر الرماد على طرف ثوبها وعلى الكرسى وفوق الارض ، وعلاوة على ذلك كان ثوبها رمادى اللون فلاحت صيروكفاسوفا وكأنما غطاها الرماد او غبار الزمن ، وتبدت للناظر كشخصية تتحدث فى جهاز تليفزيون بهتت شاشته وتعطلت فيه لمبتان .

— قلت انني اعرف ما هى الفورمة . . فقد كنت ارتديها .

— لم اقصد فورمة الشرطة * .

— آسف . لم افهم دقيق عباراتك — ونهض ليونيد سوشنين وهو يشعر بأن سعارا جنونيا يجتاحه — اذا لم تكونى فى حاجة الىّ بعد فسأسمح لنفسى بالانصراف .

— نعم ، نعم ، اسمح لنفسك — قالت صيروكفاسوفا وهى تشعر بقليل من الارتباك وانتقلت الى اللهجة العملية — مقدم المكافأة سيجهزونه لك فى قسم الحسابات . ستون فى المائة فورا ، ولكن النقود عندنا ، كما هو الحال دائما ، ليست متوفرة .

— شكرا ، اننى اتقاضى معاشا . وهو يكفينى .

— معاشا ؟ فى سن الاربعين ؟

— سنى اثنتان واربعون سنة يا اكتيابرينا بيرفيليفنا .

— وهل هذه سن بالنسبة للرجل ؟ — تراجعت صيروكفاسوفا ، ككل امرأة دائمة الضجر ، محاولة تخفيف لهجتها اللاذعة الى لهجة موحية بالثقة وشبه مازحة .

ولكن سوشنين لم يُبدِ استجابة لتغير اللهجة ، فانحنى مودعا وخرج الى الممر شبه المظلم .

---

* هنا تلاعب بالالفاظ . . . فكلمة «فورمة» تعنى : الشكل كما تعنى الزى الرسمى . **المعرب** .



وصاحت صيروكفاسوفا فى اثره :

— سأبقى على الباب مفتوحا حتى لا تلقى حتفك .

فلم يرد سوشنين عليها وخرج الى السلم الخارجى ، ووقف تحت سقيفة المدخل المزينة فى محيطها بحلية من الخشب المخرّم القديم الذى عبثت ايدى المتسكعين بتكسيره مثل الكعكات . رفع ليونيد ياقة المعطف الميرى المبطن ، ودفن رأسه بين كتفيه ، ومضى سائرا تحت اللحاف السماوى المطبق فى صمت ، حتى بدا وكأنه يوغل فى صحراء . وعرج على البار المحلى حيث استقبله الزبائن الدائمون بهمهمة ترحيب ، وحاولوا عقد أطراف الحديث معه ، وتناول كأسا من الكونياك فتجرعه دفعة واحدة وخرج وهو يحس بجفاف فى فمه وبدفء يتسرب الى صدره . وبدا وكأن النار فى كتفه يمحوها الدفء ، اما الألم فى ساقه فقد كاد يألفه او على الارجح سلّم به .

«ربما أشرب ثانية ؟ كلا ، لا داعى — هكذا قرر — لم أمارس ذلك من زمن بعيد ، فقد أسكر . . .»

سار عبر مدينته وهو يلاحظ من تحت مقدمة الكاب المبلل ، بصورة مألوفة كما عودته الوظيفة ، كل ما يجرى حوله ، وكل ما يقف ويمشى ويتحرك على عجلات . كان ما يتحرك على عجلات قليلا ، اما الواقف فكان كثيرا ، والسائر كان متوترا . لقد أوقف الزلق الذى غطى الشوارع لا حركة المرور فحسب بل والحياة نفسها . لزم الناس بيوتهم ، وفضلوا العمل تحت السقوف ، وكانت السماء تصب ماءها ، وفى كل مكان انتشر الوحل ، ولم تكن المياه تتدفق جداول ونهيرات ، بل استقرت باهتة ، متراكمة ، مسطحة ، مبعثرة ،

تدور وتنتقل من بركة الى بركة ومن شق الى شق . وفى كل مكان ظهرت القاذورات التى كانت مدفونة تحت الثلج : أوراق ، واعقاب سجائر ، وعلب مبللة ، وسلوفان يقرقع فى الريح . وتلاصقت الغربان والزيغان كتلا بأشجار الزيزفون السوداء والحور الرمادية ، والريح تهزها فتسقط احداها فتتشبث على الفور بالغصن وهى تتخبط بصعوبة كالعميان ، وتستقر عليه ناعسة متذمرة كالشيوخ ، وتزعق ثم تصمت على الفور وكأن حسكة انحشرت فى زورها .

وكانت افكار سوشنين تضاهى الطقس ، اذ كانت تتحرك فى رأسه بالكاد ، ببطء وتثاقل ، لم تكن تنساب او تتدفق ، بل تتحرك ، ولم يكن فى تلك الحركة ضوء بعيد او أمل ، بل مجرد قلق ، ومحض همّ ، الا وهو : كيف يواصل الحياة ؟

كان يدرك بجلاء تام ان خدمته فى الشرطة انتهت ، وانه خرج من المعركة ، الى الابد ! لقد انقطع الخـط المألوف ، ذلك الدرب الممهد ، ذو الاتجاه الواحد : القضاء على الشر ، مكافحة المجرمين ، تأمين سلامة الناس ، انقطع مرة واحدة كخط السكة الحديدية المسدود ، الذى شب بجواره وقضى طفولته ، انتهت القضبان ، وانتهـت الفلنكات التى تربطها ، وليس فى الامام اى اتجاه ، ليس ثمة أدنى طريق ، بل تمتد الارض كلها فيما يلى سدة الطريق ، فلتمضِ انت ولو الى الجهات الأربع ، او فلتدر حول نفسك فى مكانك ، او فلتجلس على آخر فلنكة شققها الزمن وجفت فلم تعد لزجة ، ولتستغرق فى التفكير ، ولتنعس او فلتصرخ



بأعلى صوتك : «سأجلس الى الطاولة وافكر ، كيف أعيش فى الدنيا وحدى . . .»

كيف يعيش فى الدنيا ؟ وحده ؟ من الصعب ان يعيش المرء فى الدنيا بدون الوظيفة المألوفة ، بدون عمل ، بل حتى بدون الزىّ والمطعم الميرى فعليه اذن ان يفكـــر فى المأكل والملبس ، ويرتب امور الغسيل ، والكى ، والطبخ ، وغسل الأوانى .

ولكن لا ، ليس هذا هو المهم ، المهم هو كيف يكون وضعه الآن ، وكيف يعيش بين الناس الذين ظلوا بالنسبة له لفترة طويلة منقسمين الى عالم الاجرام وعالـم اللااجرام . اما عالم الاجرام فهو رغم كل شىء معهود وذو وجه واحد ، حسنا ، وهذا العالم ؟ كيف يبدو فى صورته المبرقشة ، فى ازدحامه وهرجه ومرجه وحركته المستمرة ؟ الى اين ؟ لاى غرض ؟ وما هى نواياه ؟ وما هو طبعه ؟ «يا اخوان ، خذونى اليكم ! افتحوا لى !» — أراد سوشنين ان يصرخ فى البداية - كأنما مازحا ومهرجا بصورة معتادة ، ولكن ها هى اللعبة قد انتهت . واتضح ان امور المعيشة قد أطبقت عليه وأمسكت بخناقه ، وآهٍ منها هذه الامور المعيشية .

أراد سوشنين ان يعرج على السوق ليشترى تفاحا ، ولكن بجوار بوابة السوق ذات القوس المكتوب عليه بأحرف خشبية مائلة «أهلاً وسهلاً» رأى امرأة ثملة يسمونها «أورنا»* ، وهى تجرجر ساقيها وتحتك بالمارة . اطلقوا عليها ذلك الاسم

* وتعنى «صندوق القمامة» . المعرب .



٢*

بسبب فمها الاسود القذر الأدرد . وقد كـفّـت عن ان تكون امرأة ، بل هى مخلوق متفرد ، به تعطش أعمى شبه مجنون الى السكر والعربدة . كانت لديها أسرة ، زوج وأولاد ، وكانت تغنى فى فرقة الهواة بدار الثقافة لعمال السكك الحديدية وتقلد المطربة الشهيرة مرداسوفا . . لكنها اغرقت فى الشراب كل شىء واضاعته ، وأصبحت معلما مخزيا من معالم مدينة قيْسك . ولم تعد الشرطة تقبض عليها ، ولا حتى كانوا يأخذونها الى الحجز التابع لادارة الداخلية ، والذى يسمى شعبيا «مأوى المشردين» . اما فى الماضى فكان يسمى «سجن المشردين» ، كما كانوا يطردونها من مركز افاقة السكارى ، ولم يقبلوها بملجأ العجائز لانها لم تكن عجوزا الا بهيئتها فقط . وكان سلوكها فى الاماكن العامة فاضحا ، مشينا ، يحمل طابع التحدى الوقح الانتقامى للجميع . كان من المستحيل مقاومة «أورنا» بأى وسيلة من الوسائل ، ورغم انها كانت تتمدد على ارض الشارع وتنام تحت السطوح وعلى الارائك فلم تمت ولم تتجمد من البرد .

آه من ضحكى الممراح

بحظى دوما بالنجاح . . .

صاحت «أورنا» بصوت أبح فلم يمتص الفضاء الرطب البارد صوتها ، كأنما تطرد الطبيعة عن نفسها شيطانها وتعزله . وتجنب سوشنين المرور على السوق وعلى «أورنا» . كان كل شىء يسيل كما كان ويسبح وينز خواء باردا لزجا على الارض وفى السماء ، ولم تكن ثمة نهاية للضوء الرمادى وللارض الرمادية وللكآبة الرمادية . وفجأة ، وسط هذا العالم الرمادى الخلو من بارقة ضوء حدثت حركة متعشة وتناهى لغط وضحك ، وعند تقاطع الطرق قعقعت سيارة مفرملة فى ذعر .



ففى الشارع العريض الذى لا تبدو خطوطه الا فى الخريف ، وبالأحرى فى شارع السلام ، فى وسطه تماما ، وعلى العلامات الفاصلة البيضاء سارت على مهل فرس بلقاء وفى عنقها نير ، وهى تضرب جسدها بين الحين والحين بذيلها المبلل المقصوص بأناقة . كانت الفرس تعرف قواعد المرور ، وراحت تدق الارض بسنابكها كفتاة عصرية تدق بكعبى حذائها المستورد ، وهى تسير فى المنطقة الفاصلة فى وسط الشارع تماما . وكانت الفرس نفسها ، وكذلك عدتها مهندمة ومعتنى بها ، ولم تعر الدابة ادنى اهتمام لأحد او لشىء وهى تمضى لشأنها على مهل .

صاحب الناس بنظراتهم الفرس بالاجماع ، واشرقت وجوههم وهم يبتسمون ، وانهالت التعليقات فى اثر الفرس : «هربت من صاحبها البخيل !» ، «مضت تسلم لحمها لمصنع السلامى !» «لا ، بل الى مركز الافاقة ، فهو ادفأ من الاصطبل» ، «كلام فارغ ، بل ذهبت الى زوجة لافريا القوزاقى لتخبرها بمكان تواجده . . .»

ابتسم سوشنين ايضا من تحت ياقة معطفه وهو يصاحب بنظراته الفرس المتجهة نحو مصنع البيرة ، فهناك اصطبلها . وكان صاحبها ، حوذى مصنع البيرة لافريا قوزاقوف — الذى سماه الناس لافريا القوزاقى — عجوزا من فرسان فيلق الجنرال بيلوف القدامى ، حاملا لاوسمة «المجد» * الثلاثة ولكثير

* وسام حربى كان يمنح للشجاعة الفائقة وللاعمال البطولية وهو ذو طبقات ثلاث والذى يحصل على الطبقات الثلاث يعتبر بمثابة حامل لقب «بطل الاتحاد السوفيتى» . **المعرب** .

غيرها من الاوسمة والنياشين الحربية ، وقد نقل الليموناده وغيرها من المرطبات غير الكحولية ووزعها على «منافذ» التوزيع ، وجلس مع الرجال فى احد «المنافذ» الدائمة ، وهو بوفيه حمّام سازونتيف ، ليتحدث عن الحملات الحربية الماضية ، وعن الاوضاع الراهنة فى المدينة ، وعن بطش النساء وتهالك الرجال ، أما فرسه العاقلة فاطلق سراحها لتعود أُدراجهــا الى مصنع البيرة ، لكيلا تقف فى العراء متعرضة للبلل والبرد . وكانت شرطة فيُسك كلها ، بل وجميع سكان فيسك الاصليين يعرفون انه حيثما تقف عربة مصنع البيرة فان لافريا القوزاقى جالس يرتاح ويتجاذب أُطراف الحديث . اما فرسه فمدربة ، عصامية ، تفهم كل شىء ، ولا يمكن ان تضيع .

وقال سوشنين لنفســه : «ها قد تحرك فى الصدر شىء ، فلم يعد الطقس السيىء يثير الغم بتلك الدرجة» . وقرر حاسما : «آن الاوان لأتعود ، فقد ولدت هنا ، فى هذا الركن الرطب من اركان روسيا . وماذا عن زيارة دار النشر ؟ والحديث مع صيروكفاسوفا ؟ فلتذهب الى الشيطان ! ليكن ، انها حمقاء ! ويوما ما سوف يعزلونها . اما الكتاب فى حقيقة الامر فليس على المستوى . . أول كتاب ، وهو ساذج ، قد نالت منه كثيرا نزعة التقليد ، كما انه شاخ خلال السنوات الخمس . الكتاب القادم ينبغى ان اكتبه افضل ، وأنشره بعيدا عن صيروكفاسوفا ، ربما حتى فى موسكو نفسها . . .» .

ابتاع سوشنين فى المتجر رغيف خبز وعلبة فواكه محفوظة بلغارية وزجاجة لبن ودجاجة ، اذا كان من الممكن اعتبار هذا المخلوق المغمض العينين بحزن قاتل ، العارى الازرق البدن ،



ذى العنق الذى تمتد منه مباشرة عدة ارجل طويلة ذات مخالب ، اذا كان من الممكن اعتباره دجاجة . بيد ان الثمن كان يضارع ثمن اوزة ! ومع ذلك فليس فى ذلك ما يثير الاستياء . سيصنع بها حساء شعرية ، ويجرع شيئا من هذا الحساء الساخن ، وبعد الغداء الدسم يتمدد ، وعلى وقع القطرات الرتيبة المتسربة من بطارية التدفئة ودقات ساعة الحائط القديمة — ينبغى الا ينسى ان يملأها — وعلى وقع نقرات المطر سيستمتع بالقراءة زهاء ساعتين ثم ينام ، وبعد ذلك يجلس الى المكتب طول الليل ليبدع . حسنا دعنا من الابداع او عــــدم الابداع ، المهم انه سيعيش فى عالم خاص صنعـــه خياله .

كان سوشنين يعيش فى الحى الجديد للعاملين فى السكة الحديدية ولكن فى منزل خشبى قديم من طابقين يحمل رقم سبعة ، كانوا قد نسوا ان يهدموه ، وبعد النسيان اضفوا عليه الشرعية فأوصلوه بشبكة المياه الساخنة والغاز وانابيب الصرف . كان بيتا شيد فى الثلاثينات ، وفق مشروع معمارى بسيط ، وبسلم داخلى يقسم البيت قسمين وفوق مدخله مقيفة حادة الميل اشبه بالمثلث كان فيها فى وقت ما اطار بزجاج ، وجدران مائلة الى الصفرة وسطح بنى . كان هذا البيت يقف منكمشا فى تواضع ويغوص فى الارض فى استكانة بين جدارين جانبيين اصمين لمبنيين من المنازل السابقة التجهيز . كان البيت معلما ، وعلامة طريق ، وذكرى للطفولة ، ومأوى طيبا للناس . وكان سكان الحى الجديد يسترشدون به ويرشدون زوارهم اليهم بهذا المبنى البروليتارى الخشبى : «وبعد ان تمر بجوار البيت الاصفر . .» .

لم يكن مفهوما ان كان سوشنين يحب بيته ام يشفق عليه . وربما كان يحبه ويشفق عليه معا لانه شبّ فيه ولم يعش فى أى بيت غيره سوى فى البيوت الجماعية ولم يعرف بيوتا سواه . كان أبوه قد حارب فى صفوف الفرسان ، وايضا فى فيلق بيلوف هو ولافريا . كان لافريا جنديا وكان ابوه قائد مفرزة . ولم يعد ابوه من الحرب ، فقد استشهد اثناء غارة قام بها الفيلق فى مؤخرة العدو . وكانت امه تعمل فى مكتب فنى بمحطة ڤيسك ، فى غرفة كبيرة مسطحة شبه مظلمة ، وسكنت مع اختها فى هذا البيت ، فى الشقة رقم اربعة فى الطابق الثانى . كانت شقة من غرفتين مربعتين صغيرتين ومطبخ . وكانت نافذتا احدى الغرفتين تطلان على خط السكة الحديدية ، وتطل نافذتا الغرفة الثانية على الفناء . وكانت هذه الشقة قد اعطيت لاسرة عاملى السكة الحديدية الشابة ، ثم جاءت اخت والدته ، اى خالة سوشنين ، من القرية لتعنى به ، فتذكرها وعرفها اكثر من والدته ، لان جميع العاملين فى المكاتب اثناء الحرب كثيرا ما كانوا يرسلون لتفريغ عربات السكك الحديدية ، او لمكافحة الثلج المتراكم ، او لجنى المحاصيل فى القرى ، فكانت امه نادرا ما تبقى فى البيت ، وانهدت قواها خلال الحرب ، وفى نهايتها اصيبت بنزلة برد قوية فمرضت وماتت .

وبقى سوشنين مع الخالة ليبا وحدهما ، الخالة ليبا التى دعاها خطأ فى صغره «لينا» ، وهكذا ثبتت «لينا» فى ذاكرته . وسارت الخالة لينا على خطى شقيقتها وشغلت مكانها فى المكتب الفنى . وعاشا مثل جميع الناس الشرفاء فى البلدة بمساعدة الجيرة وقطعة الارض المزروعة ببطاطس خارج



المدينة ، يدبران امورهما بصعوبة من الراتب للراتب ، واحيانا يعجزان عن ذلك اذا تصادف واضطرا لشراء شىء جديد او الانفاق قليلا فى الاعياد . ولم تتزوج الخالة ولم تحاول الزواج مرددة : «عندى ليونيا» * . لكنها كانت تحب المرح الكبير ، المرح الصاخب على طريقة اهل الريف ، بمصاحبة الاغانى والرقصات والصراخ .

من ذا وما الذى فعل ذلك بهذه المرأة الشريفة المسكينة ؟ الزمن ؟ البشر ؟ الاهواء ؟ الارجح هو ذلك جميعا . ففى نفس المكتب ، وفى نفس المحطة اصبحت لها طاولة مستقلة خلف حاجز ، ثم نقلوها حتى «الى فوق» ، الى القسم التجارى بفرع ڤيسك للسكك الحديدية . وبدأت الخالة لينا تأتى الى البيت بالنقود والخمر والمواد الغذائية ، وأصبحت مشحونة بمرح متوتر ، تتأخر فى العودة من العمل ، وحاولت ان تتعايق وتتزين . «اوه يا ليونكا ! اذا هلكت انا ، هلكت انت ! . . .» . وكان العشاق يخابرونها . فكان ليونكا يتناول السماعة احيانا فيسأل بخشونة دون ان يحيى : «من تريد ؟» — «ليبا» — «ليس لدينا مثل هذه !» — «كيف لا ؟» — «لا وانتهينا !» ، فتخربش الخالة باظافرها السماعة قائلة بخجل : «هذا لى ، لى . .» «آه ، تريد الخالة لينا ؟ هلا قلت ذلك . . نعم ، تفضل ! دائما تفضل !» ولا يعطى السماعة للخالة فورا ، بل يعذبها قليلا . وتقبض هى عليها فى راحتها :

* ليونيا وليونكا تدليل من الاسم الكامل ليونيد ، وهو اسم سوشنين . **المعرب** .

«لماذا تخابر ؟ ألم أقل لك فيما بعد . . فيما بعد ، فيما بعد ! متى ، متى ؟ . . .» . ويا له من امر مضحك مبك معاً . ليس لديها اى خبرة فاذ بلسانها يفلت : «عندما يذهب ليونكا الى المدرسة» .

كان ليونكا فى سن المراهقة ، وقد ركبته الكبرياء : «يمكننى ان انصرف الآن ! قولى متى أعود ، وكل شىء يكون تمام . . .» فتقول الخالة متضرجة وهى تخفى عينيها : «يا سلام عليك يا ليونيا ! انهم يخابروننى من المكتب ، وانت ، الله يعلم ، ماذا تظن . . .» .

كان يسدد اليها ابتسامته الساخرة ويلفها بنظرته المحتقرة ، وخاصة عندما تنسى الخالة لينا نفسها وهى تتحدث بالهاتف ، فتخلع من قدمها فردة الشبشب المداسة وتلف ساقا على ساق وهى تشب على اطراف اصابعها ، وكأنها غندورة من بنات الصف العاشر تقف فى كابينة تليفون عمومى وتقلب عينيها وتثرثر . وهنا لا بد ان يحتاج الصبى الى كنس الغرفة ، فيعدل بالمكنسة من وضع ساق الخالة ويعيدها الى مكانها ، او يغنى بصوت مراهق متحشرج : «فلتهدئى يا اشواق الغرام» .

هذه المرأة الطيبة عاشت معه وله طول الحياة ، فكيف يسعه ان يتقاسمها مع احد آخر ؟ أليس صبيا عصريا ؟ أليس انانيا ؟

بجوار مبنى ادارة شرطة الاقليم الذى غطيت جدرانه لسبب ما ببلاطات خزفية جىء بها من منطقة الكاربات ولكن ذلك لم يجعله أجمل ، بل ربما اصبح اكثر جهامة ، وفى



سيارة من طراز «فولجا» كرزية اللون ، استقر السائق فانكا ستريجاليوف نائما وهو متكئ على الباب ، فى سترة جلدية وطاقية من فراء الارنب ، وهو ايضا شخص طريف للغاية . كان بوسعه ان يجلس فى السيارة اربعا وعشرين ساعة دون ان يطالع كتابا بل يفكر ببطء فى شىء ما . وقد اتفق لسوشنين ، فى صحبة كناس ادارة الشرطة العم باشا ، وصديقه العجوز اريستارخ كابوستين ، ان يرحلوا لصيد السمك ، فكانوا يشعرون حتى بالحرج من ان فتى شابا ذا سوالف يجلس طول اليوم فى السيارة وينتظر الصيادين . «هلا قرأت شيئا يا فانكا ، صحيفة او جريدة او كتابا» — «وما الداعى لقراءتها ؟ اى فائدة منها ؟» يقول فانيا ويتثاءب بتلذذ وينتفض بعذرية .

وها هو العم باشا . انه دائما يكنس . ويحك الارض . ليس هناك ثلج ، فقد ذاب ، ولكنه يكنس المياه ، يحولها الى ما وراء البوابة ، الى الشارع . ولكن الكنس والحك ليسا اهم الامور بالنسبة للعم باشا . لقد كان متعصبا اعمى لصيد السمك وللهوكى ، والتحق بالعمل كناسا من اجل تحقيق غرضه : فالعم باشا ، وان لم يكن سكيرا ، كان يشرب ، ولكى لا يبدد معاشه على الهوكى وصيد السمك والشراب ويمزقه اشلاء ، مضى يكسب بالمكنسة «نفقاته الخاصة» ، أما المعاش فكان يسلمه الى يد زوجته المضمونة . وكانت هى بدورها تصرف له «نفحة الاحد» بحساب وتوبيخ قائلة «هذه خمسة روبلات لك يا باشا للصيد ، وهذه ثلاثة للهوكى بتاعك ، عليه اللعنة» .

وكانت ادارة الشرطة تحتفظ ايضا بعدة احصنة واصطبل صغير كان يتولاه صديق باشا ، العجوز اريستارخ كابوستين ،

وقد قاما معا بحفر حفرة تحت مبنى شرطتهما الحبيبة حتى بلغا مواسير التدفئة المدفونة ، التدفئة المركزية الموصلة الى مبنى الادارة ، وردموا هذه المواسير بروث الخيول والتربة والعطن ، وموهوا الحفرة من اعلى بألواح الاردواز ، وبهذه الطريقة ولّدوا طوال العام ديدانا كان هواة الصيد يأخذونها منهم كطعم مقابل توصيلهم الى مكان الصيد بالسيارات ولو حتى بسيارات الرؤساء . ولم يكن العم باشا والعجوز اريستارخ كابوستين يحبان مصاحبة الرؤساء الى الصيد ، اذ كان الرؤساء وزوجاتهما يرهقونهما فى الحياة اليومية ، فيرغبان فى ان يشعرا بالحرية المطلقة فى حضن الطبيعة ويرتاحا وينسيا هؤلاء واولئك .

كان العجوزان يخرجان فى الرابعة صباحا الى الشارع ، ويقفان عند التقاطع ، مرتكزين على عتلتيهما للحفر ، وسرعان ما تفرمل بقربهما سيارة ، هى سيارة نقل فى الغالب ، بصندوق من المشمع او من الخشب الابلكاش ، وتكاد تلعقهما من على الاسفلت ، اذ تمتد ايد ما فتلتقط العجوزين وتدسهما فى الخلف ، فى زمرة الناس . «آه ، انت يا باشا ! آه ، وهذا أريستاشا ، اما زلتما تعيشان ؟» — تتناهى الهتافات ، ومنذ تلك اللحظة ، منذ ان يصبح الصيادان المجربان فى محيطهما الحبيب ، تسرى الراحة فى بدنيهما وروحيهما ، فيتحدثان عما هو «خاص» وسط «الخاصة» .

كان ساعد العم باشا الايمن مغطى كله بالندوب البيضاء ، وكان الصيادون ، وليس الصيادون وحدهم ، بل بقية الاوساط الشعبية فى المدينة ، ينظرون الى هذه الندوب ربما باحترام اكبر مما ينظرون به الى جراحه التى اصيب بها فى الحرب .

وجماهير الصيادين تنساق وراء هوس الصيد ، فتتلاطم



على صفحة البركة كالامواج ، وتحفر الجليد ، وتدير الحفارات ، وتسب ، وتتذكر المرات السابقة ، وتلعن التقدم الصناعى الذى قضى على السمك ، وتتأسف على انها لم تذهب الى بركة اخرى .

اما العم باشا فليس من هؤلاء الصيادين . فهو يلبث فى مكان واحد وينتظر الحسنات من الطبيعة ، رغم انه فى الصيد من المهرة ، ومهما كان الحال يعود دائما بما يكفى لحساء السمك واحيانا يعود بحمل كامل منه — يملأ صندوق الصيد وجوالا وقميصه الداخلى المربوط الاكمام .. عند ذاك تأكل الادارة كلها ، وخاصة الكادر الادنى ، حساء السمك ، اذ كان العم باشا يوزع السمك عليهم جميعا . اما العجوز اريستارخ كابوستين فكان بخيلا بعض الشيء . كان يقدد السمك بين ضلفتى النافذة فى شقته ، ثم يملأ جيوبه بالسمك المقدد ويذهب الى بوفيه حمام سازونتييف ، فيدق بالسمكة المقددة على الطاولة ، ودائما ما يظهر هواة تمزيق السمك المملح بالاسنان وفى المقابل يضيفّون اريستارخ كابوستين بيرة بالمجان .

كانت تروى عن العم باشا قصة خبيثة مختلقة ، وكان هو نفسه مع ذلك يضحك منها مؤيدا . وتقول الرواية انه استقر بجوار حفرة الصيد* لا يبرحها ، والصيادون يمرون به

* لصيد السمك شتاء فى الانهار والبحيرات المتجمدة السطح يقوم الصيادون بحفر حفر صغيرة فى الجليد الذى يغطى السطح ليبلغوا الماء الجارى ويجلسون هم على صناديق من الخشب اتقاء للبرد ويدلون السنانير بدون عصى فى الحفر . **المعرب** .

وكل منهم يسأل : «كيف حال الصيد ؟» والعم باشا صامت لا يرد . والصيادون يسألون ويسألون ، فلم يصمد العم باشا ويصق من فمه الديدان الحية وصاح وهو يسب : «سيتجمد الطعم كله بسبب أمثالكم !»

وذات ربيع تملكت رغبة البحث رفيق صيده اريستارخ كابوستين ، ففى المساء تدفقت المياه الغزيرة فى النهر الذى يصب فى البحيرة «الصافية» ، فحطمت الجليد ودفعت أمواجها العكرة المحملة بالطعم بالسمك الى وسط البحيرة . وقيل انه فى المساء ، فى الظلام المطبق تقريبا ، بدأ الزاندر المحنك نفسه — ، وهو سيد السمك ، ينقض على الطعم ، فاغتنم الصيادون المحليون سمكا كثيرا . بيد انه فى الصباح تغيرت حدود المياه العكرة ، فتقهقر معها السمك ابعد فأبعد . ولكن الى اين ؟ ان البحيرة «الصافية» عرضها خمسة عشر كيلومترا وطولها سبعون . وصاح العم باشا فى رفيق صيده اريستارخ كابوستين : «هس ! اجلس هنا ! سيأتى السمك الى هنا . .» ولكن ذاك لم يصغ اليه ! لقد دفع الشيطان بأريستارخ كابوستين على طول البحيرة .

ظل العم باشا نصف اليوم حانقا على اريستارخ كابوستين ، ويستخرج السمك الصغير بالسنانير ، واحيانا كان يصطاد اسماك فرخ كبيرة ، واشتبكت سمكة كركى بالسنانير مرتين وقطعت الخيط . عندئذ دلّى العم باشا بصفيحة الخطاطيف تحت الجليد ، ومضى يغيظها ، ثم التقطها فأخرجها . حسنا ، كفاكِ تشاقيا ! هاهى ، ذلك الوحش الكاسر لعالم ما تحت الماء ، تتلوى على الجليد حتى ليتطاير الرذاذ ، وفى فمها قطع من خيط السنانير الرفيع مع بعض الشصوص ، فهى اشبه بأسنان صناعية براقة ركبت فى فكها الوقح . ولم



يستخرج العم باشا الشصوص من فكها ، فلتعرف هذه الملعونة اذن كيف تخرب ممتلكات الصيادين الفقراء !

عند الظهر خرج صبيان صغيران من البوابة المفتوحة للدير الساكن ذى الابراج التى وان بدت بالية لكنها صامدة ، والذى علقت عند مدخله لافتة متواضعة كتب عليها : «مدرسة داخلية» ، خرج الصبيان ، وكانا شقيقين احدهما يدعى انطون والثانى سانكا فى التاسعة وفى الثانية عشرة من عمرهما ، وجاءا الى البحيرة . وقال العم باشا فى نفسه مخمنا : «هربا من الدروس الاخيرة» ، ولكنه لم يدنهما ، فالدراسة ما تزال امامهما ممتدة ، ربما بطول الحياة ، اما الصيد الربيعى فهو كالعيد ، يمرق كالبرق فلا تلحظه . وفى ذلك اليوم مر الصبيان مع العم باشا بمأساة كبيرة . فما ان جلس الصبيان بجوار السنانير حتى امسكت سمكة كبيرة بطعم سنارة احدهما ثم سقطت فى الحفرة . سقطت من الصغير فبكى بحرقة . فقال العم باشا يطيب خاطره بصوت هامس متوتر : «لا تزعل ، لا تزعل يا فتى ، سوف نمسك بها ! لن تهرب منا ! خذ هذه قطعة حلوى ، واليك ايضا بكعكة مدنية بحب الخشخاش» .

لقد حدس العم باشا كل ما سيحدث وحسب حسابه : فعند الظهر سيزداد تدفق النهر فى البحيرة باتجاه المياه العكرة التى يتغذى فيها السمك الصغير بالعوالق ، ويدفع بالعكارة بعيدا ، وعندئذ تنقض الاسماك «الكاسرة» الكبيرة طلبا للقنص . ولكن جحافل الصيادين ، الذين يضربون بحفاراتهم فى الجليد بوحشية ، ويقعقعون بجزمهم ، ويصمّون اسماع الناحية بسبابهم المقذع ، سوف يرعبون هذه الاسماك الحذرة الحساسة ،

التى لا تتحمل السباب المنتقى ، فيدفعونها للهرب الى «المنطقة الحرام» ، وبالتالى فستأتى الى هنا ، حيث يجلس العم باشا منذ الصباح مع الصبيين ، دون ان يتفوه بكلمة سباب واحدة ! يجلس صابرا منتظرا .

وتأكدت حساباته الاستراتيجية تماما ، وكوفئ على صبره وعلى تواضع ألفاظه : فالى جواره ، على الجليد ، تمددت ثلاث سمكات زاندر زنة الواحدة كيلوجرام ، وهن يحدقن فى السماء فى أسى بأعين رصاصية . وعلاوة على ذلك سقطت من السنارة سمكتان ، وكانتا الاكبر ! لكن اكثر ما أدخل السرور على قلب العم باشا غير الحسود كان الصيادان الصغيران : الصبيان انطون وسانكا . فقد اصطاد كل منهما سمكتى زاندر كذلك بدون طعم ، بل بصفيحة معدنية مصنوعة من خرطوشة بندقية قديمة . كان الأصغر يصيح ، ويضحك ، ويروى المرة تلو المرة كيف غمزت السنارة ، وكيف هجمت السمكة ! . . وشجعه العم باشا تأثرا : «انظر كيف الحال ؟ بينما انت تبكى ! الدنيا هى دائما هكذا ، مرة تغمز ، ومرة لا تغمز . . .» .

وهنا وقع الحدث البطولى الخارق ، الذى أثار الاضطراب لا فى نفوس الصيادين وحدهم بل وفى نفوس جميع السكان المحليين ، وهز جزءا من اهالى مدينة فيَـك نفسها .

كان هو الشيطان او هو عفريت الصيد ، الذى استولى على العم باشا فانتقل الى حفر الصبيين حتى لا يثير ضجة بالحفر من جديد . وما ان دلّى سنارته الشهيرة المعدة لصيد سمك الهف الاوربى حتى هزتها جذبة اختبار قوية ، ثم شدتها ضربة شديدة ، حتى ان العم باشا ، رغم كل خبرته فى الصيد ، تمكن بالكاد من الامساك بالسنارة وعدم افلاتها !



وبعد الضربة هجمت السمكة بقوتها وجذبت الخيط الى اعماق البحيرة .

كانت سمكة زاندر زنة سبعة كيلوجرامات وسبعة وخمسين جراما — وزنوها بعد ذلك بدقة ميزان الصيدلى — هى التى انحشرت فى حفرة الصيد الضيقة . وارتمى العم باشا على بطنه ، ودس يده فى الحفرة وقبض على السمكة من خياشيمها . وصاح فى الصبيين : «اضرب !» مومئا برأسه بشدة نحو عتلة الحفر الحديدية . وقفز الصبى الاكبر وأمسك بالعتلة ورفعها الى أعلى ثم تجمد فى هذا الوضع : كيف «اضرب» ؟ وذراعك ؟ وعندئذ زأر المحارب القديم المجرب وعيناه تدوران فى محجريهما بجنون : «كما فى الحرب !» . فأخذ الصبى الجسور يتفصد عرقا مسبقا وهو يحطم الجليد ليوسع الحفرة .

وسرعان ما تغطت الحفرة بخيوط الدم الحمراء ، بينما العم باشا يوالى اصدار الاوامر : «يمينا ! يسارا ! اجرف ! اجرف ! اجرف عندك ! لا تقطع الخيط . . .» . كانت الحفرة مليئة بالدم عندما اخرج العم باشا من الماء السمكة التى ارتخى جسمها ، والقى بها على الجليد . وعلى الفور توائب بساقيه اللتين شوههما الروماتيزم ، ورقص وهو يصرخ ، ثم سرعان ما ثاب الى رشده ففتح الصندوق وأسنانه تصطك بردا ، ودفع بزجاجة فودكا للصبيين وأمرهما بدعك يده المتجمدة بالفودكا وتطهير الجراح .

وبعد ذلك استمر عرض السمكة يومين فى فناء ادارة الشرطة ، وكان فى مركز الصدارة العم باشا المضمَّد ، وهو يلوح بيديه ، ويهز احدا ما ، ويجذب آخر ، وينشد ويلقى باشياء ما ويصرخ ويقفز ويغنى . وأحس سوشنين ، وهو يرى



3-1344

ذلك كله من النافذة ، بالاسف لانه لا يملك كاميرا ، والا لكان هذا فيلما عظيما !

وفى اليوم الثالث ارسل رئيس الشئون المعيشية العم باشا الى الادارة الطبية ، حيث اعطوا للصياد شهادة مرضية كتب فيها «اصابة خارج العمل» ، اى بأجازة غير مدفوعة الأجر . وهنا هبَّ جميع العاملين لنصرة البطل ، وخابروا الادارة الطبية والمنطقة الطبية وأحقوا الحق ، اذ تم تغيير عبارة «اصابة خارج العمل» الى «اصابة اثناء الخدمة» .

القى القبض على العاملين فى القسم التجارى وحوكموا وسجنوا دفعة واحدة . وحاولت الخالة لينا الانتحار بالسم ، فأنقذوها . وبعد المحاكمة ارسلت الى مستعمرة عمل اصلاحية . حكم عليها بمدة قصيرة ، ولكن الخالة لينا ، وليونيا معها ، عانيا الكثير من العذاب والعار . كان ليونيا سوشنين انذاك تلميذا فى المدرسة الاقليمية الخاصة التابعة لادارة الشرطة ، فقد أصرت الخالة لينا على ذلك قائلة : «الملابس مجانا ، ثم هناك المأكل ، والعناية ، ثم العمل دفاعا عن العدالة . . . » . وقد أدرك فيما بعد انها كانت تشعر بانها لن تنجو من الكارثة فأرادت ان تكفل للصبى مكانا أمينا . وكادوا يفصلون سوشنين من المدرسة . ولكن العاملين فى الادارة وسكان المنزل رقم سبعة والمنازل المجاورة ، الذين شب سوشنين ونشأ امام اعينهم ، والاهم من ذلك صديق ابيه وزميل كفاحه لافريا القوزاقى ، توسطوا لصالحه . قص لافريا القوزاقى شعره ، وتعطر بالكولونيا ، ومسح حذاءه ، وارتدى حلة جديدة ثبت



على صدر سترتها اوسمة «المجد» وصفين آخرين من الاوسمة ، ومضى بكامل هيبته الى رئيس الادارة الاقليمية للشرطة ، وأجرى معه مقابلة طويلة .

وبعد ذلك سرّج لافريا القوزاقى فرسه الامينة ، ثم رحل هو وليونيا الى «استخراج الخث» لزيارة الخالة لينا . ارتمت على ركبتيها امام المحارب القديم ، بينما حوَّل ابن اختها ، حامى النظام فى المستقبل ، عينيه وهو يزدرد الدموع ويقسم بينه وبين نفسه ان يكافح الجريمة بلا هوادة ، وخاصة اولئك الذين يغوون الابرياء ويحرفونهم عن السبيل ويدمرون مصائرهم وارواحهم .

أفرج عن الخالة لينا فى العفو العام . والتحقت بالعمل فى ورشة تنظيف ملابس ، وكانت تقوم بغسل الملابس فى البيت لتكسب قليلا ، وتنزوى فى الاركان ، وتحاول الابتعاد نهارا عن الاعين ، وتتحدث بصوت خافت ، وعندما ماتت بدا لليونيا ايضا انها حاولت ان تنكمش فى التابوت وتخفى عن الناس عينيها ويديها اللتين كوتهما الاحماض والصابون تحت طيات اللفاع الدانتلا الاسود .

وقبل وفاة الخالة لينا كان سوشنين قد تخرج من مدرسة الشرطة ، وعمل فى مركز خايلوفسك البعيد شرطى قطاع ، ومن هناك عاد بزوجة . واتسع الوقت للخالة لينا لتفرح قليلا باستقرار أمور ليونيا ، ولترعى قليلا ابنته سفيتا ، التى اعتبرتها حفيدة لها ، وعندما وافتها المنية أسفت على انها لم تعش لتدخل حفيدتها المدرسة ، ولم تضعها على قدمين راسختين ، وكانت مساعدتها للزوجين الشابين قليلة ، قليلة جدا .

آه من هؤلاء الازواج الشبان المتهورين . . . يا للجياد

الطلبقة . . . حبذا لو وضع لهما استثناء فى أكثر الدساتير انسانية ، وذلك باصدار مرسوم يبيح الجلد : فلتجلد الزوجة زوجها على مرأى الناس فى الميدان الفسيح ، ويجلد الزوج زوجته . . .

بعد وفاة الخالة لينا انتقلت أسرة سوشنين ، تلك الخلية الصغيرة التى لم تلتحم تماما بعد ، الى رعاية خالة اخرى ليست أقل عوناً ، تدعى جرانيا ولقب عائلتها ميزينتسيفا ، ولم تكن خالة لسوشنين ولا تجمعها به صلة قرابة ، لكنها كانت قريبة لجميع المضطهدين واليتامى من الأقوام المستقرة بجوار خط السكة الحديدية والمحتاجة الى الرعاية والعطف والتشغيل .

كانت الخالة جرانيا تعمل محولجية فى قطاع المناورة والخطوط المجاورة له . وكان كشك التحويل يقع فى طرف المحطة من الخلف . هنا خط مسدود مدوه ثم هجروه من زمان ، وبه نصبتان خشبيتان وقد غطاه العشب البرى . وعند سفح جسر الخط الحديدى تبعثرت بضع عجلات حديدية صدئة ، وهيكل عربة بمحورين ، ورصة جذوع اشجار مستديرة أفرغها أحد ما فى زمن ما هنا ، ولم تدع الخالة جرانيا لأحد ان ينهبها ، وانتظرت سنوات طوال ان يأتى صاحبها ليأخذها حتى تعفن الخشب ، وعندما لم يأت أحد اخذت تقطع بالمنشار كتلا صغيرة من الجذوع ، فكان الصبيان ، الذين ينتشرون كالقطيع حول كشك التحويل ، يجلسون على



تلك الكتل ويتدحرجون ويبنون منها قاطرة .

لم يكن لدى الخالة جرانيا اطفال أبداً فلم تتوفر لها كفاءة مدربة على تربية الاطفال . كانت ببساطة تحبهم ، دون ان تفضل أحداً على أحد ، دون ان تضرب أحداً أو تسب أحداً ، وتعامل الصغار وكأنهم كبار ، وتحدس طباعهم وخلقهم وتروضها ، دون أن تستخدم فى ذلك أى مواهب أو أسرار من اسرار التربية المرهفة التى تصر عليها الصحافة الوعظية الحديثة اصراراً طويلاً . كان الرجال والنساء يشبون ببساطة بجوار الخالة جرانيا ، ويزدادون قوة وخبرة بشئون السكك الحديدية وفطنة ، ويشتد عودهم فى مجرى العمل . وكان ذلك الركن الصغير المحيط بكشك التحويل يمثل للكثيرين من الصبيان ، ومنهم ليونيا سوشنين ، روضة أطفال وساحة لعب ومدرسة خبرة ، وبالنسبة لبعضهم حل محل بيت الوالدين . وكانت تسود هنا روح الدأب على العمل والاخوة . كان المواطنون الصغار للدولة السوفييتية التى تملك أطول سكك حديدية فى العالم ، والذين لا يستطيعون بعد القيام بالعمل الجدى فى النقل الا وهو تسيير القطارات ، كانوا ينهمكون فى دق المسامير الطويلة ، ويمدون الفلنكات ، ويركبون وينزعون الصواميل فى الخط المسدود ، ويجمعون تراب الجسر براحاتهم . وكان «مساعدو الحركة» هؤلاء يلوحون بالأعلام ، وينفخون فى النفير ، ويساعدون الخالة جرانيا على نقل ثقالة التحويلة من جانب لآخر وسحب ووضع قباقيب الفرامل على القضبان ، ويحصون معدات السكة الحديدية ، وكانت لهم قطعة أرض بجوار الكشك ، وفى شهور الصيف كانوا يغرسون ويروون زهور الاظافر والخشخاش الأحمر والأقحوان القنوع . ولم تكن الخالة جرانيا تقبل

الصغار غير القادرين بعد على الالتزام بالانضباط الصارم فى السكك الحديدية للعمل ، فلم تكن لديها فى الكشك الظروف الملائمة لهم .

كان زوج الخالة جرانيا ، تشيتشا ميزينتسيف ، (لم يستطع سوشنين أبداً ان يعرف كيف ظهر هذا الاسم ولماذا) يعمل وقاداً فى دار الثقافة للعاملين بالسكة الحديدية ، ولم يكن يخرج من قبو المرجل الا فى اعياد الثورة وكذلك فى عيد الميلاد وعيد الفصح وعيد نصب الصليب لأن أحد أيام عيد نصب الصليب كان يوافق عيد ميلاد تشيتشا . وكانت الخالة جرانيا تعمل اثنتى عشرة ساعة فى اليوم وترتاح فى اليوم التالى ، مع اجازة يومين فى نهاية الأسبوع باعتبارها من عمال الحركة ، وبالتالى فهى شخص مسئول فى السكة الحديدية . وكانت تحمل الى زوجها فى قبو المرجل طعام يومه وزجاجة فودكا .

كانوا يرددون فى فيسك مزحة ، اطلقها لافريا القوزاقى نفسه ، تدّعى ان تشيتشا انهمك فى الوقادة حتى خلط بين الصيف والشتاء . وهبط اليه فى قبوه الحار وفد من فرقة هواة الباليه المحلية وهم يكادون يشتعلون وصاحوا به : «تشيتشا ، يخرب بيتك ، فى أى شهر نحن الآن ؟» — «اظن فى شهر فبراير . .» — «نحن فى يونيو ، فى آخر يونيو ! وأنت تشعل النار بلا توقف ! الراقصات يفلتن من أيدينا من العرق !»

كان ليونيا ، ككل فتيان بلدة عمال السكة الحديدية يعد نفسه ليصبح سائق قطار ، وكان يأكل مع زملائه بطاطس مشوية و«تفاحاً مراً» أى بصلاً بالملح ، ويشرب الشاى الرخيص من التوت البرى المجفف ، يشربه من فم غلاية الخالة



جرانيا النحاسية مباشرة ، فقد كان يروقه الشرب من فم الغلاية ، وظل محتفظاً بهذه العادة حتى الآن ، مما كان سبباً من اسباب الخلافات العائلية .

ذات يوم بردت بطاريات التدفئة فى دار الثقافة لعمال السكة الحديدية ، وبرزت المدخنة التى كانت تنفث دخانها فى السماء وفى الحديقة العامة المجاورة للدار حادة الملامح على صفحة الجدار الخلفى المطلى بالجير الأبيض لمبنى دار الثقافة ، وتعرى الجزء الخلفى من المبنى بخجل مثل امرأة معروقة كادحة تجردت من ثيابها على بلاج شاطئ مدينة سوتشى* . حدث شىء ما غير طيب فى الناحية كلها ، وضاع ملمح مألوف من ملامح مدينة فيسك . خفّ الدخان المتصاعد من المدخنة ثم كفّ اخيراً عن التسرب تماما فقد انتهى تشيتشا : سقط «شهيد الواجب» كما كتبت فيما بعد جريدة «البطاقة الستالينية» التابعة للسكة الحديدية فى تعقيب بعنوان «الكادح المتفانى» . ومن هذا التعقيب علم الناس ان تشيتشا كان من الفدائيين الحمر ، وكان حاصلاً على وسام حربى وعلى شارة تفوق فى العمل «للعامل الطليعى» حصل عليها لقاء عمله فى المرجل .

وبعد دفن تشيتشا عاشت الخالة جرانيا بعض الوقت فيما يشبه النعاس ، وكانت تسير ببطء ، فى حذاء ميرى

* سوتشى — مركز للراحة والعلاج والاستجمام على شاطئ البحر الأسود . **المعرب** .

قذر وقد عصبت رأسها بمنديل فلاحي ألقى بظلاله على عينيها الساطعتين السوداوين اللتين لم تكن تبدو فيهما حتى حدقتاهما ، وارتدت هذا المنديل اثناء العمل فى مخالفة تامة للقواعد الموضوعة فى السكة الحديدية . وقد احترم السائقون ومشكّلو القطارات ومشبكو العربات والمحصلون هذا الحزن الانسانى فلم ينبهوها الى هذه المخالفة .

ولكن المصائب لا تأتى فرادى . فمن عربة مكشوفة كانت تنحدر من تل المناورة سقطت بلاطة كبيرة لم تكن مثبتة جيداً وصدمت الخالة جرانيا فى رأسها . ولو سمع ذلك المهمل والسكير الذى لف السلك باهمال وهو يثبت بلاطات الخشب على العربة صراخ الاطفال فى ركن محطة فيسك ، ولو انه رأى جماعة الصغار فى سن الروضة وهم يحاولون سحب المرأة المضرجة بالدماء من على القضبان ، لظل بقية عمره يكفّر عن ذنبه ، ولعكف على اداء عمله باتقان ولأمر الآخرين بأن يعملوا كما يجب .

خرجت الخالة جرانيا من المستشفى وقد مال رأسها على عنقها فيما يشبه الدجاجة و«زاغ بصرها وزغلل» ولم تعد صالحة للعمل فى السكة الحديدية وخاصة فى اخطر قطاعاتها ، قطاع الحركة .

وبالمدخرات التى بقيت لها من زوجها الذى لم يكن ينفق راتبه على أى غرض اشترت الخالة جرانيا فى بلدة السكة الحديدية منزلا صغيرا به ملحق فى الفناء . كان المنزل يقع مباشرة خلف الخط المسدود الذى كانت الخالة جرانيا تعمل بقربه فيما مضى ، وقد وضعت عليه عينها منذ زمن بعيد ، على أمل ان تشتريه من صاحبه تجار المحطة الذى



كان يحلم بالرحيل الى مناجم الذهب فى مجدان البعيدة .

وسرعان ما ظهرت الكائنات الحية فى بيت الخالة جرانيا : الكلبة «فاركا» التى بترت ساقها على خط السكة الحديدية ، والحدأة «مارفا» المكسورة الجناح ، والديك «أوندر» الأعور ، والقطة «أولكا» البتراء . وعشية الحرب حملت الخالة جرانيا من قريتها فى محافظة فياتكا فى عربة القطار بقرة شابة بكراً ، وطلبت من ابن اخت صديقتها الذى كان ينظم أشعاراً سوقية فاحشة ومن اصدقائه ان يبتكروا اسما لهذه الدابة اللطيفة . بيد ان عصابة بلدة السكة الحديدية لم تتوصل الى اى شىء لائق ، اذ لم ترد على ذهنهم سوى الاسماء المبتذلة ، فبقيت البكر باسم القرية مسقط رأسها : فاركوشكا ، وحملته ايضا عندما اصبحت بقرة ، وعاشت به عمرها المجيد كله .

فى سنوات الحرب عاشت الخالة جرانيا على البقرة . وكانت تنقل من الصباح الى المساء نشارة الخشب الصفراء من ورشة النجارة فى قطعة قماش معقدة مربوطة لتفرشها تحت البقرة ، وتحصد العشب البرى على جانبى الطرق وعلى شواطئ نهر فيّكا . لم تكن لديها قطعة أرض مخصصة لحصد العشب ومع ذلك كانت تجمع من الدريس ما يكفى لفصل الشتاء كله . وكانت بقرتها «فاركوشكا» تدر اللبن دائما بكمية ممتازة ، وكانت بقرة لطيفة ، تفهم كل شىء ، ويمكن القول بأنها كانت بقرة ذات حس وطنى . وكانت الخالة جرانيا تحمل القسط الأكبر من اللبن الحليب للجرحى فى المستشفى العسكرى القريب ، وتسقى به الاطفال الذين صاروا يتحشدون لا فى الكشك السابق بل فى بيتها الصغير . كذلك

كانت الخالة جرانيا تبيع اللبن للجيران من العاملين فى السكة الحديدية وأيضا للمهجرين . وبالنقود التى تحصل عليها من بيع اللبن تشترى الخبز ببطاقات التموين والردة او النسافة فى المزرعة الجماعية المجاورة لتعلف البقرة . وكانت الخالة جرانيا تسحب العجول ، ما أن تكبر الى الحد الذى يمكن فيه فصلها عن أمها ، وتسلمها للمستشفى العسكرى . وبعد انتهاء الحرب واغلاق المستشفى العسكرى ظلت تحمل اللبن لفترة الى مستشفى العاملين فى السكة الحديدية ، والى هناك ساقت فيما بعد البقرة ، فقد أخذت ساقا الخالة جرانيا تخوران وانتفخت مفاصل ذراعيها وفارقتها قواها ، حتى حان الحين فحملوها الى مستشفى السكة الحديدية . وما أن رقدت هناك قليلا حتى بدأت تنظف دورات المياه والممرات ، وترتق وتكوى ملابس المستشفى ، فبقيت عاملة نظافة فى قسم الاطفال بالمستشفى . ولم يعرف ليونيد متى ولمن باعت بيتها بجوار الخط المسدود أم انه ازيل توسيعا لرقعة المناورة فى المحطة ، فقد كان فى تلك الآونة يعمل فى خابلوفسك وقد انشغل بالخدمة والرياضة وبالمرأة ونسى الخالة جرانيا .

## الفصل الثانى

ذات مرة ، وكان ذلك بعد العودة من خابلوفسك ، ناوب سوشنين مع دورية شرطة وراء جسر السكة الحديدية حيث احتشد الأهالى للنزهة احتفالاً بعيد العاملين بالسكك الحديدية . وفى ايام تلك النزهة ، والتى كانوا يسمونها هنا



«البكنيك»* ، كانوا يلوثون المروج المحصودة العشب خارج المدينة وخمائل الصفصاف المصفرة وبطمات الشمال المحمرة والاعشاب المحيطة بالمجرى القديم لنهر فيكا طوقاً جميلاً زغبياً ، ويحرقون الخمائل والاشجار القريبة . واحياناً تتأجج اذهانهم فيحرقون أكوام الدريس فرحين بالنيران الكبيرة ، ويبعثرون العلب الفارغة والخرق ويحطمون الزجاجات وينثرون أوراق اللف والاغلفة القصديرية والاكياس البلاستيك . تلك الصور المألوفة للعربدة الترفيهية الجماهيرية «فى حضن الطبيعة» .

لم تكن المناوبة مزعجة كثيراً . فخلافاً عن بقية فصائل اللاهين ، كعمال التعدين مثلاً أو عمال المناجم ، كان عمال السكك الحديدية ، الذين يقدرون أنفسهم عالى التقدير منذ القدم ، يتنزهون بوقار ، فى صحبة أسرهم ، واذا ما أفلت عيار احدهم سارعوا الى تهدئته واخفائه عن الشرطة حتى لا تحمله الى مركز افاقة السكارى .

نقل سوشنين بصره هنا وهناك ، واذ به يرى امرأة قادمة من وراء الخمائل عند البحيرة القريبة ، فى فستان ممزق من الشيت ، تسحب منديل رأسها على العشب من طرفه ، وشعرها ملبد مبعثر الخصلات ، وقد سقط جورباها الى كاحليها ، وحذاؤها التيلى ملوث بالطين ، اما المرأة نفسها فمغطاة بخيوط الاعشاب الخضراء القذرة وتبدو له معروفة جداً .

— الخالة جرانيا ! — اندفع ليونيد سوشنين نحو المرأة — الخالة جرانيا ؟ ماذا بك ؟

* البكنيك — كلمة وافدة الى اللغة الروسية من الفرنسية وتعنى : النزهة الخلوية . المعرب .

خرّت الخالة جرانيا على الأرض وطوقت بيديها جزمة سوشنين وولولت :

— يا للفضيحة ! يا للفضيحة ! يا لها من فضيحة ! . . .

— ماذا حدث ؟ ماذا جرى ؟ — سألها سوشنين وقد بدأ يحدس ما حدث ، ولكنه لم يشأ ان يصدق فراح يهز الخالة جرانيا .

جلست الخالة جرانيا على العشب ، وتلفتت حولها ، وشدت فستانها على صدرها ورفعت الجورب الى ركبتها ، وحولت بصرها جانبا وقالت بصوت خال من البكاء وبه تسليم قديم بالمعاناة :

— هذا ما حدث . . . اغتصبوني لا أدرى لماذا . . .

— مَنْ ؟ أين . . . — قال سوشنين على عجل همسا فقد تهدج صوته واختفى . وعاد يسألها : — من ؟ أين ؟ — وترنح وهو يئن ، واندفع راكضاً الى الخمائل وهو يفك قراب مسدسه اثناء الركض صارخا — سأقتلهم — م — م ! . . .

وأدركه زميله فى المناوبة ، وبصعوبة انتزع منه المسدس الذى كان ليونيد يحاول عبثاً قصع زناده بأصابعه المرتجفة .

— ماذا دهاك ؟ ماذا دهاك ؟

كان أربعة رجال يستلقون متصالبين فى العشب المبعثر الموحل حول المجرى ، وسط خمائل الزبيب الرومى المكسرة المدعوكة التى كانت تلوح فيها الثمار السوداء الناضجة التى تشبه كثيرا عينى الخالة جرانيا . وكان منديل يد الخالة جرانيا ملقى فى الوحل ويلوح فيه شريط التطريز الأزرق ، اذ كانت هى والخالة لينا منذ صباهما فى القرية تطرزان مناديلهما دائما فى حواشيها بخط أزرق واحد .



لم يستطع الرجال الاربعة فيما بعد ان يتذكروا أين كانوا ومع من شربوا وماذا فعلوا . واثناء التحقيق بكوا اربعتهم فى وقت واحد راجين العفو عنهم ، وانتحبوا جميعا عندما أصدرت قاضية محكمة حى السكة الحديدية بيكيتوفا — وهى امرأة عادلة ، تقسو بصفة خاصة على مرتكبى الاغتصاب والنهب ، لأنها وهى بعد طفلة شبعت من رؤية ومعاناة عربدة المغتصبين والنهابين الغزاة فى بيلوروسيا اثناء الاحتلال — اصدرت على ثلاثة من الشهوانيين حكما بالسجن الصارم ثمانى سنوات لكل منهم ، اما الرابع فقد القى بالتبعة كلها على ندماء شرابه وتمكن من الافلات من القصاص .

بعد المحاكمة اختفت الخالة جرانيا فى مكان ما ، اذ يبدو انها كانت تخجل من الظهور فى الشارع .

وبحث عنها ليونيد حتى عثر عليها فى المستشفى .

انها تعيش فى كشك الحراسة . المكان هنا ابيض ، مريح ، كما فى كشك التحويل ذاك المشهود . هنا آنية ، وغلاية شاى ، وستائر ، وزهرة «فانكا المبلول» تزهر حمراء على رف النافذة وزهور الجيرانيوم تعيش آخر أيامها . لم تدع الخالة جرانيا ليونيد للجلوس الى المائدة ، او بالأحرى الى الخزانة الكبيرة ، وجلست كازة على شفتيها وهى تحدق فى الأرض ، شاحبة ، هزيلة ، حاشرة راحتيها بين ركبتيها .

وأخيراً رفعت اليه عينيها المشرقتين بلا مناسبة ولا معنى وقالت :

— ليس ما فعلناه حسنا يا ليونيد — وانكمش ليونيد

داخليا وتجمد ، فلم تكن تناديه باسمه الكامل الا فى لحظات الاغتراب الصارم اللامسامح ، وفيما عدا ذلك فقد كان طوال العمر بالنسبة لها «ليونيا» .

— ما هو غير الحسن ؟

— ضيّعنا حياة الشبان . . . لن يستطيعوا تحمل هذه العقوبة الطويلة . . واذا تحملوا فسيخرجون رجالاً شيابا . . ولدى اثنين منهم ، لدى جينكا وفاسكا ، أولاد . . ولد احدهم : لدى جينكا ، بعد المحاكمة . . .

— يا خالتى جرانيا ! يا خالتى العزيزة ، اتسمعين ؟ لقد هتكوا عرضك ! . . . دنسوا شيبتك . . .

— وماذا بعد ؟ هل نقص شىء منى ؟ طيب ، كنت سأبكى قليلا . . طبعا ، أمر مهين . ولكن هل هو جديد عليّ ؟ كان تشيتشا يطرحنى على ارض قبو المرجل . . . اعذرنى اذ اتكلم عن هذا . أنت الآن اصبحت كبيرا ، تعمل شرطيا ، ولا بد انك شبعت من رؤية الفضائح . وكنت اذا لم استسلم لتشيتشا يلعّبنى رياضة . يلتقط المجرفة ويطاردنى حول المرجل . . . هؤلاء الأنجاس . . . يبهدلونى ، مرغونى فى الوحل . . . لا بأس ، كان يمكن ان اغتسل . . .

واصبحا من يومها يتجنبان احدهما الآخر ويخافان بعضهما البعض . ولكن كيف تتجنب احداً فى مدينة مثل فيسك ؟ الحياة هنا تدور فى دائرة ، دائرة ضيقة . كانا يدركان حتمية اللقاء قبل ان يرى احدهما الآخر بمسافة طويلة . وفى داخل ليونيد لم تكن احشاؤه تتقطع ، ولكن كل ما فيه يتجمع كتلة واحدة ، فى مكان واحد ، ويتوقف تحت الصدر فى الفجوة الضيقة . وقبل ان يلقاها بمسافة تغمر وجهه



ابتسامة يدرك عدم مناسبتها وخراقتها ولكنه لا يقوى على التحكم فى فمه وعلى نزع هذه البسمة من وجهه واطباق شفتيه — فقد كانت قناعاً دفاعياً ، ووثيقة براءة ملصقة على وجهه مثل ختم العهدة الحكومية المطبوع على السراويل الميرى . واذ تلتقط الخالة جرانيا نظرته تخفض بصرها وتنزلق بجنبها مارة به فى «بيريه» السكة الحديدية الرمادى القديم الذى يحمل آثار شارة المفتاح والمطرقة التى لم تبهت ، وفى معطف ميرى قديم وشبشب مجعد . وكان ليونيد يحدس ان هذه الملابس قد اعطتها صديقات الخالة جرانيا لها لتكمل لبسها وهن يغادرن المستشفى الى حيث لا يتطلب الزى الرسمى ، اذ لم تمد الى هناك القضبان .

وتدمدم الخالة جرانيا مارة به سواء كان صبحا أم نهارا أم مساء :

— صباح الخير !

وكان سوشنين يحس ان الخالة جرانيا ما كانت لتحييه على الاطلاق لولا ما فطرت عليه من لباقة . وفى كل مرة كان يبقى مسحوقا فى مكانه كالمسمار المدقوق فى الرصيف الى رأسه ، والابتسامة المطاطية مرتسمة على وجهه ، وهو يريد ، ولا يستطيع ، ان يركض فى اثر الخالة جرانيا ويصرخ ، يصرخ ليسمع الناس جميعا : «يا خالة جرانيا ، سامحينى ! سامحينا ! . . .» .

وبدلا من ذلك يقول مازحا بلهجة اوكرانية : «صباح الخير ، نعمت بالصحة» مقلداً الممثلين المشهورين ، وهو يمقت نفسه فى تلك اللحظة ويمقت الثنائى الفكاهى الاوكرانى وجميع ثرثارى مسرح المنوعات وكل عالم الفكاهة ، والهجاء ،

والأدب ، والوظيفة ، والدنيا كلها بما عليها ومـــن عليها . . .

كان يفهم انه بين الاشياء والظواهر الاخرى المستعصية على الادراك سيكون عليه ان يخبر ذلك الشيء الصعب المنال والذى لم يفهمه احد بعد حتى النهاية ولم يعرف كنهه ، والمسمى بالطبع الروسى ، أو اذ شئنا الاقتراب من الأدب والتحدث بلغة سامية : الروح الروسية . . . وسيكون عليه ان يبدأ بأقرب الناس اليه ، الذين ابتعد عنهم لسبب ما دون ان يلحظ ، وفقدهم جميعا : الخالة لينا ، والخالة جرانيا ، وزوجته وابنته واصدقاء الدراسة فى مدرسة الشرطة ، وزملاء المدرسة الثانوية . . . وسيكون عليه قبل كل شيء ان يثبت لنفسه ويسطر على الورق الأبيض ، الذى تظهر عليه كل الاشياء واضحة كما فى ماء النبع الرقراقة ، ويتجرد حتى العرى ، حتى العظام القميئة ، حتى الاماكن الخفية المعيبة ، ويجاهد بعقله المحدود ليصل الى اللاوعى ، هذا اللاوعى الذى بدأ سوشنين يحدس انه محرك الابداع ، وهو سره الرئيسى . الى اى مدى تبلغ صعوبة ذلك ؟ وكم من الشجاعة والجهد يتطلبهما «التفكير والمعاناة» طوال الوقت ، طوال العمر ، بلا راحة أو اجازة ، حتى آخر رمق . اذن فربما يستطيع فى نهاية الأمر ان يستوضح ولو لنفسه : لماذا يشفق الروس منذ القدم على المقبوض عليهم بينما كثيرا ما لا يبالون بأنفسهم او بجارهم مشوّه الحرب أو قعيد اصابة العمل ؟ وهم مستعدون لاعطاء آخر ما يملكون للمحكوم عليه ، للقاتل ، المجرم العتيد ، ولينتزعوا من أيدى الشرطة شقيا عنيفا كان يعربد لتوه واعتقل ،



وفى الوقت نفسه يمقتون الساكن الجار فى الشقة لانه ينسى اطفاء النور فى الحمام ، ويصلون فى معركة النور هذه الى درجة من النفور والكراهية تبلغ حد عدم سقى الجار المريض ، وعدم الاقتراب من غرفته . . .

ووسط هؤلاء الناس الطيبى القلوب يرتع المجرم فى بحبوحة ووقاحة ودعة ، وهو يعيش على هذا المنوال فى روسيا منذ القدم .

هذا شاب صنديد ، فى حوالى الثانية والعشرين من عمره ، قد شرب فى مقهى الشباب شراباً مسكرا ومضى يتجول فى الشوارع فقتل عرضا ثلاثة من المارة بالسكين اثناء سيره . وكان سوشنين فى ذلك اليوم مناوباً فى الحى المركزى ، واستطاع أن يمسك بآثار القاتل الساخنة فاندفع فى اثره بسيارة الدورية وهو يستعجل السائق . بيد أن الصنديد-الجزار لم يكن ينوى ان يهرب أو يختبىء ، بل وقف لامباليا قرب سينما «اكتيابر» وهو يلعق الآيس كريم ، ليبرّد جوفه بعد عمله الشاق . كان فى سترة رياضية بلون الكنارى ، او بالاحرى بلون الببغاء ، وعلى صدره خطوط حمراء . وادرك سوشنين كنه هذه الخطوط : «انه دم ! مسح يديه فى السترة وخبأ السكين فى صدره تحت قفل السترة» . كان المارة يجفلون مبتعدين عن هذا الذى لوث صدره بالدم البشرى . اما هو فيلعق الآيس كريم حتى النهاية وابتسامة الاحتقار على شفتيه ، وقريبا يفرغ من عمله الترفيهى — فها هو الكوب الورقى يميل ، وها هو يغرف من قعره بالملعقة الخشبية بتلذذ بقايا الآيس كريم — وبعد ذلك سيذبح شخصا ما يختاره أو لا يختاره . . حسبما تأمره نفسه .

على الحاجز الحديدي الملون جلس صديقاه ، موليين ظهريهما للشارع وهما ايضا يلتهمان الآيس كريم . كانا يتبادلان حديثا منفعلاً ، ويقهقهان ، ويتحرشان بالمارة ، ويشاكسان الفتيات ، وبدا من اهتزاز السترات على ظهريهما وتراقص الكرتين الصوفيتين في طاقيتيهما الرياضيتين انهما خاليا البال . لقد اصبح الجزار الآن غير مبال بشيء ، فلا بد من الامساك به بقبضة حديدية ، لا بد من الانقضاض عليه بضربة تجعله ، وهو يسقط ، يصطدم بالجدار بقفاه ، لأنك لو بدأت تصارعه وسط الحشد فسوف يتمكن هو أو أحد صديقيه من اغماد سكين في ظهرك . قفز سوشنين من العربة قبل ان تتوقف ، ووثب فوق الحاجز وضرب «الكناري» بالجدار فاصمّه ، بينما شد السائق اولئك المرحين من ياقتيهما فاسقطهما من على الحاجز ، وحشرهما في قناة الطريق . وهنا خف اليهما المدد وقادت الشرطة الاشقياء الى حيث ينبغي ان يقتادوهم . وارتفع لغط الناس ، فتجمهروا وازدحموا وأحدقوا بالشرطة وراحوا يوسعونهم سباً ويحولون بينهم وبين «التعدي على الصبيان المساكين» وصار رجل هزيل تماما ، يرتدي سترة فضفاضة ، يصيح وهو يدب الارض بعصاه عاجزا : «يا لهم من كلاب صيد ! انظر الى هذه الشرطة ! انظر كيف تحمينا ! . . » و«يفعلون ذلك في وضح النهار ، امام انظار الناس ! فماذا لو انك وقعت في قبضتهم هناك عندهم . . . » ، «يا له من صبي صغير ! مجعد الخصلات ! وهذا الوحش الكاسر يخبط له رأسه في الحائط ! . . . »

لم يبال سوشنين بذلك ، ولكن السائق الذى التحق بالعمل في الشرطة حديثا كان مصعوقا فلم يتمالك نفسه



وقال : «لو انكم وقعتم في قبضة هذا الصبي المجعد الخصلات ! اذن لقصّر لكم السنتكم وأعماركم فورا . . .»

في قسم الشرطة كان يطلي الجدران في تلك اللحظة قائد سابق لمفرزة مشاة بحرية احيل الى التقاعد ، ولكنه يتكسب بالعمل بسبب الحاجة ، وكان قد ذبح في زمانه بالخنجر عدداً من الفاشست اكثر مما طعن ابوه ، الصياد البحري ، من سمك بالمذراة .

فسأل «الكناري» بصوت متعب : «لماذا قتلت الناس أيها الافعى ؟»

فابتسم ذاك بعدم مبالاة واجاب : «لم تعجبني سحنهم !»

ولم يتمالك المحارب القديم نفسه فأطبق بيديه على رقبة القاتل وطرحه أرضاً . وبالكاد خلصوا منه الشاب الصنديد الذى كان يعول بأعلى صوته : «دعني هذا مؤلم ! ليس لك الحق ! دعني !» وفيما بعد حملق ببراءة في المحقق وراح يتساءل : «أحقا سيعدمونني ؟ يرمونني بالرصاص ؟ ! ولكني لم اقصد . . .»

## الفصل الثالث

«طيب ، كفى ، كفى ، اليوم يكفي !» قال سوشنين لنفسه وهو يطرد عنه الذكريات الكئيبة الطويلة التي كانت تلح عليه دائما في الطقس السيئ . وتململ ونفض كتفيه وهو يتمثل الدفء المنزلي القريب وكأنه ينفض البلل والتراب عن افكاره ، ومسح بيديه على وجهه وحث الخطى . ورغم

ان شقته كانت مزودة بالتدفئة البخارية ، بقى فيها موقد يعود الى عصور ما قبل التاريخ . يا لها من منشأة طيبة ، جيدة . كان يشعله بالحطب الذى يلقيه لافريا القوزاقى من العربة كل خريف عند مخزن الحطب وفاء لصداقة قديمة . «الآن سنشعل الموقد ، ونطبخ حساء ، ونعد شايا ثقيلا ، ودعنا من هذه الأمور المعيشية المزعجة ، ومن هذا الطقس الكريه ، وهذا الألم اللعين فى الكتف . فالحياة عموما ، ورغم كل شىء لا بأس بها . تارة تغمز وتارة لا تغمز . . .» وابتسم سوشنين وقد رأى من جديد العم باشا بمكنسته فى الفناء وفرس لافريا القوزاقى العائدة الى البيت فى خطوة أبية ، حتى أنه دندن بلحن من فيلم «التحقيق يتولاه الخبراء» وتمتم بكلمات جد معبرة لاغنية كانت شائعة لا فى اوساط الشرطة فحسب بل وبين السكان المدنيين : «لو أن شيئا ما ، فى مكان ما ، لسبب ما ، عند أحد ما . . .» ، الأمر الذى ازعج فيما يبدو جماعة من ثلاثة اشخاص استقرت فى بيته تحت الدرج وهم يشربون الخمر وقد وضعوا الزجاجة على بطارية التدفئة . قال سوشنين فى نفسه : «ما بالهم يتجمعون ثلاثات ؟ كيف نفسر فعالية هذا الرقم ؟»

لقد اكثر هواة المحادثة القادمون من البيوت الجديدة ومن المحطة ، من المجىء الى هذا الكنّ تحت السلم المتعفن فى البيت القديم رقم سبعة . وكانوا يلوثون المكان تحت السلم ويتأبقون ويتعاركون ، وبعضهم كان ينام هنا ملتصقا بالبطارية الصدئة التى يتسرب منها بخار خفيف أدى الى تعطن رف النافذة والأرضية تحت البطارية . تذكر سوشنين واحداً من الثلاثة . . كان لاعب كرة قدم سابقاً فى فريق



«لوكوموتيف» المحلى فى البداية ثم فى فريق العاصمة . وعندما منى «لوكوموتيف» العاصمة بكارثة وهوى الى دورى الدرجة الأولى ، عاد صاحبنا الى هنا ليلعب بقية حياته الرياضية فى مدينته الأصلية . وكان جيران سوشنين ، وبالدرجة الأولى الجدة طوطيشيخا ، يتشكون : «يا ليوشا* ، أعد النظام الى ما تحت السلم ، اطرد هؤلاء السكارى . لا راحة لنا منهم !» .

ولكنه كان قد سئم فى عمله التعامل مع شتى صنوف الحثالة وتعب منهم ، كما انه كان زاهدا فى الاشتباك بهم أو تلقى طعنة خنجر فقد نال ما يكفى . ومع ذلك فسيتحتم عليه ان يطرد السكارى فالأهالى يطالبون بذلك . ولكن سوشنين قرر فى نفسه : «أما اليوم فحسبى ما عندى من انطباعات» ، كما انه تذكر بهذه المناسبة كلمات حلاق السجن معرفته : «لن تقدر على حلاقة جميع الاشقياء» . وعندما رفع ساقه المشوهة معتمدا على الدرابزين بيده الخالية ، وطار متخطيا نصف الدرج فى قفزة مدرب عليها منذ الطفولة وسمع من تحت السلم : «ايه ، انت ايها البلبل ! يا ادوارد خيل !** لم لا تلقى التحية ؟» ، ردد سوشنين فى نفسه «لا أرى شيئا ، لا اسمع شيئا» وتقدم الى اعلى ساحبا ساقه ، ماضيا الى مسكنه ، الى ركنه المنقذ . وما أن خطا خطوة او خطوتين حتى سمع خلفه اصوات مطاردة ، فقد كان يميز اصوات الدرجات القديمة فى منزله الحبيب مثلما يميز عازف البيانو الحاذق اصوات معزفه النادر .

* تلطيف للاسم الكامل : ليونيد . **المعرب** .

** ادوارد خيل — مطرب منوعات سوفييتى معروف . **المعرب** .

كانت الاصوات الصادرة عن الدرجات ملحاحة ونشازاً ، وقد سمعها بأذنيه وأحسها بظهره ، فالظهر لدى رجل الشرطة الحقيقي ينبغي ان يكون مثلما لدى خريج ملجأ الأيتام : حساساً للغاية و«بعيون».

لحق به وتجاوزه قاطعاً عليه الطريق شاب ذو شعر فاحم منتفش رائع ، في معطف جلد غنم قصير مفتوح ، بتطريز أوكراني عند الذيل والياقة وحواشي الاكمام .

— انني اسألك ، ايها الرياضي ، لماذا لا تلقى التحية ؟

كان الفارس ذو المعطف الجلدي والعروق الحمراء في عينيه الذابلتين — كثمرة خريف تتعفن من قلة الشمس قبل ان تنضج — يمضغ لبانة وقد ارتكز بمرفقه على الدرابزين . ان السلم في المنزل رقم سبعة معد لا لموكب ديني بل لأناس قليلي الجسم شحيحي الدهن . وعندما حملوا تابوت الخالة لينا يوم الدفن ، رفعوه عاليا فوق الدرابزين المخرمشة بالمطاوى حتى كاد انف المرحومة الحاد يحتك بخشبة مقوسة في السقف . قطب ليونيد وجهه من الألم في ساقه ، ومن ذلك المنظر الذى دهمه بلا مناسبة ومزق نياط قلبه .

وقال سوشنين بلهجة استسلامية بل وحتى بنوع من التملق :

— مرحباً ، مرحباً ايها الصقور الأبية . . .

وكان يدرك من واقع الخبرة انه لا ينبغي ان يتحدث بهذه النبرة بالذات مع هؤلاء الضيوف ذوى الميول العدوانية . ولكن ساقه المتعبة كانت تؤلمه ، واستبدت به رغبة شديدة في الوصول الى بيته ، وفي البقاء بمفرده ، في ان يأكل



ويتمدد ، ويفكر ، فربما زال الألم كتفه ، وربما كفت روحه عن العويل . .

— عن اى صقور تتحدث ؟ — حدق فيه الشاب بنظرة صارمة وبصق اللبانة تحت السلم . — لماذا لا تتأدب فى كلامك ؟ — وفتح معطفه الموضة ، فاصبح أعرض وأضخم . «حسنا من أين جاء بهذه الفروة ؟ أليست نسائية ؟ لا بد انها غالية ؟» — كان سوشنين يطرح هذه الاسئلة فى سره ليجنب نفسه الغضب .

وتدخل لاعب الكرة من تحت السلم :

— هيا اعتذر ايها الحيوان ! انظر كيف يتمادى ، لم يعد يقيم اعتباراً لأحد !

وراء لاعب الكرة وقف شخص ذو بسمة زائغة لا هو برجل بالغ ولا هو بمراهق ، فمن وجهه يبدو عجوزا ومن جسمه مراهقاً . لم تحمله امه فى بطنها المدة اللازمة ، ولم تمنحه الحياة والروضة والمدرسة النمو الكافى ، بيد أنه أصبح فاسداً ، فى لفاع أزرق ، وهو نفسه بدا كله أزرق ، خاليا من الدماء ، ولا يشبه من حيث المنظر فى شىء ذلك «الكنارى» الذى خطر لسوشنين منذ فترة قريبة ، ومع ذلك ففيه شىء غير محسوس يذكره بذلك القاتل . . ربما ضمة الفم السمكية ، او الاحساس بالسطوة الطائشة التى تصبح لهذا السبب مرعبة وانتقامية بصفة خاصة . قرر سوشنين ، بالنظر الى زرقة وجهه وزرقة رأسه الحليق ، انه خرج لتوه من الاعتقال . من زمان لم يمرح بطلاقة ومن زمان لم يشرب هذا المسخ اللامكتمل ، لذا سكر قبل زميليه واكثر منهما . هذا الضئيل الجسم ، ابن حياة العنابر ، والذى لم يشبع

في صغره طعاماً ، هذا الضعيف البدن والحول ، يبدو بضمة فمه الاشبه بفم سمك الزاندر ، فمه الواسع المغضّن ، انه شخص سيكوباتي الى ابعد الحدود . وهو يحمل في عبه خنجراً . ودون ان يكف عن الابتسام بفمه السمكي الشاحب دس يده بحركة لا ارادية في جيب السترة وراح يداعب اللفاع باليد الأخرى بحركة عصبية متوقعا سفك الدم . انه أخطر واحد في هؤلاء المعربدين الثلاثة .

«هدوءاً ! — قال سوشنين لنفسه — هدوءاً ، الأمور تنذر بالشر . . .» .

— طيب ، اعذروني يا شباب ، اذا كنت اسأت اليكم .

— ما معنى «طيب» هذه ؟

كان الفارس ذو السوالف والمعطف النسائي المطرز يذكر سوشنين بشعره الغزير ، وابتسامته المتسلطة الساحرة ، بمطرب في منوعات عصرية ، مطرب مدلل بالطعام الفاخر والجمهور والراقصات . وفي تلك «المنوعات» كانت الفتيات الفائقات النضج عقليا وجنسياً يرقصن في آخر مراحل الملبس — في الجوارب الطويلة — وحتى هذا كان يحد من امكانياتهن الابداعية ، ولولا ضوابطنا الاخلاقية الصارمة لتجردن من ذلك كله ولرفعن أعلى من ذي قبل سيقانهن الغزلانية الطويلة وهن يصورن رقصة وطنية بعنوان «هديتنا لبام» * . اما المطرب فكان يعول بصوت باص «باسل» مسترخ متوافق مع حركات اجسادهن «أنت يـا لحـ . . . ى . . .» .

* بام — مشروع ضخم لمد خط حديدي من بحيرة البايكال الى نهر آمور في سيبيريا . **المعرب** .



كان الفارس الواقف على السلم ، المتقمص من قمة رأسه الى أخمص قدميه شخصية المطرب المعبود في أوساط محدودي العقول ، يرغب في تذوق طعم الاحاسيس الحادة ، فقد كانت متع الحياة الأخرى متوفرة له . وفي تسريحة شعره الرائعة لاح سطو مهين على الفارس البطل الشاعر دافيدوف * ، وفي المعطف القصير ذي التطريز المتسخ ، وفي السراويـل القطيفة التي بدت وكأنها مجعدة عن عمد ، بالزر الرصاصي اللامع يتحد عند السرة تقريبا ، وفي اللفاع الموهير المدهن ، وفي الفانلة الحمراء المغبرة ذات الرقبة والتي أبرزت عنقه المغطى بما يشبه لحاء الشجر الباهت . في كل ذلك ، في هيئته كلها ، لم يكن ما اسماه الشاعر بالتعب المبكر ، بل كان الاتساخ والرثاثة . «هكذا يبدأ كل شيء من اهمال الوجه» — تذكر سوشنين عبارة رئيس قسم الشرطة في خايلوفسك أليكسي ديميدوفتش أخلوستين ، ذلك الرجل النادر الطيبة ، والذي لا يعلم أحد متى وكيف ولماذا التحق بالشرطة .

— اعتذر كما يجب : بوضوح ، ودقة ، وسرعة !

وفكر سوشنين : «ترى هل أفسد له هذه السحنة الفريدة ؟ لديّ في الكيس زجاجة لبن وعلبة فواكه محفوظة . . العين بالعين والسن بالسن والدناءة بالدناءة ، أليس كذلك ؟ نعم ! نعم ! ولكننا بذلك سنوغل كثيرا . . . كما انه من المؤسف اهدار اللبن على هذا الحقير . وآسف أيضاً على الدجاجة ، فهذه المسكينة لم تر الحرية ولم يكتمل جسدها الشاب في

* دينيس دافيدوف (١٧٨٧ — ١٨٣٩) — كان احد ابطال الحرب الوطنية ضد نابليون عام ١٨١٢ وقائداً للواء فرسان ، كما كان شاعراً . **المعرب** .

معمل التفريخ ليبلغ حياة النضج ، فكيف اضرب بهذا الطير البرىء تلك السحنة الداعرة ! . . .»

استطاع سوشنين أن يصرف نفسه عن الغضب ، وهدأ الرجفة المتصاعدة فيه ، ووقف فى نصف دورة لكى يرى الشاب اذا ما هم بالانقضاض عليه ، وليرى اللذين فى الاسفل ولا يفلتهما من مجال نظره . ولبث منتظراً تطور الأحداث . كان لاعب الكرة يشغل باله اكثر من الآخرين . فهو أولاً قد تجاوز الثلاثين ، وآن له ، كما يقال ، أن يصبح رجلاً ، وثانيا لا بد أن يعرف سوشنين . ولكن اللاعب ، الذى كان أصلاً ضعيف الذاكرة ، قد أغرق فى الشراب بمناسبة عودته الى فريقه الأصلى وما كان ليتعرف ربما حتى على أمه التى ولدته . قد يكون رأى سوشنين فى زى الشرطة ، فهذا الزى يغير الشخص تغييراً كبيراً وكذلك النظرة اليه .

لم يظهر سوى ارتباك قصير فى النظرة المليئة بالضغينة من اللاعب الذى لم يغفر للبشرية ابداً هبوط «لوكوموتيف» الى الدورى الأول ، الى الاطراف النائية لموسكو ، الى تشيركيزوفو ، حيث لا يأتى الى المباريات ، رغم جودة الاستاد ، سوى حوالى الف مشجع ، وفى بعض الأحيان لا أكثر من مائتين يختبئون مع الشراب فى المدرجات الواسعة ، ومن هنا تنهل مكافآتك وجوائزك ومجدك وشهرتك . اضف الى ذلك تلك الحرفة غير المشكورة فى كرة القدم ، حرفة «المدافع» ! ذلك «الدفّاع» الذى يمنع الفتيان الشرفاء الشجعان — المهاجمين — من الوصول الى المرمى ، فيضربهم بحذاء اللعب فى قصب سيقانهم ، ويشدهم من سراويلهم وفانلاتهم ، ويطرحهم أرضاً ، شاعرا بلذة مسعورة من صراخ «الخصم» المجندل .



— نعم ، نعم ! — قال لاعب الكرة الدفّاع وهو يستعجله ، ويسحق «الخصم» بنظرة شزرة ثقيلة . — لا تلجأ الى التسلل ! والا حصلت على هدف فى سحنتك !

— أفلا نشنقه بربطة عنقه العصرية هذه ؟ — قال الفارس مستشيرا زملاء الكأس ، والتقط ربطة عنق سوشنين باصبعه وألقى بها بتقزز خارج صدره ، بين باقتى معطفه الميرى البالى المتشابكتين . على خلفية السلم المتهالك ، وبين جدران المنزل المطلية بالجير المائل الى الرمادية والمخدوشة والتى تبرز منها شظايا الخشب والمسامير ، بدا سوشنين بربطة عنقه شيئا غير معقول ، مثلما لو وضع هنا ، فى هذا المنزل الكادح ، شمعدان ذهبى من قصر بطرس الفخم .

قال سوشنين بصوت ما زال يسيطر عليه ، بل وفيه نبرة رجاء ، وهو يدس الربطة تحت المعطف ثانية بأصابع بدأت ترتجف :

— ربما لا داعى يا فتيان ؟

— لا داعى لماذا ؟

— للعبث .

ورأى سوشنين كيف انفتح الباب العلوى الأيمن على السلم وهو يجرف بمزق بطانته القاذورات والغبار واعقاب السجائر ، واطل منه انف الجدة طوطيشيخا المستدير ولمعت عينها المستديرة . فحملق فيها سوشنين بنظرة رادعة فأسرعت الجدة باغلاق الباب .

— ماذا قلت ؟ ماذا قلت ؟ — اندفع اللاعب الدفّاع الى اعلى الدرج مختنقا بسورة غضب مشروع . — أيها الخاطئ ! ايها المتسلل ! سوف أريك . . .

كان وجه السجين الخارج حديثا من السجن لا يزال طافحاً بابتسامته ، لكنه اصبح متحررا ، منفلتا من قيوده ، ومضى يهز رأسه بأسف كمن يقول : «انت الجانى على نفسك . ماذا كنت ستخسر لو انك طلبت العفو ؟» . واخذ يصعد السلم وراء اللاعب الذى كان يحجبه تقريبا وهو يبدل يده على الدرابزين وباليد الاخرى مضى يتحسس صدره بحثا عن طرف قفل السترة ليستخرج السكين .

«من أين هذا فيهم ؟ من أين ؟ اليسوا ثلاثتهم ، فيما يبدو ، من اهل بلدتنا ؟ من اسر عمالية . وقد تربى الثلاثة فى الروضة وغنوا : «النهر ينبع من الغدير الأزرق ، أما الصداقة فتبدأ من البسمة . . .» وفى المدرسة غنوا : «السعادة هى الطيران البهيج ، السعادة هى تحية الود . . السعادة . . .» ، وفى الجامعة او المدرسة المهنية غنوا : «الصديق مستعد دوما للتنازل عن مكانه فى القارب او طوق النجاة . . .» أيهجمون ثلاثة على واحد ، فى مدينة روسية قديمة ، طيبة بصورة عامة ، لم تعرف ابداً الحروب والغزوات . . .»

وقال سوشنين بلهجة آمرة :

— مهلاً يا فتيان ! — واطلت الجدة طوطيشيخا ثانية من فرجة الباب ، فحملق فيها من جديد ناهراً . وعلى الفور التفت اللص الشديد الاحساس بالخطر ، ولكنه لم يلحظ شيئا ذا بال فقد سارعت الجدة باغلاق الباب . وفى تلك الاثناء علّق ليونيد الكيس على بروز خشبى وأولاه ظهره بحيث يرى المهاجمين من أعلى ومن أسفل .

— يا لكم من شجعان ! ثلاثة ضد واحد ! واحد هو فوق ذلك اعرج ! يا أبطال الملاحم . . ما كان أحراكم



ان تبددوا قواكم على طريقة الأبطال .

— وكيف ذلك ؟

— فى العمل .

— اى عمل ؟

— تكنسون الشوارع مثلاً ، او تحفرون الأرض . . .

— تتهكم علينا يا وغد ! — صرخ الشاب العصرى وانقض من فوق على الضحية كوحش منفوش . وانحنى سوشنين قليلا فقلب الفتى من فوق ظهره بحيث يسقط على زميليه فيدحرجهما من على الدرج ، ولكنه لم يدحرج سوى اللص الضعيف البنية . أما اللاعب فصمد على قدميه وان كان قد صعق . ودون ان يترك لهم فرصة للافاقة من المفاجأة قفز سوشنين متخطيا اللاعب ، ووجّه لكمتين الى الشاب العصرى فطرحه على الأرض القذرة ، وطوح باللص الى بطارية التدفئة وقد أفلت منه زمام نفسه : لقد تحركت فيه وأفصحت عن نفسها ايام وليالى الادوية والحقن والمضادات الحيوية وغيرها من البلايا الدوائية ، والمناوبات المرهقة ، والمطاردات والمصادمات ، والابداع الأدبى الليلى ، كما أفصح عن نفسه الدم الغريب الذى نقل اليه ، ثم صيروكفاسوفا تلك . . .

وانهال لكماً على اللاعب وهو يفح فحيحاً مكتوما وحشره تحت الدرج ، وصاح :

— انجدوا صاحبكم يا أوغاد ! انجدوا صاحبكم !

فردد الفارس وهو يختبئ وراء ظهر اللص :

— اىّ صاحب لنا ! اى صاحب هو !

وفجأة تذكر شيئا ما فدفع اللص فى ظهره ، وثغا كخروف :

— يا جيخا ، اذبحه ! اذبحه حتى الموت !

ودس جيخا يده فى عبه منصاعاً ، ولكن سوشنين لم يمهله حتى يستخرج السكين ، اذ سدد اليه لكمة قصيرة فى فم المعدة فانكتمت انفاسه ، وعندما تأوه اللص منطويا ، ناوله ضربة مقابلة طوحت به الى الشباك المعتم الملوث بالبصاق . وارتطم اللص بالبطارية برأسه وصدر عنه ما يشبه الصفير ، مثل بالونة العيد الملونة التى يتسرب منها الهواء ، وكالبالونة انكمش وجف وانطوى كومة زرقاء على الأرض ..

لم يبد اللاعب أدنى مقاومة ، فلم يعد ضربه بالأمر الطريف ولكن سوشنين كان قد تملكه السعار حتى انه لم يعد قادراً على التوقف ، فالقى باللاعب الذى كان اما يتظاهر أو انه حقاً فقد القدرة على المقاومة ، فوق اللص عند البطارية ، وراح يبحث بعينيه عن شىء ما وهو يزأر بكلمات ما . كان الشاب العصرى جالساً على الأرض ، منهوك القوى ، مطوح الذراعين ، مفزوع العينين ، وهو يحشر نفسه حشراً فى الركن ، فى الخشب ، فى الشقوق المسدودة بخيوط القنب القذرة الحادة .

— حرّمت يا عم .. حرّمت يا عم .. يا عم ...—

أعول الفارس وهو يغطى وجهه بكم المعطف الذى انفتق تحت الابط . وظهر من الفتق صوف غنم بنفسجى اللون ليس معروفا هل صبغ هكذا للموضة ام ذلك بفعل الاستعمال . وفجأة اعاد هذا الصوف الذى بدا وكأنه منزوع عن دب دمية سوشنين الى وعيه . فتنفس بعمق مرة ، ثم اخرى ، ونظر بدهشة الى اللعاب الدموى المتساقط من فم الشاب ، فأخرجه من الركن كما تخرج فأرا صغيرا من المصيدة ، ساحبا اياه



من ياقة المعطف نحو الباب الخارجى ، وركله ركلة اطارت به الى الخارج من فسحة السلم الخشبية المخددة بآثار الاقدام .

— اياك ان أراك هنا ثانية يا حقير !

وبعد ذلك ظل ليونيد واقفا فترة طويلة بجوار السلم وهو لا يدرى ماذا يفعل بنفسه والى اين يذهب ؟ وعادت الجدة طوطيشيخا تفتح الباب ، وقالت :

— من زمان كان لازم هكذا ! لا يكفون عن المجىء ...

— لم يكن ينقصنا الا أنت !

انقطاع فى الوعى ، غيبوبة ... فهو لا يزال مريضا وضعيفا . هى الاعصاب . والاضطراب الروحى ، وعدم استقرار المعيشة ، ثم هؤلاء الاشقياء الباحثون عن المتاعب ...

تذكر ليونيد الكيس فخرج الى السلم . كان الكيس معلقا فى مكانه . وانحنى فوق الدرابزين ونظر الى اسفل . لاحت تحت البطارية بركة مياه داكنة ، او ربما دماء ، ولمع شىء ما فخمن انها سكين . نزل والتقطها . ساطور ثلم على شكل خنجر ، كانت جدة اللص ، أو أحد آخر من اسلافه ، تحز به شظايا الخشب وتقص السلك ، اذ يبدو ان اللص لم يتمكن من صنع خنجر حقيقى أو من شرائه سراً .

وعندما عاد الى شقته وجد لنفسه عملاً : اتصل بقسم شرطة السكة الحديدية . كان المناوب فيديا ليبيدا ، زميله فى الدراسة بمدرسة الشرطة وفى العمل ، العمل السابق .

— اسمع يا فيديا ، لقد تعاركت هنا . وكسرت لأحد الابطال رأسه على البطارية ... اذا حدث شىء فلا تبحثوا . انا المجرم .

— ماذا ، هل جننت ؟ !
— كان من الضرورى ضربهم يا فيديا
— ضرورى . . ضرورى . طبعا ضرورى ! ولكن بسبب هؤلاء الحقراء سيبهدلونك

وضع سوشنين السماعة ، ونظر الى يديه . كانت يداه لا تزالان ترتعشان ، وكانت فقرات الاصابع متسلخة . مضى يغسل يديه بماء الصنبور ، وكأنما نعس وهو واقف امام الحوض . غشيه احساس بالوحشة المضنية المطبقة . هكذا كان يحدث له دائما منذ الطفولة : عندما يهان أو يواجه ظلماً ، وبعد انفجار الغضب ، بعد الهزة الروحية ، لا يشعر بالألم أو السخط ، بل تتولاه وحشة حادة تطغى على كل شىء . يبدو مع ذلك انه رخو بطبيعته ، وفوق ذلك ربته النساء . كان الاحرى به الا يعمل فى الشرطة بل ، كأمه وخالته ، يجلس فى المكتب ، يدبّس الفواتير ويملأ الاستمارات ، فاذا كان لا بد من الشرطة فالأجدر به مكان العم باشا — كنس الفناء .

فمن ذا الذى ولد للعمل فى الشرطة ، وللعمل العسكرى ؟ لو لا الشر فى عالم البشر ، الذين يصنعون هذا الشر ، ما كان ثمة حاجة لهؤلاء واولئك . منذ سالف الازمان والشرطة ، والميليشيا ، والجمارك وغيرها وغيرها انما توجد بسبب عدم رجاحة العقل البشرى . فحسب المنطق السليم كان ينبغى الا يكون فى العالم منذ أمد بعيد اسلحة أو عسكريون او عنف . اما وجودها فيعنى غياب المنطق السليم . ومع ذلك فالاسلحة المرعبة بلغت كمية رهيبة ، والعسكريون فى العالم



لا ينقصون بل يتزايدون ، بينما رسالة اولئك الذين ارتدوا الزى العسكرى هى أصلاً مثل رسالة كافة البشر : الحرث والزرع والحصد والخلق . بيد أن الحثالة يسرقون ويقتلون ويغشون ، فتقف القوة فى وجه الشر ، القوة التى لا تستطيع ايضا ان تصفها بالخير ، ذلك ان القوة الخيّرة هى فقط القوة الخلاقة . اما تلك القوة التى لا تزرع ولا تحصد ولكنها هى ايضا تأكل الخبز ، بل الخبز بالزبدة ، ثم هى تطعم المجرمين وتحميهم حتى لا يخطفهم أحد ، وزيادة على ذلك تؤلف الكتب . هذه القوة فقدت منذ زمن طويل الحق بأن تسمى قوة خلاقة هى والثقافة التى تخدمها . فما اكثر الكتب والافلام والمسرحيات عن المجرمين وعن مكافحة الجريمة ، عن النساء والرجال المنحرفى السلوك ، عن أوكار اللهو ، عن السجون ومعسكرات الاشغال الشاقة ، عن حوادث الهرب الجريئة وجرائم القتل المحكمة . . ولكن يوجد ، للحقيقة ، كتاب ذو عنوان نبوئى : «الجريمة والعقاب» * . الجريمة ضد السلم والخير ترتكب منذ زمن بعيد ، والعقاب صار قاب قوسين ، ولن تستطيع اى شرطة أن تحول دون وقوعه ، اذ لا يمكن لىّ اذرع جميع اصحاب الذرّة وحشرهم فى الزنزانات ، ولا «حلاقة» جميع الاشرار . انهم كثرة ، وهم قوة محمية جيدا . وبالنسبة لبعض الحكماء اختلطت الاستباحة بالقانون ، وانهار السد الفاصل بينهما ، فتدفقا موجة واحدة انقضّت على البشر المذهولين ، المنتظرين مصيرهم فى حيرة واذعان .

* رواية مشهورة للكاتب الروسى الكبير فيودور دوستويفسكى (١٨٢١ — ١٨٨١) . **المعرب** .

يقال ان الفهم يعني الغفران . ولكن كيف ومن نفهم ؟ وماذا ولمن نغفر ؟ المجرمون الحقيقيون ليسوا هؤلاء العابثين المتزلفين ، الذين يتوددون الى زعيم العنبر ويتسولون معتبرين انفسهم مظلومين ، ويشدون قامتهم ويرتجفون امام الحارس ، أما في الليل فيشحذون السكين ، ويصنعون من الكيس النايلون منفاخاً ، ويبادلون بجراية الطعام ابرة قديمة فيحقنون انفسهم بشتى المخدرات الفظيعة ، ويدخنون الحشيش الى درجة الانسطال . كلا ليس هؤلاء هم المجرمون الحقيقيون ، بل ذلك السجين المتوسط العمر ، الذي رآه سوشنين «في استخراج الخث» ، والذي هزّه باخلاقياته وبرنامجه في الحياة . كان «لصاً شرعياً»* مشدود البنية ، قوي الذراعين والشخصية ، يقضي «بأمانة» بقية مدة سجنه ، وما أن يخرج الى عالم الحرية حتى يشرع فوراً في ممارسة مهامه الاساسية : تحطيم اقفال المتاجر ، تطهير المخازن والشقق . أو قد يوفق الى «عمل طريف» كالاستيلاء على حصيلة بيع أو نهب أحد المحصلين أو أحد الاغنياء . . وقد يكون ثمة عاطلون ، الا اللص ، فهو لا يعرف البطالة . وهكذا راح ذلك اللص آنذاك يتهكم صراحة على صحفية من مجلة ذات اتجاه تربوي وعظي ، رافقها سوشنين الى «الخث» . كانت كمن هبط من القمر ، واخذت تبدي دهشتها من كل شيء ، وتؤمن بحماس خاص بتوبة اولئك الذين أعيدت تربيتهم ووعوا ذنبهم وسعوا الى الحياة المقبلة الطاهرة الشريفة . ومع هؤلاء اخذت تتحدث «من صميم القلب» .

* «اللص الشرعي» — تعبير يطلق على اللص المحترف ، المحافظ على «الأصول» اللصوصية . **المعرب** .



قالت مخاطبة سجيناً رزيناً يعرف قيمة نفسه :

— هذا أنت كنت تسلب الناس وتنهب الشقق . . . . فهل كنت تفكر في ضحاياك ؟

فضحك السجين بسخرية وقال مخاطباً سوشنين :

— يا رئيس ، لماذا تهينني ؟ انني استحق محادثاً اكثر نباهة .

— هيا أجب ، أجب ، والا اعتبرنا انك تخاتل .

— أنا ؟ ! اخاتل ؟ ! انك تهينني مرة اخرى يا رئيس . . . — ومضى يتحدث بتؤدة وتمهل ، حتى تستطيع الصحفية ان تسجل اقواله ، وألقى برأيه في صراحة : — لو كنت قادراً على التفكير في الضحايا لكنت طبيبا ، مهندسا زراعيا ، سائق حصادة وليس لصا ! هل كتبت ؟ هكذا . اهدي اليك فكرة اخرى قيمة : لو لم اكن انا ومهنتي لما كان لديهم — واشار الى سوشنين — ولديهم ، ولديهم ، ولديهم — قال مشيرا باصبعه الى ابراج الحراسة ، ومبنى النادي ، والحمام ، والكراج ، الى كل بلدة السجن — لما كان لديهم جميعا ما يأكلونه . ينبغي عليهم ان يصونوني صونهم لحدقات أعينهم واكثر ، وأن يصلّوا لكي لا أترك اللصوصية . . . .

فيما يتعلق بهذا اللص فالأمر واضح . انه لا يخفي شيئا . وسوف يشرعون في اعادة تربيته ، وسيتظاهر بأنه تربى من جديد . ولكن كيف تفهم تلاميذ المدرسة المهنية الذين دمروا مؤخراً في فيسك عمارة جديدة كانت معدة للاسكان . هم انفسهم قضوا فترة التدريب في بناء هذه العمارة ، وهم بأنفسهم دمروا ثمرة جهدهم . وقد قرأ سوشنين انهم في

انجلترا أخذوا يدمرون مدينة كاملة ! فغير بعيد عن برمنجهام الصناعية الدخانية أقيمت مدينة ملحقة ، التنفس والحياة فيها أسهل . واذا بالسكان يأخذون يدمرون هذه المدينة ، ولم يكن التدمير وقفا على الشباب فقط ! ورداً على السؤال : لماذا تفعلون ذلك ؟ يأتي جواب واحد لا يتغير : «لا ادري» .

## الفصل الرابع

كان سوشنين يقرأ في المدرسة كثيرا وبنهم ، دون تمييز أو نظام ، ثم وصل الى ما هو «غير مقرر» في المدارس ، الى «سفر الجامعة» * — ويا للهول لو عرف الموجه السياسي للادارة الاقليمية للشرطة — فقد تعلم سوشنين القراءة بالألمانية فقرأ نيتشه ، واقتنع مرة اخرى بأنه لكي تنكر شخصا ما أو شيئا ما ، خاصة اذا كان فيلسوفا كبيرا ، وعلاوة على ذلك شاعراً رائعاً ، لا بد حتما ان تعرفه وعندئذ يمكنك ان تنكره أو تناضل ضد افكاره وتعاليمه لا معصوب العينين ، بل بادراك وبصيرة وبأدلة . فكما قال العالم الروسي : «لايمكن البحث عن شيء بدون تجربة ، سواء كان ذلك بحثا عن نظرية النسبية أو عن نبات الفطر» . وكان نيتشه بالذات قادرا على قول الحقيقة ، ربما بفظاظة وصراحة ، عن طبيعة الشر البشري . لقد وصل نيتشه ودوستويفسكي تقريباً الى اعماق البؤرة العفنة في الانسان ، الى ذلك الموضع الذي يتخمر فيه ذلك الوحش وينمو ويمتلئ عفونة وتبرز انيابه ، ذلك

* احد اسفار التوراة (العهد القديم) . **المعرب** .



الوحش المختبئ تحت ستار الجلدة البشرية الرقيقة والثياب العصرية ، افظع وحش ينهش نفسه . وفي روسيا العظيمة لا يكون الوحش المتقمص هيئة البشر مجرد وحش ، بل وحشاً كاسراً ، يتولد في الغالب عن الاذعان واللامسئولية والاهمال وعن رغبة المجموعة المختارة ، او بالاحرى الذين وضعوا انفسهم في عداد المختارين ، في ان يعيشوا حياة افضل واشبع من اقربائهم ، وأن يبرزوا بينهم ويعلوا عليهم ، أو يعيشوا ، وهذا هو الاعم ، حياة يسر ووداعة .

منذ شهر ، في رطوبة نوفمبر ، جاءوا الى المقابر بميت . وكما جرت العادة فقد بكاه ابناؤه واقرباؤه في البيت وشربوا كثيرا ، أسفاً عليه ، وزادوا الشرب في المقابر اذ كان الجو رطبا ، بارداً حزينا . وفيما بعد عثر على خمس زجاجات فارغة في القبر ، بالاضافة الى زجاجتي خمر رخيصة مليئتين . . فقد ظهرت في هذه الايام موضة عابثة جديدة بين العاملين ذوي الدخل المرتفع : اذ لا يكتفون بقضاء وقت الفراغ ببذخ وخيلاء بل ويفعلون ذلك عند الدفن ايضا ، فيحرقون النقود فوق القبر ، وحبذا لو كانت رزمة ، ويلقون في اثر الراحل بزجاجة خمر ، فربما اراد ان يشرب المسكين للصحوة في العالم الآخر . وألقى الابناء الحزانى في القبر بالزجاجات ، أما أبوهم فقد نسوا أن يواروه الثرى . انزلوا الى القبر غطاء التابوت فقط ودفنوه واهالوا التراب على الفتحة الحزينة ، وجعلوا فوقها تلة صغيرة ، بل ان واحداً من الابناء تمرغ على التلة الموحلة وهو ينوح . ووضعوا على القبر اكاليل التنوب والاكاليل المعدنية ، واقاموا نصبا مؤقتاً ، ثم أسرعوا الى وليمة التأبين .

ورقد المرحوم اليتيم عدة ايام — لا أحد يعرف كم

يوما ملفوفا فى الازهار الورقية ، فى حلته الجديدة ، والاكليل المقدس على جبينه ، وبمنديل جديد محشور بين الاصابع الزرقاء . وغسلت الامطار المسكين ، وامتلأ التابوت بالماء . وعندما بدأت الغربان المتجمعة على الشجرة حول التابوت تحدد الجهة التى تنقض منها على اليتيم وهى تصرخ مع ذلك ، استشعر حارس المقابر بأنفه واذنه الخبيرين ان فى الأمر سوءاً .

فماذا يكون هذا ؟ أهو أيضاً الطبع الروسى الرحب الذى يثير التأثر لدى الجميع ؟ أم هو التباس ، شذوذ فى الطبيعة ، مرض ، ظاهرة سلبية ؟ فلماذا سكتنا اذن عنه ؟ لماذا لم نعرف عن طبيعة الشر من مدرسينا ، بل من نيتشه ومن دوستويفسكى وغيرهما من الرفاق الراحلين منذ زمن بعيد ، وبصورة تكاد تكون سرية ؟ فى المدرسة حللنا الزهور ورقة ورقة ودرسنا اعضاء التأنيث فيها ، واليرقات ومن وكيف يخصب ، وفى الرحلات كنا نبيد الفراشات ، ونحطم غصون بطمات الشمال ونشمها ، ونغنى الاغانى للفتيات ونقرأ لهن الاشعار . أما هو ، ذلك المحتال ، اللص ، المجرم ، المغتصب ، السادى ، فكان يكمن فى مكان ما قريب ، فى بطن امرأة ما أو فى مكان مظلم آخر ، متربصاً منتظراً فى صبر حتى تحين ساعته ، وعندما يخرج الى الدنيا يرضع لبن أمه الداقئ ، ويتبرز ويتبول فى اللفافات ، ويتردد على الروضة ، ويتخرج من المدرسة ، من المعهد ، من الجامعة ، ويصبح عالماً ، مهندساً ، معمارياً ، عاملاً . بيد ان ذلك كله لم يكن الشيء الاساسى فيه ، بل كان سطحياً . فتحت القميص النايلون والسروال الداخلى الملون ، تحت شهادة المدرسة ،



تحت بطاقة العضوية ، تحت الاوراق والوثائق ، ونصائح الوالدين والمعلمين ، تحت قواعد الاخلاق ، كان الشر ينتظر ويستعد للعمل .

وذات مرة انفرجت فتحة التهوية فى المدخنة الخانقة ، وطار من السخام الأسود شيطان فى صورة انسان ممتطيا المكنسة ، كعجوز الحكايات الشريرة المرحة ، او كابليس صغير خفيف الحركة ، واخذ يعمل . فلتقبضى عليه الآن يا شرطة فقد اصبح ناضجاً لارتكاب الجرائم ومطاردة الأخيار ، ولتوثقيه ، ولتنتزعى منه الفودكا ، والخنجر والحرية المطلقة ، بينما هو يحلق فى عنان السماء على المكنسة ويصنع ما يشاء . أما أنت ، حتى لو كنت تعمل فى الشرطة ، فمقيد بأغلال الاحكام والبنود والقواعد ، مزرر بجميع الأزرار ، مشدود القامة محدود الحركة . ترفع يدك بالتحية قائلاً : «لو سمحتم ، اورنى هويتكم» . أما هو فيصب عليك سيلاً من القئ، أو يستل سكينا من عبه ، فليس لديه قواعد او اخلاق ، هو نفسه اهدى نفسه حرية الحركة ، وهو الذى وضع لنفسه الاخلاق ، بل وألّف عن نفسه الأغانى العاطفية الفخورة : «فى ايام الجمع ستكون الزيارات ، يا سجن تاجانكا ، يا بيتى الحبيب . . .»

لقد قرأ سوشنين ان رجال الشرطة فى اليابان يطرحون اولاً السكير الهائج أرضاً ، ويضعون القيد فى يديه ، وبعد ذلك يخوضون معه فى الحديث . ولكن مدينة فيسك تقع فى الطرف الآخر من الكرة الأرضية ، فعندما تشرق الشمس فى اليابان تغيب فى جهة فيسك ، وهناك تبلغ درجة الحرارة اليوم ثمانى عشرة درجة فوق الصفر وخضروات الشتاء تنمو

فى الحقول ، اما هنا فدرجة الحرارة اثنتين تحت الصفر ، والامطار الغزيرة تهطل وكأنها لا تكف عن الهطول منذ دهر .

بلل سوشنين رأسه تحت الصنبور ، وهزه فتطاير البلل فى شتى الانحاء ، فليس هناك من يمنعه من نشر البلل ، فهو أيضاً مطلق الحرية ! اغلق الصنبور ووضع الحلّة وبها الدجاجة فوق الموقد ، ومسد بيديه رأسه وكأنه يواسى نفسه ، وتمدد على الكنبة وحدق فى السقف . لم تزايله الوحشة ، ونهش الألم كتفه وقدمه : «كان من الممكن أن يشوهونى ، ان يجهزوا علىّ ، ويحشرونى تحت السلم . أمثالهم يفعلون أى شيء . . .»

كان سوشنين يقوم بالدورية مع فيديا ليبيدا فى المدينة ، وبلاهما الله بسارق سيارة . وكما اتضح فيما بعد فقد كان «البطل» ثملاً ، وصل لتوه من اقصى الشمال بكيس سميك محشو بالنقود ، واغرق فى الشراب واحس برغبة فى اجتراح المآثر فسرق شاحنة . وبجوار المحطة ، عند الدوران حول حوض الزهور المستدير ، عليه اللعنة ، لم يسيطر السارق على عجلة القيادة فصدم محطة الباصات فداس اثنين وقتل الثالث وقد ألصقه بالكشك . وجن جنونه وتولاه الذعر ولم يعد يرى شيئا ، وانطلق بالشاحنة فى الشارع الرئيسى ، متخطيا اشارات المرور ، وعند تقاطع الشوارع هرس أما شابة مع طفلها هرساً .
وقامت الشرطة كلها بمطاردة السارق تعاونها السيارات



العامة ، وراحوا «يزيحون» السارق من وسط المدينة الى الشوارع الجانبية ، الى الضواحى الخشبية على أمل ان يصطدم هناك بسياج ما . وكان سوشنين وفيديا ليبيدا على متن موتوسيكلهما ممسكين بذيل السارق ، وتمكنا من دفع الشاحنة المتوحشة الى أحد الافنية ، وهناك دار السارق فى المربع الرملى ، ودمّر ساحة العاب للاطفال ، ولحسن الحظ لم يكن الاطفال فيها فى تلك الساعة ، وعند مغادرة المكان دهس امرأتين عجوزين كانتا تتنزهان متشابكتى الايدى . طارت العجوزان المتهالكتان كفراشتين واطبقتا اجنحتهما الخفيفة فوق الرصيف .

وقرر سوشنين — الاكبر رتبة فى الدورية — أن يقتل المجرم .

وما أسهل القول : ان يقتله ! وما أصعب ان تفعل ذلك . فعليك ان تطلق النار على شخص حى . ونحن نردد فى سهولة عند اى مناسبة : «كنت مستعدا ان اقتله ، او اقتلها . . .» . فلتحاول أن تقتل حقاً .

وهكذا لم يقدما على اطلاق النار على المجرم فى المدينة ، فالناس كثيرون حولهم . واخرجا الشاحنة الى خارج المدينة وهما يصيحان طوال الوقت فى مكبر الصوت : «ايها المواطنون حاذروا ، الشاحنة يقودها مجرم ! ايها المواطنون . . .»

وصعدوا الى رابية ، وتجاوزوا آخر محطة بنزين فى المدينة ، واذ بهم يرون — ويا للهول ! — اربع جنائز عند المقابر ، وفى احدى الجنائز سار خلق كثيرون ، يبدو انهم يدفنون احد المشاهير المحليين . وبعد المقابر بخمسة كيلومترات موقع بناء ضخم حتى انه لمن المخيف التفكير فيما يمكن ان يفعله السارق هنا من فظائع . اما هو فقد سكر تماما من

السرعة ، فاندفع فى الآفاق الرحبة لضواحى المدينة بسرعة تجاوزت المائة كيلومتر .

— اطلق النار ! اطلق النار !

كان فيديا ليبيدا جالساً فى صندوق الموتوسيكل ، فكانت يداه طليقتين ، كما انه افضل الرماة فى قسم الشرطة . وأخرج فيديا ليبيدا المسدس من قرابه بانصياع ، ورفع ابرة الأمان ، وكأنما لم يدرك من المقصود باطلاق النار عليه ، فسدد رصاصة ، فثانية ، فثالثة الى عجلات الشاحنة . وتصاعد الدخان من المطاط ، وراحت السيارة تعرج وتقرقع . وكزّ سوشنين على شفته ، وضغط على البنزين فى الموتوسيكل الى اقصى مدى .

كانا يقتربان الشاحنة يحاولان تجاوزها . ورفع فيديا ليبيدا المسدس ، وعلى الفور خفض يده فى عجز .

وصاح : — قف ، قف أيها المجرم ! عند ورشة البناء سيغلقون الطريق ، هناك مركز شرطة ! . . .

وأدرك سوشنين من حركة شفتى زميله ما كان يقوله كصلاة يتمتم بها على أمل أخير بانتهاء المسألة دون اراقة دماء .

— والمقابر ؟ — جاء دور فيديا ليبيدا ليدرك من حركة شفتى سوشنين ما يقول .

شحب فيديا ليبيدا حتى صار حقاً بلون ورقة لم يفسدها المهووسون بالكتابة فرفع المسدس المألوف وكأنه يرفع جلّة حديدية ثقيلة . وتمتمت شفتاه والرذاذ يتطاير منهما :

— سأحاول . . . سأحاول . . . .

— لا وقت امامنا ! — واندفع سوشنين بجنون لتجاوز الشاحنة .



ولم يسمح السارق لهما بالمرور من اليسار . وبحركة حادة ارتميا بالموتوسيكل جانبا وتقدما من اليمين وهما على وشك السقوط . وعندما حاذيا قمرة الشاحنة ، ورغم ادراكهما لعدم جدوى الكلام فقد راحا كلاهما يستحلفانه فى صوت واحد وقد نسيا ان يستخدما مكبر الصوت :

— قف ! قف ! سنطلق النار . . .

اندفعت الشاحنة المقرقعة نحوهما ، وصدمت الموتوسيكل برفرفها الحديدى . كان سوشنين سائقاً محنكاً ، ولكن شيئاً غير مفهوم حدث له ، اذ راح يحاول ، دون جدوى ، العثور على دواسة الموتوسيكل بقدمه اليسرى . وارتفع فى اذنيه رنين ، واخذت السماء والأرض تتضرجان بالحمرة ، وفى الأمام تراكض السائرون فى الجنازة وتفرقوا فى مكان ما وراء حافة ما .

— اطلق النار ، هيا !

وبطلقتين اردى فيديا ليبيدا المجرم قتيلاً . وقطعت الشاحنة مسافة اخرى وهى تقرقع بعجلاتها المثقوبة ومالت بأنفها فى قناة الطريق . واستطاع سوشنين وهو يسقط من على الموتوسيكل أو معه أن يرى بلية حمراء تندفع خارجة من قفا بليد عنيد طال شعره قليلا ، وتبعتها بلية اخرى ، فأخرى ، أسرع فأسرع ، وكأنها تندفع متساقطة من خط التجميع ، وانتظمت جميعها فى خيط احمر ، ثم رقبة ، وكتفين ، وسترة جينز جديدة مليئة بالجيوب المحشوة ربما برسائل الأم او ربما برسائل الحبيبة . وعلى السترة لاحت أيضاً شارة ساطعة من التى ينعم بها مكافأة لانقاذ الناس من الحريق .

تشبعت السترة والجيوب والرأس العنيد الساقط على مسند

المقعد بالدماء ، وثقلت ، واصطبغت بلون واحد .

وتقلص سوشنين متشنجا على الأرض ، وتصاعد غثيان احمر الى حلقه . وبعد ذلك تمدد مهروساً ، مدعوكا فى سيارة الاسعاف بجوار سارق الشاحنة المقتول ، وسمع كيف كانت دماؤهما المختلطة تنساب على الارضية المعدنية بطرطشة تحت النقالة وتخز سمعه .

كان جريشوخا بيريتياجين ، جراح مستشفى السكة الحديدية المحنك ، المولود هنا فى بلدة عمال السكة الحديدية ، والذى كان يحصل اثناء الدراسة بعناد على تقديرات «مقبول» رغم ملكاته التى تقدر «بامتياز» ، قد تمكن فى وقت ما من أن يصبح طبيباً كاملاً . وهو الآن اشيب الشعر ، بطىء متمهل ، وكما بدا لسوشنين ، ثمل قليلاً .

— قدمك معلقة بالجلد والعرق فقط ، فهل نقطعها ام ننقذها ؟ بم تأمر يا حضرة الرئيس ؟

فتوسل سوشنين :

— حاول يا دكتور . . . — واضاف باستعطاف — لن أنسى جميلك يا جريشوخا ! — وأضاف مجيبا على التساؤل فى نظرة الطبيب المندهشة — اننى ايضا من ابناء السكة الحديدية . . . انا ابن اخت الخالة لينا .

قال الطبيب باهتمام حى :

— آه . . أنت ليشكا اذن ؟ لهذا اخذت انظر اليك ، آخذ بالك ؟ . . طيب ، طالما انت من رجال السكة الحديدية ، وفوق ذلك تجرى فيك دماؤنا نحن ابناء فياتكا ، فيكفى



اذن العرق فقط . . وانا انظر واقول : وجه مألوف . . . آخذ بالك ؟ . .

— كان جريشوخا يتحدث ويصدر للممرضة والمنظفة حركات ما . — تقول انك لن تنسى جميلى ؟ بل تعتقلنى ولا تفرج عنى ، ها — ها — ها . . .

لسبب ما لم يجر الجراح جريشوخا تخديراً لسوشنين ، بل صب له كوبا كاملاً من الكحول النقى . وانتظر الدكتور الى ان يصبح المريض ثملاً تماما ، وثرثر معه بعض الوقت فى شتى الأمور ثم شرع عمله . واثناء العملية جاءوا لسوشنين بجرعة كحول اخرى فى كأس مدرجة . وشرب الكحول وكأنه يشرب ماء نبع شديد البرودة . ولعدم تعوده على ذلك كوى الكحول اغشية حلقه فبح صوته بعد ذلك مدة طويلة .

كان جريشوخا بيرتياجين راضيا عن نفسه وعن مهارته المهنية ، فكان يضحك اثناء المرور ويقول له بأخوية :

— لقد رقّعتك كما فى ايام الحرب فى الجبهة ، طرقتك على الساخن . والتحم العظم ! الـ . . ت . . حم . . م ، آخذ بالك ؟ ما الداعى لاهدار المخدر علينا نحن ابناء فياتكا ، ونقل الدم . المخدر مضر ، ومخزون الدم عندنا قليل ، اما نحن ، ابناء فياتكا ، فكثيرون . اسمع ، أصحيح انك لم تشرب من قبل كحولا نقيا ؟ أوه . . آخذ بالك ؟ يا لك من شرطى حلو ، جميل ، لطيف ! لو كان الأمر بيدى لطردت المخنثين امثالك من الشرطة .

تماثل سوشنين للشفاء طويلا . وبسبب الوحدة والوحشة قرأ كثيراً ، واكثر من دراسة اللغة الالمانية ، وبدأ يسوّد الورق

بالحبر . فى البداية كتب تقارير ، طويلة وكثيرة ، ثم اعد مذكرة قصيرة فكفوا عنه . ولكن توضيح الموقف كان صعباً بصفة خاصة مع المحقق بيستريف .

كان المحقق أنطون بيستريف غيورا على شرف العاملين فى ساحة العدالة ، وخيل اليه انه يسبر أغوار الجميع ويعرف كل شئ .

— كيف أمكنك ، انت الشرطى المجرب ، ان تطلق النار على فتى شاب ؟ — قال بيستريف من بين اسنانه مسددا الى سوشنين نظرة حادة كالشفرة ، وكان من الواضح انه يقلد مثالاً أعلى معبوداً لا يتزعزع . وكان فيديا ليبيدا قد تملص من التحقيق ، فمن الاكبر رتبة فى الدورية آنذاك ؟ سوشنين . اذن فليسأل وليتعذب . وفى البداية تمالك ليونيد نفسه ، وحاول ان يوضح الأمر للمحقق ، ولكنه انفجر اخيراً :

— يا له من شاب فتى ! انه يستحق على الأم الشابة وطفلها أن . . . — واغمض ليونيد عينيه واستدار . — مدعوكين فى الأرض . . والدم . . والوحل الأحمر . . انا مستعد ان افرغ خزانة كاملة فى أى شخص ، وفيك أنت بلذة خاصة !

فافلتت اعصاب المحقق :

— موتور ! أين تحسب نفسك ؟ كيف التحقت بالشرطة ؟

— اننى موتور لأنك تعيش خالى البال فى النعيم ! — رغم كل شئ ظلت فى سوشنين روح الصبينة . وربت على كتف انطون بيستريف وقال : — هذا الصبى لبس كامك الغالية ! هذا المرحوم ، يا ابن بلدى ، لا يمكن ان تتخلص منه بخمسين روبلاً ! — وهكذا انصرف تاركاً حامى العدالة



فى حيرة من أمره الى درجة انه خابر سوشنين طالبا منه تفسير تلميحاته .

لقد نسى بيستريف ، ابن قرية توجوجيلينو ، انه على بعد ثلاثة كيلومترات فقط من مسقط رأسه ، وفى قرية بوليفكا تعيش حماة سوشنين ، يفستوليا سيرجييفنا تشاشينا ، وهى حقا التى تعرف كل شئ عن كل شخص ، ربما لا فى الكون كله ، ولا حتى على مستوى المحافظة ، بيد ان معلوماتها تشمل ناحية خايلوفسك كلها . ومنها عرف سوشنين ان أم بيستريف قد توفيت منذ اربع سنوات فى قرية توجوجيلينو . ووصل جميع ابنائها لحضور الدفن ، وحتى زوجات الابناء جئن ، والاصهار ايضا جاءوا ، وجاء الاقرباء ، البعيدون ، غير ان اصغر الابناء وأحبهم ، أنطون ، ارسل حوالة بخمسين روبلا لنفقات الدفن وبرقية عزاء طويلة ، وأفاد بأنه مشغول جداً ، بينما كان فى واقع الأمر عائداً لتوه من منتجع بيلوكوريخا ويخشى ان يضيع عليه أثر حمامات الاعصاب التى تناولها وان تضطرب اعصابه من المعاناة ، كما انه لم يكن يرغب فى رؤية اقربائه من «الدهماء» القرويين . وقام اقرباؤه ، الذين كانوا بالفعل «دهماء» باعادة الخمسين روبلا اليه وقد ردوا بصراحة ريفية فظة : «فلتغص بنقودك ايها الخسيس اللئيم» .

عندما غادر سوشنين المستشفى على عكازين وعاد الى شقته الخاوية ، استلقى على الكنبة وأسف على انه لم يتعلم الشرب ، فهذا هو الوقت المناسب لذلك .

وعادته الخالة جرانيا عدة مرات ، فغسلت وكنست وطبخت ، وعاتبته على قلة حركته .

وبعد أن غالب المرض قليلاً ، انكب مرة أخرى على القراءة ، وشعر بميل الى الكتابة ، فقد انفلت زمامه فى كتابة التقارير ! وغرق فى هذا العمل الجذاب وغير المفهوم بعد . وكان قبلاً فى ايام المدرسة ، قد زاول الخط على الورق ، ذلك الطريق المألوف بل والتقليدى عموما للأديب الشاب المعاصر — مجلة الحائط المدرسية ، الجريدة المحلية فى مدرسة الشرطة ، تعقيبات احيانا فى صورة «فنية» فى جرائد الاقليم ، ثم مجلة الشرطة وبعد ذلك فى غيرها من المجلات «النحيفة» ، اذ لم يبلغ حتى الآن مستوى الكتابة للمجلات «السميكة» ، والحمد لله انه كان يدرك ذلك .

«هل اسافر الى باشا ؟ الحال طيبة عند باشا !» — فكر سوشنين بتكاسل وهو يعلم مقدما انه لن يسافر الى اى مكان . لم تكن به طاقة ، والمهم ، لم تكن به رغبة فى التحرك ، او حتى للنزول الى تحت لجلب البريد . . .

باشا انسانة قادرة على اسعاد وتهدئة واطعام العالم كله . وهى التى قصدها بوشكين عندما كتب : «لو كنت مــن الملكات — قالت احدى الفتيات — لأقمت ولائم ، لمسيحيى العالم» * . . . .

بعد أول اصابة حربية وميل سفينة الحياة الزوجية على جنبها قرر سوشنين ، ربما بدافع الاضطراب او بسبب اهداره

* من الحكاية الشعرية «حكاية الملك سلطان» للشاعر الروسى الكبير الكسندر بوشكين (١٧٩٩ — ١٨٣٧) . **المعرب** .



للوقت بلا طائل ، أن يكمل تعليمه ، فانحشر فى الدراسة بالمراسلة بكلية الآداب بمعهد التربية المحلى ، مع الميل الى دراسة الأدب الألمانى ، وتعذب مع حوالى عشرة من ابناء فيسك فى مقارنة ترجمات ليرمنتوف بأصولها العبقرية ، وهو يعثر بين حين وآخر على ما يبحث عنه ، اى على اوجه الاختلاف بين النصوص ، فقد كان المفكرون الفيسكيون يعتبرون ان ليرمنتوف افسد الثقافة الالمانية كثيراً بترجماته .

كان سوشنين يلعب «الجورودكى» * فى الاستاد الصغير المجاور للمعهد والذى تتخلله هنا وهناك براعم خضراء لاشجار القيقب الوليدة . وفى موضع الاستاد كانت تقوم فى وقت ما بركة تابعة للأبرشية بها سمك شبوط وازهار زنابق الماء والليلك وتحيط بها اشجار عملاقة . وفى مجرى الحرب ضد جهالة رجال الكنيسة الذين تجاوزهم التاريخ اجتثت تلك الاشجار ، وردمت البركة مع سمكها بالتراب والمخلفات المستخرجة من حفر اساس العمارات الجديدة ، ولكن هذا الماضى اللعين ليس بالشيء الهيّن اقتلاعه ولا بالسهل القضاء عليه ، فهو يبرز من تحت الأرض ، من تحت اعماق الاستاد المدكوكة والممهدة ، من الجدول ، يأتى بعيداً ، من الاعماق ، مفصحاً عن نفسه بين الحين والحين ولو بطريقة متسللة ، خافتة ، فيرسل الى الحاضر الصافى بشائر الربيع ، مذكراً

* لعبة روسية شعبية قديمة يلقى فيها اللاعب بعصا ثقيلة ليصيب اشكالا معينة مركبة على الأرض من اسطوانات—خشبية قصيرة ، ولكل شكل منها اسم يعرف به ، وعلى اللاعب ان يزيل بضربة هذه الاشكال ويلقى بالاسطوانات خارج المربع . **المعرب** .

بنفسه عن طريق غصن حي لشجرة حور أو قيقب كان يركض بينها على ممرات مفروشة بالرماد ، وقد تشرّب مرتقبه . المعلمون المقبلون ذوو الشخصية المنسجمة التطور . وهم يدربون مرونة اجسادهم ، وقوة عضلاتهم ، وسرعة افكارهم .

ولما كان سوشنين قد اصبح اعرج فقد حددوا له ، للتمرين : الالعاب الأرضية ، فراح يطوح بحماس الهراوات المصقولة مطيحاً تارة بـ «الجدة في النافذة» وتارة بـ«الافعى» وتارة بـ«الكوخ» . فرأى ذات مرة في طرف الاستاد فتاة ذات هيئة رجولية ، بوجه منحوت ببساطة ولكنه متورد وعفي ، سقط عليه شعر قصير مقصوص يبدو بلونه وسمكه كالدريس . وقد جمعت الفتاة شعرها خلف قفاها بمشط عظمي قديم الطراز . وكانت في الوقت نفسه تنضو عنها سروال التزحلق على الثلج ، وتقطع ازرار البلوزة وهي تئن بنفاد صبر وتنشق بمنخريها الواسعين . وشدت اثناء السير سروالاً قصيراً من طراز سراويل كرة القدم ، وشهقت مزيدا من الهواء بصفير واتجهت الى درب العدو وجمدت في وضع الاستعداد للانطلاق . وكانت حمالة صدرها البارزة بوضوح من خلال الفانلة الممتلئة بجسدها ، معقودة على ظهرها عقدة بحرية ، ذلك لأن المشبك البلاستيك لم يصمد أمام ضغط القوى الداخلية فانكسر وتدلى بلا فائدة . كان من الواضح ان العقدة القوية وحدها هي القادرة على كبح القوة في اسطوانتي الثديين الحديديتين ، المشتتين من وسطهما بصامولتين من عيار ثلاث بوصات . ولا بد أن هاتين الصامولتين قد فكهما غير مرة الميكانيكيون الريفيون الطليعيون . ولكنهم لم يستطيعوا حتى طمس التحزيز اللولبي لتلكما الصامولتين ولا ترويض قوة



الماكينة الجبارة التي كانت تزداد حرارة والتهابا قبيل العدو .

— ايه ، ايتها الديدان المثقفة ! — زأرت الفتاة عندما حاذاها الرياضيون الشبان اللاهثون وهم يجرجرون سيقانهم ، وقد علت الصفرة وجوههم من التبغ واللقاءات الليلية والطعام الطلابي الفقير . ترجرج ثديا الفتاة ، ودارت مؤخرتها كحدافة جرار . وقطعت سيقانها التي حملت اقدامها حذاء رياضياً مقاس اثنين واربعين خطوات عملاقة ، وكان وجهها طافحاً بالحماسة والهجومية ، فتطايرت الكائنات الصغيرة التي كانت تدب بأقدامها على بركة الايرشية المدفونة الى شتى الجهات كالهاموش وتخلفت عنها . . .

لم تكن الفتاة تعرف ما هو الفينيش* ، فتجاوزته رامحة ، ويعلم الله أين كانت ستبلغ لو لم يعترضها سور الاستاد . تلك كانت باشا ! وقد وهبها الله لقبا مناسباً لقامتها : سيلاكوفا** . وقد قال احد الرياضيين المتمرسين ، الذي كان لا بد حاصلاً على لقب استاذ الرياضة ، بعد ان هزمته هزيمة قاسية ، قال وهو يمسح نظارته المغشية : «كان بوسعي أن اتخطى هذه المرأة الهائجة لولا ان النظارة غامت» . فربتت باشا سيلاكوفا على كتفه بتسامح وقالت : «هلا جربنا مرة اخرى ؟» .

ومن هنا ولدت تلك الاغنية التي كانت شائعة في المعهد : «كان بوسعي ان اطبخ ، وان اهديك الازهار ، وان احبك للابد وحتى الموت» . وتأتي اللازمة المتكررة : «لكن النظارة غامت» . «كان بوسعي ان أؤدي امتحان مقاومة

* خط النهاية . **المعرب** .

** لقب مشتق من كلمة «سيلا» الروسية وتعني : القوة . **المعرب**.

المواد ، ان التحق بكلية الفيزياء والرياضة . كان بوسعي ان أقهر كل ذرى العلوم ، «لكن النظارة غامت» . . .

ولكن أمور باشا سيلاكوفا الدراسية لم تكن رائجة كأمورها الرياضية . وحتى عندما كانت في المدرسة لم تتفوق على احد في العلوم بل كانت تلاحق الآخرين في معظم الاحيان . كان الأولى بها أن تعمل في مزرعة الابقار التعاونية ، لتصبح من العمال الطليعيين ، وشخصا محترماً ، وأماً لعديد من الاطفال ، الا ان أمها ، التي انفقت صباها وحياتها وجمالها وقوتها في مزرعة الأبقار ، عندما علمت بقبول دفعة اضافية من الطلاب في معهد المعلمين ، قالت لها : «اذهبي وتعلمي لتصبحي عالمة ، وستحصلين على دخل كبير ، وتصبحين من الناس المحترمين ، ولن تقضي عمرك مثلي مغروزة في الروث» .

ورغبت باشا سيلاكوفا بشدة في ان تصبح عالمة ، وسهرت الليالي ، واصابتها البلادة من العلوم وحضارة المدينة ، وادركت بعقلها القروي الفلاحي ذي الخبرة الطويلة كيف تستطيع الوصول الى الغرض ، فراحت تأتي الى المسكن الجامعي بالبطاطس واللبن واللحم من القرية ، وتمسح الأرضية في الغرفة وتغسل ملابس الارستقراطيات من كلية الآداب وتكويها ، أما هنّ ، اللائي يدخنّ السجائر ذات المباسم الطويلة ولديهن خبرة بانواع الكونياك والكوكتيل والجنس ، ويحفظن عن ظهر قلب اسماء الماركات الاجنبية في مؤخرات سراويل الجينز المستوردة ، والتي كانت «مونتانا» هي الاعلى قيمة بينها ، فكن يسخرن من باشا ويأمرنها وينهرنها . وجعلت مدام بيستريفا ،



التي كانت تدرس الأدب الكلاسيكي الروسي في المعهد ، من باشا شغالة في بيتها .

لم يكن الزوجان بيستريف يمارسان الشئون المنزلية ولا يلوثان أيديهما وسارا على اصول ومتطلبات الشخصيات ذات المستوى الثقافي الرفيع ، اذ كانا يلهوان بالتنس ، ويغطسان في الاحواض الجليدية ، ويشاركان في رحلات القنص الجماعية ، وكان كلاهما يقود سيارتهما الخاصة طراز «فولجا» بتهور واهمال فيدير عجلة القيادة بيد واحدة ، مبرزا مرفقه من نافذة السيارة . وكان غطاء فرش السيارة مصنوعا من فراء حيوان ما منفوش — قال بيستريف انه فراء اللاما — ووراء المقعد الخلفي — مثلما لدى اثرياء القوقاز — كانت تتدحرج كرة مبرقشة ، وامام الزجاج الامامي — كما ينبغي للاشخاص الاثرياء العارفين بالثقافة — تدلى قرد مدهش ذو ابتسامة عريضة وسروال أحمر ، وعلى الزجاج كتبت بلون ساطع عبارة : «إسبانيو-اوبرتو-كوماندوروس» .

تزوج انطون بيستريف في سنوات الدراسة من ابنة مدير مصنع منتجات الكتان في فيسك ، واصبحت لديه شقة من اربع غرف لثلاثة اشخاص ، وفتح «صالونا» محليا كان يجمع فيه مساء «المجتمع الراقي» لمدينة فيسك . وقد حوّل الزوجان آل بيستريف احدى الغرف الى نوع من غرف الاستقبال وقاعة للعب ومتحف رخيص علقت على جدرانه لوحات تجريدية ومحفورات وبعض المطروقات الثمينة المشتهرة بعض الشيء التي تصور جنيات البحر ، ومغزلان وحذاء «لابتي» من لحاء الاشجار وبعض المستنسخات من لوحات سلفادور دالي المثيرة . وفي الامسيات كانت تتردد في القاعة بصوت مكتوم قليلا تسجيلات عصرية مسجلة

«من هناك» على جهاز تسجيل يابانى ، بالاضافة طبعا الى شعرائنا العصريين ، لزوم اى صالون عصرى ، فيسوتسكى واكودجافا ونوفيلا ماتفييفا . وعلى الرفوف المطعمة دواوين الشعراء يفتوشنكو وفوزنيسينسكى وأحمدولينا وأبوللينير ودوس باسوس وخمينيس ولى بو ، ومن بعدهم كتب بيكول وسيمينون وأبدايك ، وبينها توراة مطبوعة قبل الثورة وكتاب صلوات بقفل ذهبى وملحمة «حملة الأمير ايجور» فى طبعة أنيقة وقاموس دال فى اربعة أجزاء مزخرفة .

وكانت مدام بيستريفا تسلى ضيوفها بحكايات عن باشا سيلاكوفا كما تجعلها مادة للفكاهة فى قاعـــــات الدرس .

— حسناً ايها الشاب — كانت تخاطبها امام الطلبة بالاسلوب القديم وكأنها تخاطب ذكراً وتجعلها تقـــف امام الجمهور وقفة «انتباه» . — ما الذى يمكن ان تقوله لنا عن الاخطاء الرهيبة لنيكولاى فاسيليفتـــــــــش جوجول ؟

وسرعان ما يأتى رد باشا سيلاكوفا المرح ، السريع ، المعد بايعاز من زميلات الدراسة :

— ان الميول الغيبية لدى جوجول ، والتى اوحى بها اليه آباء الكنيسة بفلسفتهم الظلامية المتخلفة قد أفضت ، وكان لا بد ان تفضى — بالكاتب الروسى العظيم الى الافلاس . ونتيجة لهذا الافلاس أحرق المجلد الثانى من «النفوس الميتة» الذى كان ، بالمناسبة ، اضعف من المجلد الأول لأنه كان مشبعا بروحية رجال الكنيسة الانحلالية ، الذين كانوا



يختبئون فى كهوف ومغاور دير اوبتينا بوسطين المظلمة * وغيرها من الأوكار المشبوهة للظلاميين العدوانيين . . .

— هكذا اذن . . . انت بالطبع قرأت المجلد الثانى ولذلك ترفضينه بهذه القطعية ؟

— كلا . كل هذا روته لنا فى مدرسة القرية معلمة الأدب إدا جنريخوفنا شوتنبرج ، كما ساعدتنى الفتيات فى الحفظ .

— والمعلمة ، هل هى من المنفيات ؟

— نعم ، ولكنها استقامت فيما بعد . وأعيدت بل حتى أصبحت حاملة وسام .

— وربما ايضا اصبحت تحمل لقب الجدارة ؟

— نعم . نسيت ان اذكر هذا . تحمل ايضا لقب الجدارة .

— وقد علمتكم ، انتم تلاميذ الريف ، استقلالية التفكير .

— علمتنا باصرار . بالحاح . بذلت جهودا كبيرة فى ذلك .

— طيب .

وبابتسامة لا تكاد تلحظ ، تطوف بانحاء الوجه ، تدعو مدام بيستريفا جمهور القاعة ليكون شاهدا ، وتمضى

* دير أوبتينا بوسطين — دير يعود الى القرن الرابع عشر ، وقد زاره كبار الادباء الروس : جوجول ودوستويفسكى وتولستوى (انظر رواية الاخوة كارامازوف — المجلد الأول ، ترجمة الدكتور سامى الدروبى) .

فى تقديم المسرحية النموذجية ، فتقترح على باشا سيلاكوفا البريئة الساذجة أن تقدم «دراسة لعصر بوشكين» ، بل وكانت تحثها بايماءات من رأسها وبعبارات «توجيهية» نحو الاتجاه المطلوب . فتروح باشا تفضح بحماسة المجتمع الراقى والعصر المدمر اللذين غرق فيهما الشاعر والمعذب العظيم ، وتلعن الكونت بينكيندورف وتنهال على القيصر بالسخريات الساحقة ، وتنتقده كما ينتقدون رئيس فريق العمل السكير فى اجتماع لاعضاء المزرعة التعاونية ، بحدة وقسوة ، وتستخلص من ذلك فى الختام انه لم يبق امام الشاعر العظيم من خيار سوى «ان يلقى مصرعه فى ساحة الوغى النبيلة» . «ان مؤامرات القصر قد اطفأت مصباح الشعر الروسى الوهاج . . .»

فتهز مدام بيستريفا رأسها قائلة :

— كم نزلت عليهم ! حسناً ، هاتى دفتر الامتحانات . حتى بين جدران معهدنا لا يتسنى لنا كثيرا ان نسمع مثل هذا التحليل الصافى لمسلك اعلام ادبنا .

كانت ليركا ، زوجة سوشنين (هما الآن منفصلان ، حسب الموضة الحالية ، ولكن المحكمة لم تفصل فى الطلاق بعد) تدرس مع باشا سيلاكوفا فى الصفوف الاخيرة من مدرسة بوتشينوك وجن جنونها عندما عرفت بما يفعلونه فى المعهد بتلك الفتاة الطيبة التى حرث جدها وأبوها بالمحراث نصف أرض الاقليم وحفرا من الخنادق فى زمن الحرب أطول بكثير مما قطع الزوجان بيستريف من طرق الى المصايف والمراكز السياحية ، وعلاوة على ذلك جعلت امرأة عالمة من الفتاة شغالة فى بيتها .



صاحت ليركا التى كانت شخصا قليل الاتزان :

— ما هذا ؟ ما معنى هذا ؟ انتم تمسكون بالزعران ، وتجرون السكارى الى مركز الافاقة ، فما هذا ؟ متى تكف الارستقراطيات الجديدات عن السخرية بنا نحن ابنـــاء الريف ؟ !

— لا تصرخى ولا تجعلى منى للرب بديلاً ! هيا بنا نفكر فى طريقة لانقاذ الفتاة .

توصلا الى فكرة نقل باشا الى مدرسة مهنية زراعية لتدرس تخصص ميكانيكى متسع المجالات . وراحت باشا تنوح : «أريد ان اصبح عالمة ! على الاقل فلتحولونى الى معهد متوسط لاعداد مربيات الاطفال ما دمت غير قادرة على الدراسة هنا . . .» .

اخذ سوشنين يد باشا وذهب بها الى مدير معهد التربية فى بيته ، الى نيكولاى ميخايلوفتش خوخلاكوف ، هاوى الكتب الشهير الذى كان ليونيد «يرعى» فى مكتبته فى الفترة التى عادت فيها الخالة لينا من السجن ولم تجد بعد عملاً فكانت تغسل وتكنس فى بيت الاستاذ .

كانت هيئة نيكولاى ميخايلوفتش هيئة استاذية حقاً ، كان ثقيلا ، أشيب ، محنى القامة قليلا ، يرتدى سترة مخملية فضفاضة ، لا يدخن التبغ ولا يشرب الخمر . وكانت شقته المكونة من اربع غرف محشوة حتى السقف بالكتب المتربة ، وقد أثر ذلك فى باشا ، كما توقع سوشنين تأثيرا كبيراً . وعندما اوضح لها نيكولاى ميخايلوفتش انها بالنسبة للعالـم العصرى نزيهة جدا ومستقيمة ، ثم اضاف الى ذلك قوله ان الميكانيكى الريفى يحصل الآن على اجر اكبر من

أجر العالم فى مجال العلوم الانسانية ، اشاحت باشا بيدها وقالت :

— ليس من الممكن ان يصبح الجميع عند* . فلا بد ان يبقى أحد ليعمل . أين سطل الغسيل عندكم ؟ وشمرت ذيل ثوبها وشرعت تغسل الأرضية وتنظف الأثاث وخزانات الكتب فى شقة الاستاذ الذى ترمّل مؤخراً ، وهى تصبح فى اثناء ذلك بأعلى صوتها فى جنبات بيت «العلوم» كله : «أنا ! أنت ! هو ! هى ! جميعا نكون بلـــداً واحداً . . . » .

عاشت باشا عند الاستاذ حتى وجدوا لها مكانا فى بيت الطلبة ، وكانت تزور سوشنين احيانا ، فتصيح فيه وهى بعد على العتبة : «كم وسخت الحظيرة يا أخى فى العشيرة !»

وسارت امور باشا الدراسية فى المدرسة المهنية بصورة جيدة ، واصبحت رياضية فذة فى المحافظة كلها ، وحطمت جميع الارقام المحلية فى رمى القرص ، بل وسافرت للاشتراك فى مسابقات المناطق ، وفى اسبارتاكياد شعوب الاتحاد السوفييتى فى العاصمة ، والتى عادت منها باشا شخصا آخر فلم يكد سوشنين يتعرف عليها . عادت باشا الى ديارها وقد صبغت شعرها باللون الذهبى وجمعته فوق رأسها خصلاً مجعدة ، وبعضه لم يكن خصلاً بل بدا كأن اعصارا مرّ برأسها ، وطلت جفنيها بالأزرق . وارتدت بدلة جينز وحذاء طويلا «على طريقة الفارس» بويارسكى . عادت باشا كالعاصفة تسحق كل ما يواجهها ، وبين اسنانها لفافة تبغ .

---

* من اغنية ذائعة فى بداية الثمانينات . المعرب



قالت لسوشنين :

— لكى تعرفوا من نحن ! ولتذكروا من نحن ! نحن الريفيات نستطيع ان نبز هؤلاء الرقيعات من كلية الآداب .

وقال سوشنين لنفسه بحزن وأسى : «ايه ، اذا سارت الامور على هذا النحو فسيخسر الريف شخصا آخر من خيرة العاملين وستكتسب المدينة واحدة أخرى من الوقحات الزاعقات» ، واستطاع بمساعدة نيكولاى ميخايلوفتش اياه وليركا أن ينقل باشا الى مركز مزرعتها التعاونية «الفجر» فى مسقط رأسها ، حيث عملت ميكانيكية على قدم المساواة مع الرجال وتزوجت هناك وانجبت ثلاثة أولاد على التوالى وهى تنوى انجاب اربعة آخرين ، ليسوا من النوع الذى يشدونه من الرحم بعملية قيصرية ثم بعد ذلك يتقافزون حوله ويتصايحون بشفاه مضمومة : «آه ، حساسية ! آه ضعف نمو ! آه لين عظام مبكر ! . . .»

— ابنائى الرجال سوف يعملون فى الأرض ، وسيركبون البحر ويصعدون للفضاء . —ثم تضيف باشا ، المخلوق الضعيف ، الأم والمرأة ، متنهدة : — ومع ذلك ليت واحداً منهم يصبح عالماً مثل نيكولاى ميخايلوفتش . . . .

وتمتم سوشنين وهو مستلق على الكنبة :

— لن تأخذينى . . فالوداع ، وانا لن أرحل وحدى .

وشعر بالفرحة لأن القطار المغادر الى خايلوفسك قد رحل ، ولن تكون مواصلات الى هناك حتى الغد اللهم الا الباص ، لكن جراحه القتالية لا تسمح له بالاهتزاز فى الباص فى مثل هذا الطقس . غداً او بعد غد يسترد معنوياته ويسافر الى باشا ليتزل ضيفا عليها ، وربما زار حماه وحماته ، فالمسافة قريبة من بوتشينوك الى بوليفكا . ينبغى ان يخابر ليركا ،

لم يخابرها من زمان . ولكنها ستخمن من صوته انه قد وقع له حادث ما .

حسنا ، فلنؤجل هذا ايضا .

واذن ، فأين توقفنا ؟ عند تناقضات الحياة ؟ ولماذا يضرب الناس بعضهم بعضا ؟ يا له من سؤال سهل . والاجابة عليه أسهل من السهولة : «تراودهم فى ذلك الـــرغبة ، فيضربون . . .»

كان رئيس قسم شرطة خايلوفسك ، أليكسى ديميدوفتش أخلوستين ، المفكر والمناضل ، يقول : «نصف الناس فى الكرة الأرضية يخالفون أو ينوون ان يخالفوا ، والنصف الثانى يمنعهم من المخالفة . والتوازن بينهما قائم حتى الآن . اما مستقبلا فقد يأتى وضع يحدث فيه خلل فى التوازن» . .

«ومع ذلك ينبغى ان يخابر ليركا . كيف احوالها هناك ؟ كيف ؟ — ادار سوشتين ذراعه بالساعة نحو الضوء الشحيح المتسرب من النافذة التى لم يغسل زجاجها من زمان ، ومن خلف «جارديروب» الملابس البارز كالكرش : كانت الساعة الرابعة والنصف . ليركا تنهى العمل فى السادسة . والى ان تذهب الى روضة الاطفال لتأخذ سفيتا . ثم تذهب الى المتجر ، ثم الى هنا وهناك ، فلن تعود الى البيت قبل الثامنة . فلا معنى للمخابرة قبل ذلك . هل يخابرها فى العمل ؟ ولكن ما أكثر النساء هناك ! جالسات يرهقهن بياض الصيدلية ، وبياض الخمول ، ورائحة الادوية التى تخدر الجسد والعقل . «زوجك يطلبك !» وتتحرك عقول النساء المستثارة : «ربما يريد اقتراض مبلغ» أو «أوحشته الملاطفة . . .» أو «تذكر أخيراً طفلته . . .»



«آه من النساء ثم آه ! بدونهن كيف يمكن الحياه ؟ هه ، لقد قال شعراً ! جاء تلقائيا ! مثلما لدى ماياكوفسكى !»

شدت بصره واقلقت ذهنه جثة «الجارديروب» الضخمة التى بدت فى ظلمة الغسق اشبه بهيأة سباكيفتش الخالدة * . فبسبب هذا «الجارديروب» انفصل الزوجان آل سوشتين عن بعضهما البعض لآخر مرة ، وبالاحرى بسبب ثلاثين سنتيمتراً . . فهى المسافة التى أرادت ليركا ان تحرك «الجارديروب» اليها بعيدا عن النافذة ، ليدخل الغرفة المزيد من الضوء . ولما كان هو يعرف انها تمقت هذه الشقة القديمة ، والبيت القديم ، وخاصة هذا «الجارديروب» الطيب ، وانها تود لو ازالته من الوجود ، لو زحزحته او حركته على امل دفين بأن يتساقط اثناء التحريك ، وعندئذ يمكن استخدام خشبه التاريخى فى التدفئة . . لما كان يعرف ذلك فقد ابدى مقاومة ، والمقاومة ، كما يعرف من خبرة عمله ، محفوفة «بالعواقب» .

اندلعت على الفور خناقة ، وصراخ ودموع ، وفى مساء سيئ الطقس كهذا المساء التقطت ليركا يد ابنتهما وذهبت الى المسكن الطلابى لمعهد الصيدلة . كانت هذه هى المرة الثانية التى تهرب فيها . وعلى الارجح بمساعدة صديق ليونيد سوشتين وزميل طفولته فولوديا جورباتشيف الذى اصبح الآن رئيساً كبيرا ، انتقلت ليركا بوصفها أماً تعرضت لكارثة وباعتبارها مديرة الصيدلية انتقلت مع الصبية الى منزل من نمط الفنادق ، فخصصت لها غرفة مساحتها تسعة امتار ،

---

* هى شخصية كثية جهمة فى رواية جوجول «النفوس الميتة» ، والاسم مشتق من كلمة «سباكا» فى الروسية وتعنى «الكلب» . **المعرب** .

حيث تتوفر كافة سبل المعيشة : تواليت ، وحوض ، وصنبور ، ومكنسة ، وكنبة صغيرة ، وطاولة ، وتليفزيون ، اما هو ، سوشنين ، فقد بقى «فى الوسع» ، ملكا فى شقته ، متمتعا بالحرية ، وظل «الجارديروب» راسخاً كالصخرة . وقال سوشنين عن «الجارديروب» : «انه قائم ، وسيظل قائما !» بلهجة تكاد تكون احتفالية ، كما قال بطرس الاكبر عن روسيا .

لم يهمد التفكير فى ليركا بل ، على العكس ، ازداد حدة . ما أن يشعر بقلق روحى حتى تتبدى له ، هذه المرأة ، هذا الشخص الملحاح ! روجته . صليبه . النير فى عنقه . الطوق ، الثقالة . الهم الأرضى .

## الفصل الخامس

كانت مدينة خايلوفسك — التى ارسل سوشنين للعمل فيها بعد تخرجه من مدرسة الشرطة — مركز ناحية نمطياً ، يبلغ سكانه خمسة عشر الف نسمة من الناس الهادئين والريفيين اساساً . اما الصناعة هنا فكانت صناعة اخشاب وغزل وزراعة . اما ما كان يزعج المدينة المنعزلة ويهزها احيانا فهو معهد النسيج المتوسط ودار الراحة الاقليمية التابعة لمؤسسة قطع الاشجار . واحيانا ، وان كان ذلك نادراً للغاية ، كانت مدينة خايلوفسك تهتز من اصوات التقدم المعاصر . وكانت الهزات تتدحرج اساساً على خط السكة الحديدية ، الذى انزوت فى جواره محطة خايلوفسك الصغيرة ذات المبنى الخشبى المشيد قبل الثورة والخطوط الثمانية التى تتكدس فيها طوال ايام السنة عربات مشحونة بالجذوع المستديرة وبالألواح والعروق



من انتاج مصنع الاخشاب المحلى .

ثم راح يتردد على خايلوفسك كبار المسئولين . جاء فى البداية رؤساء غير كبار ، متحفظون ، قليلو الكلام ، ثم تبعهم اكبر منهم وأهم ، وأكثر تحفظا . وانتهى الأمر بوضع عدة عربات على الخط الثامن ، حيث عاشت مجموعة من الجنود العاملين وعلى رأسهم ملازم . وخلال ثلاثة أشهر ونيف شيدت هذه الفصيلة الحربية فى مركز خايلوفسك فندقا من طابقين — مما اضفى المرح على المدينة التافهة — ثم رحل افرادها الى جهة غير معلومة ، تاركين وراءهم بضع أرامل حربنات حزناً لا عزاء له .

وظل الفندق يستخدم طويلا لايواء الوافدين فى اجازات أو ماموريات . وذات مرة جاء الى خايلوفسك فجأة مصمم مشهور ، هو من ابناء هذه البقاع ، وكان قد صمم مدفعاً آليا مضادا للطائرات اطلق عليه المقاتلون فى الجبهة اسم «هات هات» . ومهما حاولت ان تهرب من هذا المدفع — سواء طرت ام ركضت — فلن تستطيع الى ذلك سبيلا .

وفى هذا الفندق الجديد قدر لسوشنين ان يصبح مشهورا فى خايلوفسك كلها وفى النواحى المحيطة بها . كان اهل خايلوفسك يعيشون فى بيوتهم ، وعندما يجىء ضيوفهم او اقرباؤهم لزيارتهم فى الاجازات ، يعيشون هناك ايضا . اما غرف الفندق فكان يحتلها الوكلاء متيسرو الحال الحركون الذين يقصدون اخشاب خايلوفسك ، واثناء موسم الصيف ينزل فيها احيانا مفتش من وزارة الغابات او الميكنة الزراعية ، وابناء جبال القوقاز مع هبات الجنوب الخصب المشمس : الطماطم والازهار والفواكه ، فكانوا يسعدون السوق المحلية

التى غطتها الاعشاب البرية ونبات القريص ، والصحفيون المحليون الذين يزلزلون هاتف الجناح «اللوكس» وهم يجمعون المادة الصحفية عن الخبرة الطليعية فى معالجة الكتان واستخدام مخلفات الخشب . اما الشعراء والمصورون فكانوا يهجمون فى العادة فرقاً . ويسددون حساب الفندق بصورة ما ، فيخطون اسطر الشكر فى «سجل الشكاوى والاقتراحات» التابع للفندق ، ويزينونه برسوم مسلية ، ثم يختفى هؤلاء المفكرون فى هدوء ، وبعد رحيلهم تجد عاملات النظافة تحت الأسرة اقلاما جافة ودفاتر مملوءة بأعمدة الشعر ، واحيانا يعثرن على بطاقات هوية واوراق شخصية .

وحلت مرحلة جديدة اخرى ، ودارت الحياة دورتها ، وظهر فى الفندق «الكيميائيون» ، فانتشرت العاب الورق المختلفة . وتصاعدت انغام الجيتار ، وصرخات النساء اثناء الليل ، وصريف الاسنان ، وتردد رنين الزجاج المحطم وصليل الخناجر .

وها قد ظهر فى خايلوفسك «مارد» ! حطم بالعتلة فى المحافظة المجاورة رأس صراف ، و «أخذ فى النبر» — كما يسمون ذلك — اربعين الف «مقطوع» ** ومسدساً . «مسلح وخطر» — فى ذلك الوقت بالذات كان يعرض فى دار الثقافة للعاملين فى قطع الاشجار فيلم يحمل هذا الاسم ..

وقرر سوشنين ، لا بتأثير الفيلم ، كلا ، بل الاقرب الى الصواب بسبب الركود البدنى والروحى ان يقبض عليه :

* المقصود بذلك المحكوم عليهم بفترة عقوبة يقضونها فى العمل فى المؤسسات الصناعية . **المعرب** .

** يعنى «روبل» فى لغة اللصوص . **المعرب** .



قال لنفسه وهو يرتعش مقدما ويتحفز : «سأمسكه ! فمتى يأتى الى خايلوفسك مارد آخر ، حقيقى !» .

ولكنهم اتصلوا بهم من المباحث الجنائية للمحافظة وأمروهم ألا يتخذوا اى اجراء قبل وصول مجموعة العمليات ولكن دون ان يدعوا المجرم يفلت من رقابتهم . بيد ان المارد . . «المارد الحزين ، الروح الطريد» يمكن أن يصعد فجأة الى السماء ! . . .

كان سوشنين قد وضع خطة دقيقة . ففى ذلك الوقت هجمت على خايلوفسك جحافل الرياضيين . وغصت دار الراحة ومسكن المعهد المتوسط والفندق بهم حتى السقوف . واصطبغت المدينة الصغيرة بالسراويل الزرقاء والطواقى ذات الحروف والعلامات الاجنبية . المسابقات ، والمباريات والصخب والزحام . . . كان ذلك عنصرا هاما للغاية . ودعا سوشنين اثنين من المتطوعين من مؤسسة قطع الاشجار لمساعدته ، وارتدى الثياب المدنية ، وفى وقت الغداء «ألحق سكنيا» بغرفة اللص مع سرير سفرى . وعندما وصل الشرير ورأى شخصا غريبا فى غرفته اعتراه التوتر وبدأ يشحب ، ولكن الشرطى الشاب لم يمهله لحظة واحدة للتفكير ، فنحّى الكتاب الذى كان يقرأه ، وهو كتاب علمى تقنى انتقاه خصيصا للتمويه ، وقال مقدما نفسه :

— المهندس زفيريف * — ويا له من اسم مناسب خطر له فى اللحظة . — جميع الغرف فى الفندق مشغولة . . انها الرياضة والتربية البدنية — حاضر دائما . عفوا ، فقد ألحقونى بغرفتك . . . — وما ان شعر فى راحة يده الممدودة بيد المارد

* اسم مشتق من كلمة «زفير» الروسية وتعنى : الوحش . **المعرب** .

حتى اطبق عليها ولوى ذراعه و . . . . قبل ان يفتح المجرم فمه ، كان الشرطى قد أرغمه ! . .

ولكن رئيس المباحث الجنائية الأشيب أوضح لسوشنين حماقته كلها ، فالشرطى فى بلدة صغيرة تعرفه جميع الكلاب لا من وجهه فحسب بل ومن رائحته ايضا ! «ولكنى اجيد الجودو ، وكنت بطل مدرسة الشرطة فى الملاكمة !» — «ومن أدراك ان المارد ليس بطل البلاد فى المصارعة الحرة ؟ ربما كان بطلا فى جميع انواع الرياضة ، بما فى ذلك الحركات الايقاعية على الجليد ؟ هل درست تاريخ حياته ؟ قوته ؟ ردود فعله ؟ هل هو «زائر» أم «حوذى» محنك أم «اسكافى» ؟ هل هو غاق * ؟ ام ضرّاب ؟ وماذا لو كان محنكا ؟ اذن لقطّع أوصالك كقصاب من كييف ! ولاضطررنا لجمعك قطعة قطعة حتى يبدو منظرك لائقا فى التابوت . . . » .

وأيا كان الأمر فقد عرف الناس «بعمله البطولى» ، واتضح ان سوشنين لم يقبض على «زائر» مبتدئ ، بل امسك باثنين من القتلة المجربين ، ولم يكن ما معهما مسدسات بل رشاشات . وقد ألقى سوشنين بأحدهما من النافذة بالطابق الثانى بحركة لا يعرفها أحد غيره وذلك حتى لا يعوقه عن العمل ، واما الثانى فلم يكلفه الامساك به جهدا يذكر ! . .

وفى المحطة ، وفى شوارع خايلوفسك ، كان الشرطى البطل يسمع الهمسات فى اثره : «انه هو !» ، وبدأت الفتيات ، لا فتيات المعهد المتوسط فحسب بل والوافدات

---

* الغاق طائر بحرى كبير مشهور بالنهم — ومن الملاحظ ان النعوت المذكورة هى رموز من لهجة اللصوص . **المعرب** .



ايضا ، يتطلعن اليه باهتمام مركز ، وكن يجدن اشياء فذّة فى هيئته ، لأنهن كن يخترنه هو بالذات ليسألنه عن مواعيد قيام القطارات والباصات ، ومتى يفتح بوفيه المحطة ابوابه ، وما هى حالة الطقس غدا ، مضفيات على اصواتهن نبرة الهديل ومقلبات أعينهن وراء الرموش المكحلة .

وخابر سوشنين وكتب الى الرئاسة فى فيَسك ورجاهم شفاهة وكتابة ان ينقلوه الى مكان آخر ، ويستحسن ان يكون بعيدا عن خايلوفسك . ووعدوه «بالتفكير» فى الأمر ، غير ان خطرا لا يقل عن خطر المجرم المسلح قد أحدق بالبطل الشاب .

عاشت ليركا الى الثانية والعشرين من عمرها دون ان تصادق فتى من الفتيان ، فقد كانت تخيفهم بهيئتها المتغطرسة وبنوع من التجهيز التقنى العالى لجسدها . كانت بارزة الوجنتين ، والعظام فى مرفقيها ، وركبتيها ، ووجهها ، وذراعيها ، وساقيها وصدرها ، حتى لقد بدا وكأن لها مرافق وركبا فى مؤخرتها ايضا ، وكان ذلك كله يتحرك كأنه بزنبرك ، حركة سريعة ، معبرة ، بل وجريئة ، كان كل شىء يدور حتى فى تلك المواضع التى ليس للآخرين ما يدور فيها . وكانت ليركا تتكلم بلهجة حادة ، واضحة ، مقتضبة ، وكانت تنظر الى العالم وكأن كل ما فيه ليس فقط معروفا لديها من زمان ، بل ودرسته فى المدرسة ، وليس فى هذا العالم اى شىء يستحق اهتمامها . ورغم ذلك كله كانت ليركا مغناجا ، تسير كالغانيات ، وذراعاها نصف مثنيتين كالدمية الزنبركية ، وتقيم على رأسها تسريحات لا معقولة ، وتشد على جسدها فساتين جد عصرية ومناديل رأس وقبعات وكابات ، وفى

الآونة الاخيرة ترتدى سراويل جينز ضيقة مشدودة ومنديلا منفوشا معقودا عقدة على العنق . واطلق شبان خايلوفسك على ليركا لقب «البريمادونّا» ، وكانوا يروحون ويجيئون على رصيف المحطة «على طريقتها» فيهزون ويديرون كل ما يمكن ان يدور لدى كل منهم ، لكنهم لم يكونوا يقتربون من ليركا ، فلديهم غيرها ما يكفى من «الانماط» .

«الكيميائيون» وحدهم أولوا ليركا اهتماما عمليا اذ اعتبروها من الخليعات . وكانت ليركا تدرس فى فيسك فى معهد الصيدلة ، وفى نهاية الاسبوع ترحل الى اهلها فى قرية بوليفكا ، على بعد عشرين كيلومترا من خايلوفسك ، وتسعة كيلومترات من بوتشينوك مركز المزرعة ، وبينما كانت تقف فى انتظار الباص الذى سيقلها الى ديارها عزلها «الكيميائيون» عن الجمهور ودفعوها الى سور بين كشك لبيع الصحف وملحق مطعم مؤسسة قطع الاشجار ، وراحوا ينزعون عنها السروال . كان سروالا من الجينز ليس من السهل نزعه بمحض الارادة ، اما اذا كانت ثمة مقاومة فالأمر يتطلب وقتا ومهارة . وفى تلك اللحظة وصل سوشنين قادما من موقع قطع الاشجار ، حيث أمضى الليل يكبح جماح عمال قطع الاشجار الذين قبضوا رواتبهم . هبط من القطار فحرر الآنسة ، ثم قادها الى مركز الشرطة ، حيث اخذوا يسقونها الماء مدة طويلة فى غرفة المناوبة .

وراحت ليركا تصرخ بهيستيرية :

— الناس فى المحطة ! ناسنا ، سوفييت ، من اهل البلد ، ولا أحد ، ولا أحد يحميني ! أوغاد ! .. حقراء ! .. كلهم حقراء ! ..

بالطبع حقراء . من ذا يجادل أو ينكر ؟ الناس فى



المحطة حقراء ، و«الكيميائيون» بطبيعة الحال . ولكن الباص المسافر الى بوتشينوك قد رحل ، ولن يتحرك غيره قبل صباح الغد . فما العمل ؟

انقضت ليلة السهاد بالأمس والحمد لله ، واسترخى سوشنين ، فقد كان جسده الشاب يطلب الراحة . واستبدت به رغبة طاغية فى النوم . ولكن معاون الشرطة فى سكة الحديد بروزجين سيطرد الآنسة من غرفة المناوبة ، ذلك لأن زوجته التى تزن مائة كيلوجرام وبها من الغيرة ما يزن مائتين ، تختبر اخلاص زوجها كل ساعة . وفى المحطة يرتمى على الارائك اصدقاء «الكيميائيين» أو امثالهم وهم يفكرون فى شروط العمل : هل يوافقون على الالتحاق بمؤسسة قطع الاشجار فى خايلوفسك أم يمضون الى اعماق البلاد . واشفق سوشنين على ليركا فدعاها الى غرفته العزوبية التى خصصوها للشرطى الشاب فى المسكن الجماعى لعمال قطع الاشجار . القى بالمعطف الميرى على الأرضية ، ولف السترة الميرى جاعلا منها وسادة ، وتغطى بمعطف المطر ، واشار للآنسة الى السرير الميرى ذى النوابض التى تدندن كالقيثارة ، وما أن وضع رأسه على الوسادة حتى غاص فى ملكوت النوم اللذيذ .

حبذا لو لم يعد من هذا الملكوت النعيمى الواهب السلوى الى الضجيج الأبدى للمسكن الجماعى ، الى الغرفة الضيقة ذات الستارة الصفراء الميرى على النافذة ، والموسومة بختم غليظ السواد من اختام العهدة ، والسرير الميرى المغطى بملاءة ، هى ايضا مختومة ، وابريق الشاى بدون غطاء وبدون ختم ، والكوب المعدنى المطلى بالميناء ، وبشوك

المطعم المعوجة الاسنان ، والحقيبة الصغيرة فى الركن ورزمة الكتب على رف النافذة .

فتح عينيه فدهش لما رآه : على السرير الميرى المدندن كالقيثارة نامت آنسة وقد انزلق رأسها عن الوسادة المسطحة المحشوة بمخلفات الانسجة . لم تكن تشبه ابدا تلك الآنسة التى كانت تصطنعها امام الناس . كانت تتنفس بانتظام من فم قرمزى مفتوح قليلا ، وتحلم بشىء بعيد جدا عن الواقع الفظ . وطافت بالشفة العليا المزغبة ابتسامة خفيفة ، بل حالمة ، وارتعشت الرموش المطبقة ارتعاشا خفيفا ، وغطت الحمرة وجنتيها ، ولم تبرز وتتلوى ذراعا الآنسة وساقاها ، لم يتلوّ فيها شىء أو ينتفض ، بل كان كل ما فيها هادئا ، مستسلما لنوم عميق مطمئن . وحدقت الشمس من خلال الستارة فى الفتاة النائمة بنور مبهر فرح ، وداعبتها ، وشاكستها وزغزغتها . كانت ليركا قد نزعت عنها سروالها الجينز الموضة ، فقد كانت بطارية التدفئة تعمل كما فى الشتاء دون بخل بمخلفات الخشب ، رغم ان الوقت كان خريفا ، صحوا ، دافئا ، وشعرت الفتاة بالحر من الشمس وبطاريات التدفئة الموشوشة بالبخار فالقت بالمعطف على الأرض وتعرت ركبتاها فاتضح انهما ليستا حادتين ابدا ، ليستا بارزتين مشاكستين ، بل مستديرتان بيضاوا البشرة المشدودة ، وراحت بقعة الشمس تداعب ركبتى الضيفة وتتمسح بهما كقطة .

ومد سوشنين يده ليغطى الضيفة ، وفى تلك اللحظة القدرية دفعها شيء ما لتستيقظ . تلفتت حولها بذعر وشعور بالذنب : «أين أنا ؟» ، وعلى الفور تذكرت أين هى فابتسمت ، ومسحت شفتيها ، وتمطت بتلذذ وقالت :



— يحلو النوم فى حمى شرطتنا !

وربتت على شعره الفاتح الذى غسله بالشامبو بالامس فقط وقالت بصوت تهدّج فجأة الى درجة الشهيق :

— حرير !

وماذا يمكن ان تتوقع من شاب وشابة ارتاحا جيدا ؟ الحماقات ، ولا شىء سواها .

واصبحت ليركا تتأخر اكثر فأكثر بين المدينة والقرية . وبلغ الأمر حد اهدار عطلات نهاية الاسبوع ، فقد اصبحت ليركا لا تجد رغبة فى قضاء أيام الآحاد فى قريتها بوليفكا شبه المقفرة بين جدران بيت الوالدين . وانتهى الأمر بما كان ينبغى ان ينتهى به فى مثل هذا الوضع ، اذ حضر الشاب والشابة الى بوليفكا بعد أن وصلا الى مرحلة الاستعداد للاعتراف بالذنب والاستسلام الطوعى . لقد تعود سوشنين ، بصفته شخصا من العاملين فى الشرطة على التعرف الى شتى الاشخاص ، وفى معظم الاحوال كان ينسى هذا التعارف على الفور ، لكن الأمور فى بوليفكا كانت من نوع آخر . لقد صبغت يفستوليا سيرجييفنا تشاشينا شفتيها ، وارتدت تاييرا جديدا صارما مقلما ، وجوربا من النايلون وحذاء بلون الينسون . وظن سوشنين أنها فعلت ذلك بمناسبة عيد من الاعياد ، أو عيد ميلاد شخص ما ، ثم اتضح ان ذلك بمناسبة مجيئهما . وانتهزت يفستوليا سيرجييفنا فرصة وأخذت ضيفها الى حديقة الدار لتريه أى دفيئات لديهم وخلايا نحل ، وأى حمام وبئر ، وهناك قالت له بصراحة : «اعتقد اننا

كأشخاص مثقفين ، سنفهم بعضنا بعضا . . » .

تلفّت سوشنين حوله باحثا فى الحديقة عن الاشخاص المثقفين — لم يكن لهم وجود على الاطلاق — وبدأ يدرك انه هو ، ليونيد فيكينتيفتش سوشنين ويفستوليا سيرجييفنا تشاشينا ، المقصودان بالاشخاص المثقفين . كان يشعر بالحرج دائما من هذه الكلمة . اما الآن ، فى حديقة منزل ريفى ، وفى قرية شبه خربة ، فقد أذهلته وعقدت لسانه . وقرر انه لن يشرب «الميدوفوخا»* بعد ، مهما ضغطوا عليه ، وان يهرب من بوليفكا فى اقرب فرصة سانحة على موتوسيكل الشرطة .

وفهمت يفستوليا سيرجييفنا ذعر الضيف على طريقتها الخاصة ، فتخلت عن النبرة الرقيقة فى صوتها ، واندفعت تقول دون أدنى مكر نسائى بأن ابنتها مخلوق فريد ، وانها ولدت لطريق آخر أهم ولمصير حافل . ولكن طالما حدث ما حدث ، وطالما أظهر هو هذه النبالة ، ولما كان عموما رجلا بطلا ، حسبما تردد الألسن ، فانها تضع أمانة بين يديه . . .

فمضى «الرجل البطل» يتمتم :

— ولماذا نتحدث هنا ، ما الداعى ؟ انا مستعد . . . أمام ماركيل تيخونوفتش . . .

فأبدت يفستوليا سرجييفنا دهشتها الشديدة :

— وما دخله هو ؟ ! اننا نعوله ، فليشكرنا على ذلك وكفى .

---

* شراب منزلى مسكر يصنع من العسل . المعرب .



كان ينبغى له ان يتمعن ، يتمعن جيدا فى هذه الفكرة المعبر عنها بهذا التصميم ، وان يسبر غورها ويعيها ، وحين يعيها يقفز من فوق السياج ويمسك بقرنى الموتوسيكل الميرى ، ولتذهب العمرة فى داهية ! سيقول لهم ان الهواء اطارها فيصرفون له غيرها . ولكن الحال هنا ليس مثل القبض على المارد ! كان الأمر هناك بسيطا : اطرح الشرير أرضا وانتهى الأمر ! ولكنه الآن سار ، كالعجل المربوط بالرسن ، يجرجر قدميه وراء يفستوليا سيرجييفنا ، ثم وقف بجوار فرن حار مطلى بالطين وراح يدير فى يديه عمرته البوليسية الاحتفالية وهو يقول : «ها أنا ذا ، يعنى أطلب يد . . . — واراد ان يمزح : وايضا ساق . . .» بينما راح يقلب العمرة باحساس بالمرارة لشخص حكم عليه بالحرمان من الحرية لمدة غير محددة ودون الحق فى العفو عنه . . . دون أن يبلى غطاء رأس بوليسيا واحدا . لا ينقصه الا أن يلصقوا الأيقونة بجبينه ليقبلها ! ولا يوجد من ينتصر له ، لا أب ولا أم ، ولا حتى خالة . . يتيم مطلق ، يفعلون به ما يشاءون . . .

كانت يفستوليا سيرجييفنا هى السيدة فى بيت آل تشاشين ، وتدل الصور وقصاصات الصحف والروايات على انها عاشت صبا فوارا : اذ طافت مع فرقة دعاية فى قطار بالأرياف ، فى منديل رأس أحمر ، ومضت تثير ابناء بلدها لا بالخطب فقط ، وبسبب «التطرف» ألقوا بها فى مصنع الغزل فى خايلوفسك ، الذى هو بالأحرى ورشة ، حيث جعلوا منها عاملا نقابيا ، ولكنها عادت الى قريتها مسقط رأسها مع

الدفعة التالية من المتطوعين المتوجهين الى الريف ، واصبحت مشرفة على «دار القراءة» وعلى النادى ، ومر عليها زمن دفعوا بها حتى الى منصب رئيس المزرعة الجماعية . ولكنها فى ذلك الزمن كانت قد نسيت تماما كيف يكون العمل ، كما لم ترغب فى العمل ، ولذلك أبقوا عليها دائما فى تلك المناصب التى يمكن وينبغى فيها الكلام بكثرة ، وتعليم الآخرين ، وتقديم النصح لهم ، والكفاح ، مع عدم القيام بأى عمل فى الوقت نفسه .

أما حمو سوشنين ، ماركيل تيخونوفتش تشاشين ، الوادع الطيب غاية الطيبة ، فقد تعلّق بصهره كما يتعلق الآباء الذين فقدوا صغارهم فى زمن الحصار ، ثم وجدوهم بعد ذلك ، وليكن انهم اصبحوا كبارا . وكل ما كان ماركيل تيخونوفتش يرغب فى اعطائه لابنه : الحب ودفء القلب ، والخبرة فى العمل الريفى الذى لا يبدو ظاهرا للأعين ، والحرف الضرورية للغاية فى الشئون المعيشية . كل ذلك كان الحمو مستعدا لاهالته على صهره . واستجاب ليونيد ، الذى لم يكن يذكر أباه وشبّ فى بيئة ، وان كانت سليمة ، فهى نسائية ، بكل قلبه لهذا النداء الأبوى . فأى روح شفافة تبدت له ، أى تعلق رجولى عنيف انعم به عليه القدر !

أصبح سوشنين يدعو حماه بـ «يا والدى» ، وأحس ماركيل تيخونوفتش فى قلبه بالظفر لأن صهره لم يكن يدعو حماته الا باسمها واسم أبيها * . وكان ماركيل تيخونوفتش

* المخاطبة بالاسم واسم الاب هى من تقاليد المخاطبة الروسية للاحترام وللمعاملة الرسمية ، والكاتب يشير هنا الى الحالة الثانية .
**المعرب**



يخاطب اهل منزله بقائمة قصيرة لا تتعدى : «هم» ، «هى» ، «هؤلاء» ، «نفسها» ، «انفسهم» ، فقد كان يتجنب مناداة زوجته وابنته باسميهما ، لأن ذلك كان طويلا عليه ، خاصة وان ابنته كانت تحمل اسما «ليس اسمه» ، لانه أراد ان يسميها يفدوكيا ، على اسم جدته ، ولكن زوجته ، التى اصابها السعار من الثقافة سمتها فاليريا . . . فلتحاول ان تناديها بهذا الاسم الذى لا تسمى به سوى بقرة أو عنز !

لم يكن النحل يطيق يفستوليا سيرجييفنا بسبب هرولتها وسبابها المقذع ودخان تبغها . وكان ماركيل تيخونوفتش يربى ثلاث أسر نحل ليكون حوله جوٌ عائلى . وما أن تخرج زوجته الى حديقة الدار ، التى كانت الخلايا تقوم فى طرفها تحت اشجار الزيزفون ذات الفجوات ، حتى يفتح باب الخلايا فيطارد النحل ربة الدار ويحشرها فى المرحاض أو فى مدخل الدار . وفى الحمام كان ماركيل تيخونوفتش يغتسل وحده ، ولا يسمح لزوجته بالذهاب الى المحصدة ، فسوف تطأ الدريس وتبلله فلا تأكله البقرة . وكان يقطع الحطب وحده ، ولا يصغى الى زوجته عندما تشكو له من الأمراض ، ويتفرج فى التليفزيون على البرامج «الداعرة» من وجهة نظر يفستوليا سيرجييفنا : الحركات الايقاعية على الجليد والباليه ، وكما يمكن ان نخمن فلم يكن يؤدى واجباته الرجولية منذ زمن بعيد . وكانت الزوجة المجروحة الكبرياء تراقب زوجها وتدعى انها «ضبطت» عدة مرات هذا الضال العجوز الذى كان مع النساء الأخريات «يفعل ما يريد» .

— لا شىء يسقط من يدى يا ليونيد ، ذلك لأن والدى ، رحمه الله ، علمنى منذ الطفولة كل الاعمال ،

لأنك لا يمكن ان تعيش فى القرية بدون حرفة ، ولا تستطيع أن تشبع بيديك وتخطب فقط ، اذ لن تكفى المنصات ! كنت فى الحرب ، اثناء انسداد الطرق والتوقف ، أصلح الحذاء لهذا وأسن الموسى لذاك ، أو انجر العربة واربط عجلاتها ، أو أخرط جلبة هناك ، أو محورا ، أو نيرا ، أو اركّب ذراعا للمجرفة وأسنّها ، أو اطبخ شيئا .. حساء ، أو عصيدة ، أو بطاطس ، واركّب الحدوات للحصان ، وأبطن الملجأ بجذوع الاشجار ، أو أسقف نقطة الاستحكامات .. كل شىء تصنعه يداى . الكلمات يا ليونيد فى الجبهة لا قيمة لها ، ذلك لأنك تقف هناك على حافة الحياة . وبوسعك ان تصدق أو لا تصدق يا ليونيد فقد سمونى فى الفصيلة باسم أبى «تيخونوفتش» لا بسبب كبر سنى ، لا ، فقد كنت فى منتصف سن الرجولة ، بل بدافع الاحترام وحده ، وكنت اول من حصل على ميدالية فى الفصيلة ، عندما لم تكن الميداليات ترسل الى الجبهة زكائب . . . وعموما يا ليونيد فأنا أرى ان دولتنا بحاجة الى اناس شرفاء شغيلة ، لا الى الثرثارين والوجهاء . هؤلاء الثرثارون ، مثل زوجتى ، اهلكوا الريف باللغو . الحرب والثرثارون جعلوا قرانا وأرضنا الزراعية تصبح مقفرة .

عندما شعرت يفستوليا سيرجيفنا بأن رابطة الرجلين أقوى من الرابطة النسائية قررت ان تشن عليهما الهجوم ، ولكن الصهر بدا صلبا لا يتزحزح ، وقد دافع عن نفسه وعن حميه :



— يا يفستوليا سيرجيفنا ، جميع مآخذك علىّ وعلى الوالد لا تقوليها فى المتجر أو على المصطبة ، بل هنا فى البيت ، واياك أن تهينى الوالد أمامى بعد الآن ، لا تسوقيه الى القبر ، فانتم ستهلكون بدونه بعد اسبوع واحد . . .

فصرخت ليركا :

— من تقصد بأنتم ؟ من تقصد بأنتم ؟

— اقصدك أنت وأمك .

— وانت ما فائدتك ؟ ألست زوجى ؟

— أنا ، الزوج ، وانتما ، الزوجتان ، ما زلنا بعد نجلس على عنق الوالد ، وقريبا سيجلس عليه الحفيد أيضا .

كان الرجلان يذهبان الى الغابة ، ويقطعان الحطب ربيعا وينقلانه ، يعملان فى المحصد ، وفيما بين المواسم يجلسان على شاطئ النهر بجوار الستائر ومعدات الصيد ، او يضعان سلال الصيد فى الخلجان والقطاعات الضحلة من النهر .

وصاحت تشاشيا بصوت اسمع الدنيا كلها :

— ما هذا الذى يجرى ! الكل مشغولون بالعمل أما حصاناى فيجلسان ويحرسان النهر !

جاءت هابطة بحذاء السياج نحو النهر وفى يدها دلو صغير من دلاء الاطفال ، لأنها ، كما تدعى ، لا تستطيع ان ترفع دلو الكبار .

انتقى ماركيل تيخونوفتش من المخلفات المتراكمة عصا وقاسها على يده ، وتحرك فى صمت لملاقاة زوجته ، واهوى بها على ظهرها العريض ، وصدر عن ذلك صوت جعل الناحية كلها تتجمد كأنما قبيل قيام الساعة . كفت البقرات

في المرج عن مضغ العشب ، وهرولت الغنم وهي تدوس بعضها بعضا ثم اندفعت متفرقة ، اما حصان المزرعة التعاونية المقيد ذو الظهر المتسلخ الأجرب ، فقد مضى يعب الماء رغم انه لم يكن عطشان ، مظهرا انه لا يرى ولا يسمع شيئا . حصان مجرب .

وكأنما راحت تشاشينا تصيخ السمع لما يدور في داخلها وفي العالم المحيط بها ، ثم التقطت بفمها الهواء مرة واخرى ، وتساءلت :

— قتلني ؟ قـ . . . تـ . . . لـ . . . نـي ي ي . . .

وما أن همت بالصراخ حتى اهوى عليها ماركيل تيخونوفتش بالعصا مرة أخرى :

— انا جرحت اربع مرات . قتلت الفاشست وانا في مشاة الحرس ! عندي عشرة نياشين في الصندوق ! وأنت تفضحينني أمام صهري !

وانهال على ظهر تشاشينا ضربا بعد ضرب .

وصاحت هي :

— يا بوليس !

وفي تلك الاثناء كان سوشنين قد شبك بالسنارة شبوطا وراح يسحبه نحو الشاطئ . انه شرطي هناك في العمل ، اما هنا فهو صهر وصياد ، ومثله مثل جميع المواطنين السوفييت ، له الحق لا في العمل فحسب بل وفي الراحة . حسب الدستور .

عندما تلقى رئيس مجلس القرية ، وهو محارب قديم ، متضامن مسبقا في كل شيء مع جميع المحاربين ، شكوى ومحضرا من يفستوليا سيرجييفنا ضد زوجها ، تصفحها على عجل قال :



— اني لأعجب كيف لم يجهز عليك زوجك حتى الآن ؟ لو كنت مكانه لقضيت على هذه التحفة في ليلة الزفاف نفسها ، ولذهبت الى السجن من تلقاء نفسي .

لبعض الوقت شدت الصبية سفيتا ، الطفل الوحيد المحبوب من الجميع ، من تماسك الأسرة ، لكن السيئ في الأمر ان ليركا كانت تهمل العناية بها وبنفسها وبزوجها . فهذه الفتاة الريفية ، التي لم تعلمها أمها الثرثارة شيئا ، لم تكن تجيد طبخ حتى الحساء بدون لحم ، وكانت العصيدة التي تصنعها للطفل مليئة دائما بالكتل الصغيرة ، واذا غسلت شيئا تطاير الرذاذ على الجدران ، واذا مسحت الأرضية تكونت البرك في وسط الغرفة ، والغبار يتراكم تحت السرير ، لكنها في المقابل كانت تلقى أشد النكات اضحاكا ، وتعلقت بفرقة الهواة في المعهد ، فكانت تصرخ بأشعار ماياكوفسكي من على خشبة المسرح الطلابي .

وطالما كانت الخالة لينا حية ترزق فقد خلّصت ليركا من حقارة الواقع المعيشي ، وسارت قضية تربية الطفل قدما ، رغم ان المرأة المتحضرة كانت تتأفف ، ولا يعجبها ان الخالة لينا تلبس سفيتا على الطريقة الريفية ، فتضع على رأسها قلنسوة وفي قدميها جوربا خشنا من الصوف من حياكتها هي ، وتحممها في طست الغسيل ، وتحلق لها شعرها تماما حتى ينمو أقوى ، وتطعمها حساء الكرنب مع البطاطس . فاذا كانت حياتها قد ضاعت بعلاقة حمقاء قبل الزواج ، فلتكن ولو الطفلة اذن شخصية فريدة ، تشبه ابناء صيبروكفاسوفا النجباء ،

ولتحصل على الجوائز فى الرسم ، أو فلتكن فى الغناء الكورالى ، أو فى التمارين البدنية ، وليكتبوا عن ابنتها فى الصحيفة وليتحدثوا عنها فى الاذاعة .

وراح الزوج يشرح لزوجته : «الطب يؤكد ان الصحة اهم شىء ، هيا اذن نصون لابنتنا صحتها على الاقل» — «وكيف نفعل ذلك ؟» — «هذا ستفعله الخالة لبنا . انظرى اليّ واقتنعى بأنها تجيد فعل ذلك . فلم أصب لا بالحساسية ولا بالالتهاب الرئوى ، حتى أسنانى لا تؤلمنى» . — «أنت ثور . . وحياتك حياة ثيران ! . .» .

ما أشد تنوع الحياة ، فلا تعرف اين تكسب فيها واين تخسر ، وهيهات ان تخمن ! فذات مرة استحم الزوجان سوشنين فى حمام المدينة ، وأحسا بالراحة والطهارة البدنية والروحية ، وسرت فيهما البشاشة ، وقررا ان يعرجا على السوق ليشتريا لسفيتا بعض الزبيب ولأنفسهما خيارا مخللا فى برميل من خشب البلوط . ولوى ليونيد ذراعه كعكة ، ووضعت زوجته يدها ذات القفاز الجلدى فى ذراعه المثنية . هكذا سارا يتحدثان ، كأناس سوفييت سعداء يتمتعان فى يوم الأحد بالراحة المستحقة ، وينظران الى الناس بمودة ، دون ان يرى رجل الشرطة المحلية هذا الذى فقد يقظته . ان «أورنا» الثملة تقف تحت قوس بوابة سوق المدينة حيث تقوم لافتة «أهلا وسهلا» وترقص وتحتك بالجميع . كانت شفتاها ملطختين بالأحمر ، وشعرها بالاصهب ، وتبدو لطخ اللون الأصهب خلف اذنيها وعلى جبهتها . كانت «أورنا» الغاضبة المرحة تتسلى وتسلى الناس مجانا . وعندما رأى سوشنين «أورنا» احس بانقباض لا فى قلبه فحسب ، بل فى بطنه ، فكم استخرج



هذه الحسناء من «الفراش» فى الأزقة المجاورة للمحطة ، وساقها مرارا الى مركز الافاقة عندما كانوا لا يزالون يقبلونها فى المركز ، وطردها من السوق ، وهجّرها من المدينة .

«أورنا» مخلوق حقود ذو شهوة انتقامية . وهى التى رأت الزوج والزوجة من بعيد ، فصاحت تحيى الزوج الشاب وكأنها لا تلاحظ ليركا بجواره :

— آه ، ايها الأزرق العينين ! نسيتنى اذن ! نسيتنى تماما ! استبدلت بى هذه الداعرة ! اخص عليك ! خونة انتم يا صنف الرجال ، خونة ! — وتجشأت فى وجه ليركا طباقا وبخرا خمريا وتشكت : — هؤلاء الاشرار لا يذكرون الخير — وكشرت عن بقايا اسنانها البنية النخرة وغنت على لحن «تنزهنا على القارب» : «اعطيت غير مرة . . .» .

وشدت ليركا يدها من ذراع زوجها وسقط منها القفاز وركضت من السوق وقد غطت وجهها براحة يدها .

وصاحت «أورنا» فى اثرها :

— انه يتردد على موسكا فى مصنع الطوب ! احذرى ! سيحمل لك منها هدية ! . .

وفى البيت جرى مشهد عاصف ، انتهى بمعركة . صاحت زوجته :

— وغد ! يا لك من وغد !

واهوت على وجهه بصفعة .

وقبض على يد زوجته بحركة مصارعة مؤلمة واقعدها على الأرض .

— اياك ان تحاولى ثانية . . يا بريمادونّا !

— أى ، كسرت يدى يا وحش !



8-1344

ومن حولهما سعت الخالة لينا :

— يا ابنائى ، يا اعزائى ، ماذا حدث ؟

بعد وفاة الخالة لينا اصبح الزوجان سوشنين يتركان ابنتهما اكثر فأكثر فى بوليفكا ، فى رعاية جدتها السيئة وتحت اشرافها الفاشل . حسن انه كان لدى الصبية بخلاف الجدة جد لم يكن يسمح بتعذيبها بالثقافة ، وعلّم حفيدته الا تخاف النحل وتطلق عليه الدخان من العلبة ، وكيف تميز انواع العشب والأزهار ، وتجمع شظايا الحطب ، وتجمع الدريس بالجاروف ، وترعى العجل ، وتجمع البيض من أكنان الدجاج ، وكان يأخذ الحفيدة معه لجمع الفطر والثمار البرية ، ولعـــزق بستان الخضروات ، ولجلب الماء من النهر فى الدلو ، وكنس الثلج شتاء ، وتنظيف البستان ، والتزحلق من الجبل ، واللعب مع كلب حى ، والربت على القطة ، ورى الاقحوان على النافذة .

لم يكن من الممكن سد الفراغ الذى خلقته وفاة الخالة لينا ، ومع ذلك كان لا بد حسب قوانين الفيزياء ان يملأه شىء ما . وملأت العصبية والوحشة المظلمة ذلك الفراغ ، وفى الظلام يجد الشر انسب مكان له . كان كل شىء فى الزوجة يثير اعصاب سوشنين ، حتى تلك التفاصيل التافهة ، مثل شئون المطبخ التى لا ينبغى للرجال ان يلقوا اليها بالا ، واذا ألقوا ففى صورة مزاح ، فبسبب روحه الفكاهية وصبره ،



اللذين ربتهما فيه الخالتان لينا وجرانيا ، كانوا يقدرونه فى مدرسة الشرطة ، وفى العمل ، اذ لم تكن لديه فضائل اخرى .

وكان يثير جنون ليركا وسعارها أن هذا التافه ، ربيب بلدة سكة حديدية غطاها السخام ، يقرأ الكتب ليل نهار ، ويقول انه يستطيع ان يقرأ بالالمانية ، وهو يكذب بالطبع ، ثم يسطر شيئا ما على الورق سرا . «يا له من تولستوى بمسدس بسبع طلقات ، وقيد صدئ تحت حزامه . . .» . «اخرسى يا بريمادونا !» — «انت ايها الشرطى ، يا كلب الصيد ! يا كلب الحراسة ! ايها الوغد ! وكيف يسمونكم ايضا بلغة زبانتكم الاعزاء ؟» .

لم يحرم الله ليركا ، ككثير من النساء المعاصرات ، من الذاكرة الحقود . والأدب يؤكد ان المرأة الرائعة تتوزع جزيئاتها فى نساء كثيرات ، اما المرأة السيئة الخبيثة فتعيش دوما فى الجميع . آه من هذا الأدب ! تارة يكذب ، وتارة يقول الحقيقة . لماذا لا يقول لنا اين تتبدد تلك الصفات الرائعة فى الفتيات ، وما اكثرها ، عندما يصبحن نساء ؟

حسنا ما فعلا ، وعين الصواب ، حين انفصلا . لا داعى لتعذيب بعضهما البعض . فلتهنأ بالهدوء ، ولتقرأ ، ولتشرب الشاى من فم الغلاية ، ولا تسمح بتحريك «الجارديروب» من مكانه . وبوسعك الا تذهب الى اى مكان ، والا تدعو احدا لزيارتك . يمكنك ان تمسح الأرضية أو لا تمسحها . يمكنك ان تطبخ أو لا تطبخ . بوسعك ان تسير حافى القدمين وتمسد شعرك . بوسعك أن تشخبط الورق ليلا دون أن تتلفت حواليك او تخجل من أحد . سر الابداع ! يا له من داء ! شىء ما يتحرك فى الرأس ، ويخربش جدران الجمجمة

بالافكار فتقض مضجعك وتثير قلقك . وذات مرة وضع ليونيد كلمة «أقصوصة» على الورق مستغلا الحرية الكاملة وعدم وجود الرقابة عليه . وفى البداية ذعر ، فقد وضع نفس الكلمة التى وضعها تشيخوف وتولستوى ، ثم ألف الأمر . كانت البريمادونّا تهزأ به ، أما هو فكان يرتكب الخطيئة ويشعر باللذة . كان يشعر بالخوف والقلق . بنفس ذلك الخوف الذى شعر به عندما ألقاه لافريا القوزاقى فى نهر فيكا ، وهو فى العاشرة من عمره ، قائلا : «اذا أردت أن تعيش فستطفو . . .» .

فى الآلام والعذاب ، وفى العمل الابداعى السرى كان سيألف فراق ليركا ، وهى كذلك كانت ستألف فراقه ، وكانت ستظهر فى الدنيا عائلة أخرى غير موفقة وطفل آخر بلا أب . غير أن البلوى آنذاك ، بعد انفصالهما ، كانت له بالمرصاد .

لم يكن كل ما فى ليركا موروثا عن أمها . ففى مكان ما ، ليكن من الجنب ، او فليكن من الخارج ، ليكن حتى بأضلاعها ، تعلقت جينات أبيها . وكانت الجينات تتراءى لسوشنين دائما مثل خيوط الشعرية المسلوقة حتى التلبك فى مطعم مصنع الاخشاب . وفى تلك الشعرية ، كما اللحم فى حساء ذلك المطعم ، اختلطت مثل قطعة اللحم البقرى بحجم زبلة العصفور ، والتى أبقاها العاملون فى قسم التغذية ، المكافحون ضد الانحرافات ، اختلطت تلك القاعدة التى ترسخت فى روسيا عبر القرون ، وجرى تثبيتها بكل السبل ،



والقائلة : لا تترك الشخص فى المحنة . وطالما يوجد فى الدنيا امثال ماركيل تيخونوفتش تشاشين فسوف تظل تلك القاعدة موجودة لتتعزز بها أمتنا . لقد كشفت ليركا عن روح تضحية مذهلة . ففى البداية حدقت فى زوجها مذهولة ، ثم اخذت تهرول وتسعى هنا وهناك وشىء ما يسقط من يديها ويتكسر . وعندما خاط جريشوخا بيريتياجين لسوشنين ساقه ، وافاق هذا من العملية بالقدر الذى يسمح له بفهم شىء ما ، وجهت اليه ليركا ، حتى قبل ان تسقيه الماء والمرق ، انذارا : «اترك الشرطة وزاول العمل الابداعى» — «ومن ذا الذى سيطعمنا ؟» — «أنا — صاحت ليركا المتفانية دون ظل تردد . — أنا ! ووالدانا ! فلتجلس بجوار الوالد المحبوب لديك ولتؤلف . البطاطس متوفرة حتى الشبع ، واللحم ، واللبن ايضا ، فما الذى يحتاجه الكاتب بعد ؟»

وقدّر لها تضحيتها ، واكتشف فى نفسه قدرة جوابية على الصفح . فهل أصبحت البلوى حقا افضل وسيلة للتربية الذاتية ؟ لقد غفر كل منهما للآخر ، وتصالحا ، ولكن ليونيد لم يترك الشرطة ، واكتفى بالرد مازحا ، كما هو الحال دائما ، بأنه اذا ما ترك الجميع الشرطة الى اعمال اخرى ، ولتكن حتى ابداعية ، فان «الكيميائيين» لن يختبئوا وراء الكشك ، بل سينزعون سراويل الناس علنا ، فى وضح النهار .

وها هو مرة اخرى سقف البيت رقم سبعة فى بلدة عمال السكة الحديدية ، المخصص للهدم ، والمنسى والحمد لله فى زحمة المشروعات الجبارة ، ها هو يحمى الكاتب الشاب

من الامطار والعواصف . فى مثل هذه البيوت انما يمكن الاحتماء من العواصف ومن الزوجات ، مع أمل أنانى بألا يحل سريعا الوقت الذى تستبدل فيه بالشقة القديمة شقة جديدة لتنتقل اليها ليركا مع ابنتهما ، مسددا بذلك جزءا من دينه للأسرة .

كان فى الأيام والساعات المضطربة بوجه خاص يقرأ كتابا واحدا ، اهداه اياه الاستاذ خوخلاكوف ، يقرأه كما يقرأ التوراة ، من اى موضع . كان يمد يده ويلتقط الكتاب من الرف ، ويفتحه ، و . . .

«يا للحسرة ! لقد فقدت عيناى النور الوحيد الذى كان يهبهما الحياة ، ولم تبق لهما سوى الدموع فاستخدمتها لغرض واحد ، لكى ابكى دون انقطاع منذ ان عرفت انك عزمت اخيرا على الفراق الذى لا طاقة لى به والذى سيفضى بى قريبا الى القبر» .

عندما قرأ سوشنين ذلك الكتاب لأول مرة حك قفاه قائلا : «أنظر كيف كانوا يعيشون ؟!»

«لقد كرهت وقاومت العودة الى الحياة التى ينبغى أن اضيعها من أجلك طالما لا استطيع الابقاء عليها من أجلك . وسريت عن نفسى بالادراك بأنى اموت من الحب . . .» .

هنا كفّ عن حك قفاه مستغرقا فى التفكير ، وسّد شعره بيده من الحيرة ، وشعر ان رسائل الراهبة الى محبوبها تشده الى دوامة من العذاب غير مألوفة ابدا ولكنها فى الوقت نفسه جذابة وعذبة مضنية . ونفض كتفيه متخلصا من وهم تلك الحكاية المتسللة ، وقد وطد العزم على ان يقاوم فى دخيلته ذلك الهراء الذى خدع به فى الطفولة . . . أما الآن . . . فهو رجل عصرى ، متمرس ، قوى العظام والعروق ، عركه العمل فى الشرطة يؤدى



ليل نهار واجباته البعيدة كل البعد عن الاستكانة والرهبنة ، وهو الذى حشر «اورنا» فى «البوكس» مرات ، وقبض على المارد . ومهما كان قليل الخبرة فلن تستدر عطفه تلك الخزعبلات الكتابية ، فقد عرف اسرار الكلمة ولو فى بداياتها ، ولو قليلا ، واحتك ، كما يقال ، بـ . . .

«. . . هل يمكن ان اصبح فى وقت ما متحررة من العذاب الى ان اراك ؟ حسنا ، اليست تلك هى المكافأة التى تمن بها علىّ لأنى احبك بهذه الرقة . فليكن ما يكون ، فقد عزمت على أن أهواك مدى حياتى والا ألقى احدا ابدا ، وأؤكد لك انك ستصنع خيرا لو لم تحب احدا . . . وداعا ، احببنى دوما ، واجعلنى اعانى مزيدا من العذاب» .

لقد وثق تماما بهذه الثرثرة الطفولية مستسلما لارادة الكلمة المسيطرة أو لطغيانها ، مستمتعا بالموسيقى التى تصنعها تلك الكلمة الساذجة الضعيفة ، وقد ادرك ، ربما لأول مرة ، ادراكا بعيدا ، ان الابداع الأدبى هو سر .

كان الكتاب مؤلفا من خمس رسائل ، ثم تتلو ذلك اضافات ما ، وردود على الرسائل ، ومحاكاة ، واعادة صياغة شعرية ، وحواش مستفيضة . وقد اسعفه الذكاء حتى لا ينظر فى «مؤخرة» الكتاب فيخمد فى قلبه تلك الموسيقى التى لم تزلزله أو تفرحه ، وانما رفعته فوق الأرض ، فوق هذا العالم المعاصر الشديد الضجيج ، الشديد الزئير . لم يكن ما يعانيه خجلا ، لكنه شعر بالحرج وعدم الراحة والضيق ، وتحرك شىء ما نفسه من مكانه وبرز مثل «الجاردبروب» ، وأينما ولى وجهه اشتبك بفكره أو بسرواله . كانت ثمة عبارة تخفق وتنبض ، تنبض كالعرق فى صدغ ضعيف لطفل : «كيف يمكنك ان تكون

سعيدا اذا كان قلبك نبيلا ؟» .

كان يتولى مفتش الشرطة السابق ما يشبه الخوف أو شيء من هذا القبيل ، يتجمد له ظهره ، فيتلفت حوله برهبة ، وفي المنام وفي اليقظة نضج في دخيلته قرار راسخ : ان يمضي بحثا عن ذلك الفرنسي الذي هجر اروع امرأة في العالم فيجده ويمسك به من قفاه على الطريقة البوليسية الفظة ، ويسحبه الى صومعة الدير الساكنة فيدفعه كي يلامس بأنفه ركبتي المرأة الدافئتين .. فلتقدّر يا ذا الروح الطائشة ما يعتبر كل شيء آخر في العالم بالنسبة له غبارا ، حطاما ، بخسا .

## الفصل السادس

بحلول الصقيع تمرض سفيتا ، هذه الصبية العصرية الضعيفة ، المعرضة لنزلات البرد والحساسية . وفي القرية ، حيث الانطلاق المتوحش الذي لا تحد منه عمّات الروضة ونظم المعيشة ، تمضي الصبية تتقوى بدنيا وتنسى آداب الطعام ، والرسوم ، والاشعار ، والرقص . تمرح الصبية خارج البيت ، وتلعب مع الجراء ، وتتعارك مع الصبيان ، وتصبح مكشّرة الوجه ، وتغني اغنية جدتها الحربية : «يا قادة السرايا عاش ، المدفع الرشاش ! ولتحيى البطارية ، للعيشة الهنية ! ...»

وها هي الحفيدة الممراضة قد جاءت الى بوليفكا ثانية لفرحة الجد الهادئة وبهجة الجدة الفوارة اللامجدية . وتعب الاب الشاب اثناء الطريق من الرد على اسئلة الطفلة ومن الافكار والاحزان الدنيوية . وعلاوة على ذلك أرهق كثيرا قدمه المصابة ،



لأن الباص لم يسافر الى ابعد من بوتشينوك فقد أتلف سائقو الماكينات الزراعية اثناء الحصاد الطرق المؤدية الى القرى النائية ، ولم يعد أحد يسافر الى هناك ، بل ولا يذهب سيرا على الاقدام اذا شئنا الحقيقة . وعندما سار سوشنين وسفيتا خائضين في الأوحال بين المنازل القليلة المتناثرة في بوليفكا والتي هبطت هياكل سقوفها ، التصقت بزجاج النوافذ وجوه العجائز كأنها اوراق كرنب ذابلة ، ترى من يسير ؟ أليس رائد فضاء هبط من السماء ؟

وبعد ان تناول سوشنين بطاطس مع الحليب ، وقبل ان يعتلي ظهر الفرن لينام ثم يعود سيرا على الاقدام الى بوتشينوك ومنها عى خايلوفسك التي لا تنسى ثم يعود بالقطار الى المنزل ، اضطر الى سماع جميع الانباء المحلية والى قراءة الورقة التي اعطتها له حماته والمعنونة : «طلب-محضر» .

«الرفيق الشرطي سوشنين ليونيد فيكتيتيفتش .

لما كان الجميع قد هجرونا نحن اليتامى ، وليس لدينا من يقدم لنا حماية من أي نوع فانني اتوجه اليكم بطلب المساعدة . فنيامين فومين عاد من السجن الى قرية توجوجيلينو وفرض الجباية على خمس قرى ، وهددني أنا أرينا تيموفييفنا تاريتشوفا بالفأس والسكين وبكل ما هو حاد ، وأرغمني على النوم معه ، اى ، بالكلام العلمي ، على معاشرته . وانا عمري ٥٠ (خمسون) سنة ، وهو عمره ٢٧ (سبعة وعشرون) . فلتحكم بنفسك ، كيف اعيش أنا المستهلكة المهدودة الحيل من العمل في المزرعة التعاونية ، هذا الى جانب ان عندي عنزتين وأربع نعجات ، علاوة على قطة والكلب ريكس ، والكل ينبغي اطعامهم وسقيهم . وهو يضطرني الى ان اكتب عنه لأنه منذ

جاء الى منزلى لم احصل منه على اى دخل بل يحملنى النفقات فقط ، ويعيش عالة علي ، ولا يريد ان يعمل ، ولا يكفيه انه يشرب هو ولكنه يلتقط رفاقا من الطريق ويسقيهم . وهو يتشاجر معى ، ويخوفنى بكل الطرق ويهدد حتى بخنقى . وأنا اعلف عجول المزرعة وبحاجة الى الراحة ، ولكنه لا يدع لى فرصة للراحة ويسكر طول الوقت . خذوه عنى فقد اصبح اثقل من الهم على القلب ، ولتحملوه بعيدا عن هنا الى اى مكان ، ولو الى مركز العلاج والعمل الاجبارى ، ولتعيدوه حتى الى المعتقل فهو أولى به . كان يتشبث بجميع الأهالى من قبل ايضا ، وحكم عليه بسبب الشقاوة ، وماتت أمه ، وزوجته اختفت ، وانا كنت اخفى كل شيء — وها هى النتيجة . كفانى سكوتا ! عظامـــــى وعروقى كلها تؤلمنى ، وانا مريضة كلى ، بسببه هو ، ولم يعد لديّ وقت للأكل والشرب بسبب فعل الحرام . وهو يغار عليّ ويطاردنى ويحتقرنى . وما الداعى للغيرة وانا ليس فيّ سوى جلد على عظم وعليها خمسون سنة . اعمل فى المزرعة وعمرى خمس عشرة . طوال الليل يهجم علي كالمتوحش ، ويرقد فى السرير ويدمدم بكلام ويصر بأسنانه ويغنى اغانى السجون ، ويستهلك النور بلا داعى . ادفع الآن اكثر من اربعة روبلات فى الشهر للكهرباء . وهو لا يوفر الطاقة الحكومية ، ويهب فى وسط الليل ويصيح بصوت رهيب ويهجم عليّ ! وأفر من البيت كل ليلة ثلاث أو اربع مرات واتسكع فى القرية . والجميع نيام فالى من اذهب . فأعود الى البيت وأقف مستعدة لا أنزع ثيابى ، حتى اهرب فى اى لحظة . ولا احد يعرف ذلك ، حتى الجيران لا يعرفون اننا نعيش هذه الحياة الفاسقة كل ليلة . وأرجوكم ألا تكشفونى والا ذبحنى . اتخذوا الاجراءات وخذوه من هنا بهدوء



وابعدوه . انه آكل لحوم البشر ومصاص دماء ! ينهب القرى ويهين النساء .

والتى اشارت علي بالكتابة اليكم هى والدتكم يفستوليا ميرجيفنا تشاشينا ، فليهبها الله الصحة ، وهى التى كتبت هذه باملائى ، لأن يدى ترتعش وتعليمى ضعيف» .

لم تكن تلك هى الحادثة الأولى ولا الوحيدة فى القرى الخاوية . اذ يصل المجرم الى القرى النائية شبه المهجورة ، حيث لم تبق سوى النساء العجائز ، فينهب هؤلاء السكان العاجزين ويرهبهم . وقد اتخذت الاجراءات ، فكانوا يطردون هؤلاء الفجاّر أو يعيدونهم الى السجن ، ولكن يحل محل «الشهيد» «بطل» جديد ، والى ان يصل الى الشرطة مثل هذا «الطلب — المحضر» أو يسمع صراخ المرأة ، تكون قد ارتكبت جريمة قتل ، أو اندلع حريق أو وقع نهب .

وذكرت يفستوليا ميرجيفنا ، علاوة على ما جاء فى «المحضر» ، انه فى قرية جريبكوفو وراء النهر بقيت عجوزان ، فكانت القرية حية بهما ، وبالنور المنبعث من نافذتهما . وفى احد البيوت عاشت عجوز عنيدة ، لم ترغب فى الرحيل الى ابنائها فى المدينة . وفى البيت المجاور عاشت أرملة وحيدة منذ الحرب ، تقضى ما تبقى لها من العمر . وفى الشتاء كانت العجوزان تجتمعان للعيش فى بيت واحد توفيرا لحطب التدفئة ولتؤنسا بعضهما بعضا . وكانت العجوزان تنسجان الدانتلا بطلب من التعاونية الصناعية المحلية فى خايلوفسك ، وذات مرة ثرثرت تلك العجوز التى ترملت اثناء الحرب وهى بمشجر فى بوتشينوك أمام الجميع بأنها الآن مرتاحة البال ، فقد كسبت من الدانتلا

مبلغا لا بأس به ، للانفاق على جنازتها ، وعندما تموت فلن تثقل على أحد ولا على خزينة الدولة .

وسمع فينكا فومين عن مدخرات العجوز ، فعبر النهر بقارب ، وهجم على بيتها بعد الغروب ، والصق السكين بزور العجوز : «الفلوس ! والا ذبحتك !» . ولم تعطه العجوز النقود . فربط المجرم رأسها بفوطة واخذ يلويها بعصاة كما تلّف البرّيمة ، فتضغط الفوطة على رأسها ـــ هكذا تعلّم فى السجن . ونزفت العجوز دما من انفها ، لكنها لم تبح بالسر . ولكن فينكا من الاوغاد المحليين فهل يصعب عليه ان يخمن اين يمكن اخفاء المدخرات . مد يده يبحث خلف الايقونة ، وهناك عثر على المدخرات ، مائة وستين روبلا .

وقضى فينكا فومين اسبوعا يسكر ويعربد مع اصدقائه واصحابه . اما العجوز الأرملة ، فجمعت صرة واخذت عصا ، ومضت الى ملجأ العجائز فى خايلوفسك فسلمت نفسها لتمضى بقية أيامها فى دار حكومية ، حيث ستدفن على نفقة الحكومة تحت عامود حكومى بتيم .

---

فى الطريق الى خايلوفسك كانت تقوم قرية توجوجيلينو ، فوق ربوة ، وراء جدول محاط بالحور الرومى ، كان كثيرا ما يجف صيفا . وقد تداعت بيوت كثيرة فى توجوجيلينو وهى مغلقة الابواب والنوافذ ، ولم تدب الحياة الا بجوار حظيرة العجول ، حيث كان الراعى يطلق سبابا فاحشا ، والجرار يزأر ، وتسعى هنا وهناك امرأتان أو ثلاث ، عجفاوات مقددات . لا يمكن تمييز احداهن عن الأخرى . وفكر سوشنين انه سيعرج على توجوجيلينو بسرعة ، فيعثر على هذا المجرم الوقح فيخوفه أو يقبض



عليه ويسلمه فى قسم شرطة خايلوفسك . ولكن الاقدار شاءت ان يلتقى بفينكا فومين فى غير المواعيد التى كان قد خطط لها .

فما ان غاب سوشنين فى النوم حتى اخذ حموه ماركيل تيخونوفتش يشده برفق من كمه ، وانتظر حتى يستيقظ من النوم ثم قال ان فينكا فومين فى توجوجيلينو قد حبس النساء فى حظيرة العجول وهدد باشعال النار فيهن مع العجول اذا لم يعطينه عشرة روبلات فورا ليشترى خمرا للصحوة .

وسبّ سوشنين :

ـــ يا للشيطان ! لا راحة فى اى مكان .

وارتدى طاقيته البالية المدعوكة من اثر الرياح والأمطار ورحلات صيد السمك ، ومعطفه الخريفى القديم ، الذى يكون فيه حرا من الخدمة كان «يندس» دائما فى اللباس المدنى ، وحين اصبح فى مهب الريح ، فى تلك الرطوبة القارسة ، أحس بأنه وحيد ، مهجور ، احساسا بلغ من القوة انه جعله يتوقف وكأنه يتردد أو يفكر ، بيد انه نفض رأسه وشد طاقيته على رأسه عميقا حتى كادت تغطى اذنيه . وقد خمّن ماركيل تيخونوفتش ، الذى خرج من بوليفكا مع سفيتا ليودعه حتى الطريق الممهد عبر درب موحل ، حالة صهره النفسية الكئيبة فعرض عليه «معونة الرجال» ، ولكن سوشنين تملص من هذا العرض ، ورفع ابنته اليه ودس شفتيه فى خدها المبلل مقبلا وقال : ـــ عودوا الى الدفء ... وسار خائضا فى الوحل السائل محتميا بياقة المعطف القصيرة من المطر المتساقط الثقيل ، الذى كانت تتخلله بين الحين والحين ومضة ثلج . انعطف سوشنين ، وهو يكاد ينعس اثناء السير ، الى طريق مختصر عبر الحقول وغابة خفيفة ، مزعجا الغربان الثقيلة والحمام البرى

الجائمة على اعقاب الحنطة المحصودة باهمال ، حيث كانت الحبوب مبعثرة خطوطا واكواما ، ففرت اسرابها وانقضت هاوية على اشجار الغابة العارية . كانت بقايا الاعواد والقمح غير المحصود تتحلل وكأنها دمامل في جسد الحقل المريض ، وكانت اكوام الدريس تتعفن وقد بعثرتها آلات الحصاد ، وعلى سفوح الشطآن الطينية الصهباء للنهر الذى دبت فيه الحياة بسبب امطار الخريف خفقت في مهب الريح ذؤابات اكوام الكتان المتروكة ، وفي بعض الأماكن اسقطتها الريح فحملها النهر الى القطاعات الضحلة . واختلطت هذه الاكوام بالحور الرومى المجندل في النهر ومخلفات الغابة والاشجار المحطمة فشكلت سدودا ، بل وكان يسمع لها هدير .

صاحبت الغربان التى استقرت على قمم اشجار الشوح المثنية تحت ثقلها ، وعلى أسيجة زرائب الدريس وتناثرت بقعا سوداء على نفايات النهر وعلى الحصى ، صاحبت الرجل السائر بصياح متذمر ، شبع : «مالهم يتسكعون ؟ لماذا لا ينامون ؟ ينغصون علينا حياتنا . . .» . وكانت اشجار الحور الرومى والصفصاف العارية المقرورة على اطراف الحقول الجرباء وعلى النهر النافث بردا ، ومزق اوراق الشجر النادرة المتبقية من الخريف في الغابة ، والعجول التى اخرجوها في البرد لتقتات قليلا توفيرا للدريس فانغرزت حتى ركبها بين النتوءات الصلبة في الوحول ودلت رؤوسها متصلبة كالاحجار وسكنت وسط الحقول المتجمدة ، وخمائل الخلنج المبلل على الروابى ، والتى تشبه اناسا محنيين فقدوا شيئا ما ثم تعبوا من البحث عنه . . . كل ذلك كان مفعما بالوحدة الكئيبة والخنوع الدنيوى الأبدى والوفاق مع الطقس السيء والزمن الزمهريرى العقيم .



بجوار حظيرة العجول في توجوجيلينو التى كانت تسبح في بركة من الروث السائل بلون التبغ ، احتمت النساء ، ومعظمهن من العجائز . من الريح تحت سقف مال بشدة ، وقد ألصقن ظهورهن بجذوع الجدار المتحللة المليئة بالشقوق والتى ما تزال رغم ذلك دافئة . وعندما رأين سوشنين تحركن وصحن بصوت واحد : «الشقى ! الشقى ! ليس هناك من يردعه . هذا السجين الابدى والمتشرد . . . أهلك أمه . . . هو من صغره هكذا . . .» .

ولاحظ سوشنين على سقف الحظيرة لوحا منزوعا ، فخلع المعطف والسترة فبقى في الفانلة البنفسجية التى كانت تلف بأناقة جسده الذى اخذ يمتلئ بفعل الفراغ ، وقفز ممسكا بحافة الحظيرة المنخفضة ، وتسلق السقف ، وتسلل عبر الفجوة ، ونحى جانبا عدة عيدان ، وقفز الى داخل الحظيرة ، حيث تدلت من السقف عدة مصابيح كهربائية ينبعث منها بصيص ضئيل اصفر . وجاءت قفزته غير موفقة ، فقد اصطدمت قدمه المصابة بنتوء في الأرضية ، فوقع على الوحل السائل ولوث سرواله .

فوق الأرضية المظلمة التى تحلل خشبها وتآكل عند التقاء الألواح ، وفي الوحل الروثى الاصفر المتصاعد من الشقوق وقفت عجول مريضة تحدق في القادم ببلادة وهى لا تخور ولا تطالب بالعلف ، بل تسعل سعالا جوفيا ، فبدا وكأن الحظيرة الصماء شبه المظلمة هى التى تسعل وتلقى من جوفها في الخواء الرطب هواء خاويا بلا أنين ، بلا عذاب ، زفيرا مفعما بالاستكانة . لم تكن هذه الحيوانات المتحشرجة كالعجائز تبدى أى اهتمام بشيء او بأحد ، اللهم الا عجلا هناك بعيدا ، في مكان ناء ، اصدر صوتا ذابلا ثم صمت على الفور فاقد الأمل ، وترددت

خشخشة لا تكاد تسمع ، وكأن صرصور الخشب بدأ يزاول عمله في جذع تحت طبقة اللحاء . وخمن سوشنين من سياج الحواجز وخشب المذاود والجدران المقروضة ان العجل هو الذى يقرض خشب الحظيرة المتحلل . وكان ثمة عجل اسقط السياج وخرج من الحوزة الغارقة فى الوحل فرقد على اللوحة التى وان كانت موحلة الا انها مرتفعة قليلا ولم تغص بعد فى الوحل ، بينما وقف عبر السياج عجل آخر مدليا رأسه وراح يمص أو يمضغ اذن العجل الراقد وقد تدلى من فمه خيط لعابى طويل .

سار سوشنين عبر ممر زلق كدّس على جانبيه الروث كما التراب على ساتر الخندق ، وعبره الى ورشة العلف ، وفتح الباب واخرج من هناك امرأتين محبوستين وقد تملكهما رعب مميت . وأعولت المرأتان بصوت واحد ، واندفعتا تتسابقان فى الخروج من الحظيرة عبر الباب المواجه لهما فى الجانب المقابل الذى كان فينكا فومين راقدا بجواره فى اطمئنان فوق حمل الدريس الطازج الذى جروه صباح اليوم من محصدة الغابة على زحافة .

جذبه سوشنين فأنزله من فوق الحمل ، وهزه بغلظة قابضا على فتحتى الصدرية القطنية . وظل فينكا فومين يحدق فيه طويلا ويطرف بعينيه ، ويمسح فمه بيده وهو لا يعى اين هو ولا ما يحدث له .

— من ؟ ماذا تريد ؟

— انا أعرف ما أريد . انت ، ماذا تفعل ؟

— انا اسألك ماذا تريد ؟

— هيا بنا ، خلف البوابة تشرح لك النساء ماذا ومن .

— أنت سائح ، وغد ! — زأر فينكا فومين وجذب من الدريس مذراة مكسورة الذراع . كانت مذراة قديمة صدئة ،



باصبعين تغطيهما طبقة كثيفة من الروث ، وبينها بقايا اصبعين أخريين مكسورتين صدئتين مثل اسنان عجوز مريضة . وآه من هذا الريف الذى بقى بلا رجال ! كل ما فيه لا يعيش بل يقضى آخر ايامه . . . » .

وخطا فينكا مهاجما سوشنين وقد أمسك بالمذراة أمامه كالجندى الممسك بالبندقية وصاح :

— سأطعنك يا وغد ! . .

— ارم المذراة يا حقير ! — وتقدم سوشنين نحو فينكا فومين ، الأمر الذى اوقع الاخير فى حيرة شديدة .

— لا تقترب يا وغد ، سأطعنك ! لا تقترب ! — صرخ فينكا فومين فى اضطراب وهو يتراجع نحو بوابة الحظيرة الخلفية الموارِبة لكى يلقى المذراة ويهرب من شق البوابة ويختفى فى الحقول والغابات المعروفة لديه .

ولكن سوشنين قطع عليه طريق التقهقر محاصرا اياه فى الركن . وكان فينكا فومين منهوك القوى سقيم البدن والوجه ، بتجاعيد مبكرة عميقة واكياس منتفخة تحت عينيه تشبه الفئران الوليدة العارية ، وفى زاويتى شفتيه المشققتين جف الزبد مسحوقا أصفر . شخص مريض ، ضائع ، بائس . ولكنه دنىء ، دنىء شرير ، يمكنك أن تتوقع منه أى شىء .

وزأر سوشنين :

— ارم المذراة !

وقفز نحو فينكا فومين مادا يده للامساك به .

ورفع فينكا المحصور فى الركن المذراة وكأنما يحتمى بها . بهنا كان سوشنين سيلقى به أرضا بضربة فى ساقه وينتزع منه المذراة ، ويلكمه مرة أو مرتين نيابة عن جميع النساء اليهم

والمضطهدين ، ثم يأخذه الى بوتشينوك ليركب الباص ، ولكن لما كان الروث السائل انساب كالقيح بجوار البوابة وقد غطته نثارة القش فان سوشنين ، المتعود على الحذاء الميرى الراسخ المتين والساقين الصلبتين المرنتين ، زلت قدمه العرجاء فى الحذاء المدنى المدبب فسقط على يده بحركة غير موفقة ، وهنا تحركت على الفور طبيعة المجرم الدنيئة والتى تجعله ينهال على الساقط ارضا . وطعنه فينكا فومين بالمذراة طعنة قصيرة . وتنحى سوشنين بحركة خاطفة عن طعنة المذراة فى الصدر ، ولكن المذراة ادركته مع ذلك ، فانغرز اصبعها الصدئ فى اللحم الحى عند الكتف ، تحت المفصل بخشخشة وكأنما عن غير رغبة . وضغط فينكا فومين على المذراة ، مكشرا عن اسنانه كابن آوى ، غارزا سوشنين فى الارضية البنية المهترئة .

هب سوشنين ناهضا وأمسك بذراع المذراة المكسورة محاولا انتزاعها ، ولكن الألم شلّه .

— قلت لك لا تقترب يا وغد ! قلت لـــك لا تقترب . . . — انكمش فينكا فومين المرعوب فى الركن ، وهو يمسح بساعده وجهه وشفتيه التى غطاها العرق على الفور . وتفتت الزبد الجاف وسقط قشورا من شفتيه المتشققتين انحشرت فى شعر لحيته النابت القليل .

وصاح سوشنين فى يأس :

— انزع المذراة يا وغد !

حدث كل شيء بعد ذلك وكأنما بعيدا عن وعيه المكبوح . جذب فينكا فومين المذراة عدة جذبات ضعيفة شقت رأس



سوشنين ألما كالبرق ، وانتزعها فرأى ليونيد سوشنين على اصبعها الصدئ كتلا دموية ، كتلا قذرة على اصبع المذراة القذر وكأنما غطى بالصلصال ، فترنح وسد بيده الجرح النازف دما ، واستند بجبينه على الحائط الذى كانت تفوح منه هو الآخر رائحة البول والعلف المثير للغثيان . وبعد ان استرد انفاسه قليلا اخرج منديلا من جيبه ، ودسه تحت الفانلة وشد على المنديل حمالة الفانلة الداخلية . وتشبع المنديل بالدم على الفور فانزلق من كتفه الى بطنه .

— هات منديلا ! — ومد سوشنين يده دون ان ينظر الى فينكا فومين الذى دس فيها رقعة رمادية مستهلكة . — ماذا فعلت أيها الحقير ! — وأنّ سوشنين وألقى بالخرقة القذرة فى سحنة فينكا الباكية المتملقة ، واندفع الى الخارج ضاغطا على الجرح بيده .

رأت النسوة العاملات فى الحظيرة سوشنين وفينكا فومين يركضان بعيدا عن الحظيرة فاعتقدن ان المجرم يطارد الرجل ليذبحه فأعولن . كان على سوشنين ان يعود الى الحظيرة ليرتدى السترة والمعطف ويركض الى بوليفكا ويطلب من ماركيل تيخونوفتش ان يسرّج الحصان . ولكن الحصان قد يكون فى الغابة أو فى مخازن العلف أو ربما يرعى فى الحقل المحصود ، وعندئذ يأخذ أهل بوليفكا جميعا فى الندب والنواح والجرى وراء الحصان ، وتسريجه ويفقدون القوس أو النير ، ويسقط من العربة مسمار ، وتنفلت العجلة من محورها وتقع فى الوحل ، وتعرز العربة عند طرف القرية أو وسط الطريق الريفى . ويصاب ماركيل تيخونوفتش بـ«ضيق فى صدره» ، وكالعادة تروح حماته تخطب باحثة عن الاعداء ، ويلقون بالفزع فى قلب سفيتا ، ولا قدر الله ، يأخذونها معهم . . .

لم يكن المنديل وحده الذى انزلق من كتفه الى خصره بل والفانلة ايضا اذ تحولت الى كتلة دموية غليظة لزجة . وتشبعت الفانلة الخارجية بالدم الذى كان يلهب الفخذ ويبقبق فى الحذاء الأيسر . وبدأت شفتا الجريح تجفان ، وظهر فى فمه طعم المعدن . وأهكذا بسرعة ؟! احوالى اذن ميئة . . . . .

وصاح سوشنين بصوت مبحوح متحشرج :

— ساعدنى !

واسرع فينكا فومين متخبطا فوضع كتفه تحت ابط سوشنين وألقى بذراع سوشنين على رقبته النحيلة ، فقد رأى اذن هذا الأبله فى السينما أو فى الصور كيف ينقلون الجرحى من ساحة القتال .

وأعول : — أوو— وه ، وقعت . . . وقعت ثانية ! الظاهر انه مكتوب عليّ السجن ولا مفر منه . هذا نصيبى التعيس ، انا الوغد . . . — وسال من فينكا فومين عرق الضعف . وفى خيوط العرق القذرة الضعيفة ارتعشت بقايا القش ، وعندما كانت تمس شفتيه كان يلعق هذا المزيج القذر ويشى ان يبصقه فيبتلع المرارة مواصلا العويل والندب .

دب الضعف فى ساقى سوشنين ، واصبح الضياء رماديا وراح يهتز ويتراقص ويسبح أمام عينيه ، وانتابه الغثيان من رائحة عرق فينكا القذر وعفونة الروث ومرارة الدريس ، واحس بالاختناق من الرائحة النفاذة الحادة لبول العجول أو البول البشرى . . . فقد أهلك فينكا المجرم كليتيه من شرب كل ما تقع عليه يداه بما فى ذلك الورنيش المخفف والبودرة المسيلة ، فهو يسير دائما فى سراويل مبتلة . لم تخف حدة الروائح ولم تتبخر فى الريح الباردة ، بل على العكس حاصرت سوشنين اكثر فأكثر ،



وتصاعدت فوقه وفيه كالدخان ، رافعة من اعماق صدره سيلا من القيء .

---

على باب مستوصف بوتشينوك تدلى قفل مخازن قديم . كان اليوم يوم أحد . ووقف الشرير والمجنى عليه متعانقين أمام الباب يلهثان ويحدقان فى القفل بيأس . وأجلس فينكا سوشنين على الدرج واسنده الى الحائط ، والقى عليه بحرص صدريته القطنية ذات الرائحة الكلابية .

— انا حالا . . انا حالا . . . سأجئ بها ، الوغدة ، من تحت الأرض ! سأنتزعها من تحت حارس الغابة اذا كان يقتنصها . . . حالا ، حالا . . .

لم يكن هناك من يقتنص الممرضة ، وهى أيضا لم تكن تقتنص أحدا ، فقد تقدم بها العمر . وكما ينبغى لامرأة متساوية فى الحقوق مع الرجل ، كانت تستمتع بيوم الأحد . . فى الغسيل والمسح والتنظيف . وكان النظام مستتبا لديها فى المركز الطبى ، وعندها الادوية والعقاقير الضرورية : صبغة اليود ، والاشرطة ، والقطن ، بل كانت لديها قارورة كحول لم تشرب . وهى نفسها كانت نظيفة ، مهندمة ، تستحق ان تكتب عنها نبذة فى الجريدة . نبذة مديح . سيكتب عنها بعد أن يشفى ! — كانت تلك آخر لمحة فكاهة ذابلة وردت فى ذلك اليوم على ذهن سوشنين أو قلبه الذى كان ميالا دائما الى السخرية — وفى الآونة الاخيرة الى السخرية من النفس — وذو النزعة الابداعية .

ضمدت الممرضة بخفة ومهارة جرح سوشنين ، ووأدت فيه على الفور نزوعه الى الاستخفاف ، والذى كان يحاول به كبت

الخوف فى نفسه ، وقد راوده أمل ضعيف بأن حالته ليست بتلك الخطورة التى تستدعى الذعر .

قالت الممرضة :

— أوه ، ما أشد اتساخ الجرح ! انه يقبق . . الدم يقبق . . . الغشاء الرئوى أصيب . من فعل بك هذا ؟ هل هو هذا السقط ؟ — وسددت نظرتها الى فينكا فومين الذى كان واقفا على عتبة المركز الطبى يسترد انفاسه ويدخن مخفيا السيجارة فى كمه — كعادة المساجين ، فقد أصبح سجينا دائما ! سجينا بالوظيفة ! — وقالت :

— تطعن الشرطى ! واثناء تأديته الواجب ! . . سوف تنال ما تستحق ! — وساعدت سوشنين على التمدد فوق الأريكة وغطته وهو يرتعش من الحمى بملاءة وفرشة وبمعطفها الخفيف الذى لم يعد موضة منذ زمن بعيد . . .

— ماذا ، أهو شرطى ؟ !

— وانت لم تكن تدرى ! — قالت الممرضة بنفور مغيظ وهى تربت بيدها على الجريح كما على طفل ، ضاغطة على الاغطية فوقه .

— من أين جاء ؟

— انه صهر آل تشاشين ، من بوليفكا .

فزار فينكا :

— آه ، الوغد ! ما الذى القى به فى توجوجيلينو ؟ اذا طلعت روحه . . . سيعدموننى . . .

— مثلك ينبغى اعدامه من زمان . اطلع دخن فى الخارج ايها الاجرب !

---



ردوا من مستشفى خايلوفسك بأنه ليس لديهم بنزين ، ثم ان اليوم أحد ، وعموما فهم ليسوا ملزمين بارسال سيارة الاسعاف الى الريف . قالوا : واذا كان ضروريا فانقلوا المريض بوسيلتكم .

تحدثت خايلوفسك مع ممرضة القرية بلهجة العاصمة المتغطرسة . فجذب سوشنين التليفون نحوه وخابر رئيس قسم شرطة الناحية اليكسى ديميدوفتش أخلوستين فى بيته وطلب منه المساعدة بالبنزين واصدار اوامره للاسعاف بنقله الى مستشفى المحافظة . فقد كان سوشنين يعرف ان اطباء خايلوفسك يحتفلون بيوم الأحد فى صيد السمك أو فى دار الراحة بنشاط بالغ ، وحالته لا تسمح بالانتظار الى يوم الاثنين ، كما ادرك من سلوك الممرضة .

— هل الجرح خطر يا ليونيد ؟

— يبدو كذلك يا اليكسى ديميدوفتش .

— سأنهض الجميع على اقدامهم !

هرع أخلوستين فى سيارة الاسعاف ، وعندما رأى فينكا فومين ارتجف غضبا :

— أنت بصقة ! بصقة ! زبالة انت ! لماذا جئت الى هذه الدنيا ؟ جئت لتقضى على الناس النافعين ! آه ايها السكارى ، سوف تقضون على الدولة ! . .

حملوا سوشنين الى صالون السيارة على النقالة . وغطت الممرضة الجريح بالبطانية التى جاءت بها من بيتها وجلست عند رأسه . وكانوا قد قرروا أن يحشروا فينكا فومين فى نفس السيارة لكى يسلموه فورا الى حجز التحقيق فى المحافظة .

ولكن فينكا توسل صائحا وهو يدفع بيديه باب السيارة المفتوح :

— ايها المواطن الرئيس ! ايها المواطن الرئيس ! سيخنقني في السكة ! انه يستطيع ! . . . فهو ليس في وعيه . . .

— الم أقل انه دنيء ! يرتعش هذا الجرو خوفا على حياته التافهة . حسنا يا ليونيد ! — ومسح أليكسى ديميدوفتش على صدر سوشنين بطريقة أبوية . — تجلّد يا ليونيا . — وباعد يديه كالشيوخ بصورة خرقاء تمثيلية . واذ أدرك ذلك عقد حاجبيه واستدار متجنبا الكلمات الفلسفية المألوفة التي لم يكن لها محل هنا .

وكانوا على وشك التحرك عندما اندفع نحوهم فجأة رجل على موتوسيكل يثير الوحل ، مرتديا نظارة و«أفرولا» مقوسا على الظهر ، وقفز من على الموتوسيكل قبل ان يتوقف ، واندفع الى داخل سيارة الاسعاف وهو يندب بصوت باشا سيلاكوفا :

— يا ليونيا ! ليونيد فيكيتيتيفتش ! ما هذا الذي جرى ؟ ! آه يا حقير ! آه يا حشرة ! سوف . . . — وهجمت على فينكا فومين وطرحته في الوحل وجلست فوقه وانهالت عليه لكما .

استطاع اليكسى ديميدوفتش بالكاد ان يخلص فينكا فومين ، وسحبه الى مجلس القرية مجعدا ملوثا بالأوحال ، ولوح بيده مشيرا لهم ان يرحلوا . واستمرت باشا سيلاكوفا تنقض على فينكا فومين من الخلف وتكيل له الركلات بحذائها الطويل الضخم . ومن الحذاء أو من مؤخرة الشرير تطايرت قطع من الطين والروث كما في لقطة سينمائية بالتصوير البطيء . وحاول فينكا فومين ان يستر مؤخرته بيديه كالصبي الذي يتلقى ضربات حزام من أبيه .

وقال سوشنين بأنين :

— هيا تحركوا اذن !



كان آخر ما تذكره سوشنين وهو بعد في وعيه منظر باشا سيلاكوفا وهي تركل فينكا فومين ، وانينه هو وقوله «هيا تحركوا اذن ! . . .» . انتشرت البرك والبرك الصغيرة على الطريق الزراعي وعلى سفوح المنحدرات التي اذابتها مياه الامطار الخريفية ، وفي الحفر تحت الوحل استقر ثلج زلق . وارتجت السيارة وتقافزت وتطايرت على هذا الطريق الخاوي المهجور . وغاص الجريح في غيبوبة ثقيلة . وتراءت له «عرسة» مهروسة . ففي فيسك ، واثناء المناوبة ، كان كثيرا ما يتردد على مطعم الشطائر القائم في وسط المدينة ولكن في حارة جانبية ولذلك كان رواده قليلين . كانت تعمل هنا فتيات مرحات متوردات الخدود ، في قلنسوات منفوشة من الشاش الأبيض . لم يكنّ يبخلن على سوشنين بالسمن ، ويحمرن له الشطائر على المقلاة لدرجة التقدد ، مثلما كانت تفعل الخالة لينا .

وذات مرة كان رجال الشرطة مارين بسيارتهم في تلك الحارة الخضراء فاذا بهم يرون عرسة ضخمة ، كبيرة البطن ذات شوارب كشوارب الخيّال ، تسير عبر الحارة من منزل قديم متجهة الى مطعم الشطائر . وزاد السائق من سرعة السيارة ، واطلقت العرسة زعقة الموت . وحين حلّ المساء لم يتبق منها سوى قطعة جلد ، فقد نقر الغربان ، منظفو المدينة ، تلك الجيفة . ومنذ ذلك اليوم لم تطأ قدم سوشنين مطعم الشطائر ، وما أن يتذكره حتى تتبدى له عرسة ضخمة بكرش ، فيقلب الغثيان امعاءه . وفي الطريق من بوتشينوك تقلبت امعاؤه حتى اخذت التقلصات تجتاح قلبه . وبسبب نوبات القيء بقبق الدم من الجرح . وضعف الجريح اثناء الطريق الى درجة انه غرق حتى الرقبة في الروث السائل الاصفر ، واستطاع بجهد لم يعد جهده ان يرفع

رأسه ويمنع التيار السائل العفن من اجتياح فمه الملتهب المفتوح ، ولكنه لم يستطع ان يفعل شيئا حيال العرسة ، فقد ظلت تزعق وتزعق تحته ، وبصوت قوى خاصة عند المنعطفات ، وتلد العرسات الصغيرة العارية المبللة الواحدة تلو الاخرى .

وعندما بلغت السيارة الطريق المسفلت كفت العرسة عن الزعيق ، لكن الرأس انفصل عن الجسد ، وقرقع على الارضية الحديدية وهو يتدحرج من ركن لركن . وها هو الرأس يئز تحت العجلات ، وان كان ذلك دون زعيق ، وبقي على الاسفلت المتشقق خاليا من الدم وبعينين حيتين مفتوحتين . وعلى جانبي الطريق ، وفوق قمم الشوح السوداء جاست غربان سود راحت تنظف مناقيرها بحكها في الاغصان ، وتهم بنقر الرأس . وسوف تبدأ بنقر العينين ، العينين الرماديتي الزرقة الحيويتين ، عيني الروسي ابن الشمال المعروفتين لسوشنين منذ الطفولة .

— رأسي ! . . نسيتم رأسي ! . . رأســـســي ! ارفعوــــوـــه !

خيل اليه انه يصرخ بصوت عال يبلغ حتى اسماع الغربان التي ستجفل من الصرخة وتطير مبتعدة دون ان تمس الرأس . بيد انه كان فقط يحرك بوهن شفتيه الممزقتين عضا . ولسعه شيء ، وكوى فمه واخترق منخاريه وصدمه في المكان الذي ينبغي ان يكون الرأس فيه ، فأتاح له ذلك استراحة ولو قصيرة اذ ادرك انه على قيد الحياة ، وان رأسه سليم ، في مكانه .

ولكن بدلا من الرأس ها هو مصباح الاشارة الأزرق الدوّار في سيارة الشرطة يومض ، بيد انه لا يومض بضوء ازرق أو أحمر وانما لسبب ما بضوء أصفر كالروث ، ومن جديد راح الجريح يرفع وجهه ليمنع السائل الروثي من اغراق فمه ومنخاريه ، لكن



الموجة الصفراء زحفت عليه ببطء واصرار كما ينز الصمغ من جذع شجرة مجتثة . التصقت شفتا سوشنين وتصمغت احشاؤه ، وضغط شيء ما على زوره فخنقه ، ومن قلة التنفس اطبقت عليه التقلصات ولوته ليا ، ممزقة عروقه .

ألقت الممرضة الريفية بجسمها غير الثقيل على جسد سوشنين ، ولم تستطع ان تكبح جماح انتفاضات الجسد الجريح فتفجرت بالبكاء :

— يا عزيزي . . يا عزيزي . . — راحت تستعطفه وتتوسل اليه وهي تصرخ . — لا تتقلب ، لا تتقلب ! اهدأ ! الدم . . سيزداد النزيف . يا عزيزي . . يا عزيزي . . حالا ، قريبا ، المدينة قريبة . يا عزيزي ، يا عزيزي . . ما اكثر ما لديك من قوة ! سوف تعيش ، سوف تعيش . .

## الفصل السابع

استيقظ سوشنين بعد يوم من العملية التي اجراها له جريشوخا بريبتياجين الذي لا بـديـل لـه ايـــاه ، لكنه عمل هذه المرة مع فريق من المساعديـــن ، استيقظ في نفس الغرفة التي وضعوه فيها عندما اصيبت ساقه . كان نائما على نفس السرير ، بجوار النافذة . وكان يعلم ان وراء النافذة غصنا جافا لشجرة حور عجوز ، وقد علق فيه ، او بالأحرى ثبت فيه تثبيتا «كوز» توصيلة أسلاك الاذاعة . وبسبب هذا «الكوز» والخطاف الحديدي الصدئ المحزز الذي دقه الكهربائيون المرحون هنا ، ربما في سنوات الخطة الخمسية الأولى ، جف غصن

الحور . واراد سوشنين ، المربوط بالأسلاك والمحاط بالقوارير ان يتحرك ، دون جدوى ، ليرى الحورة المعروفة والغصن المعروف الهش كعظمة و«الكوز» الناصع البياض ، الملتحم بجسم الشجرة .

من ملمس اليدين ، ورائحة الشعر الذى كان يلامس وجهه ويلتصق احيانا بفمه ، ثم بعد ذلك عن طريق عينيه ، عبر الضوء المتأرجح الزاحف ضبابا ، عرف ليونيد ليركا . كانت تسقيه بالملعقة . ومن بعيد تناهى اليه صوت . كان يعلن : المريض فتح عينيه . ولكى يتأكد من انه فتحهما حقا ويستطيع ان يفتحهما بذل ليونيد جهدا داخليا شاقا ، وركز قواه فى توتر بالغ ، وحشد فى نقطة واحدة كل ما كان فيه قادرا على السمع والاحساس والحياة . . فرأى الحورة خلف النافذة والغصن الوحيد الجاف وعليه «الكوز» الناصع البياض . كأنما يد ترتدى قفازا مهترئا امتدت اليه بقطعة سكر كبيرة ، ملساء من كل جانب ، بيضاء كالثلج ، حلوة ، بهيجة كعيد . كانت ريح الخريف تهز وتنزع بقايا اللحاء عن الغصن الذاوى ، ولكن الى اعلى قليلا كانت الحياة لا تزال تدب فى نثار من الاوراق المتجمدة التى لم تلحق ان تذبل وتسقط على الأرض . وثمة طائر صغير — هو القرقف او الحسون ، ولكن الأخير يسمّن بدنه فى الخريف بنبات الارقطيون ، اذن فهذا قرقف — كان يجمع الحشرات التى اختبأت تحت اللحاء وفى الاوراق استعدادا للشتاء ، ويفتش على مهل فى الجذع وفى الغصون ، وعندما ينقر عود الورقة تهتز هذه وتنفصل ، متجمدة ثقيلة ، فتهوى على الأرض دون تحليق ، برنين معدنى يجفل منه الطائر فيفر مذعورا الى اعلى أو جانبا وهو يتابع الورقة بنظرة ثاقبة . وبعد ذلك يهدأ ويعود الى التنقيب عن طعامه .



«وهكذا طول الحياة ! بحثا عن الطعام ، مع الهموم وفى انتظار الربيع . يا للروعة والسحر ! . .»

كف الطائر عن التنقيب عندما أحس بنظرة الانسان اليه ، وامال رأسه فى دلال بشدقيه المنتفخين الطفوليين الاصفرين كالليمون ، ونظر اليه عبر الزجاج وعاد على الفور الى عمله باطمئنان مدركا انه لا ضرر عليه مطلقا من هذا الانسان العاجز .

— ط . . طا . . طا . . . ئر . . . .

تمتم ليونيد بصوت لا يكاد يسمع وبكى وقد ادرك انه يرى طائرا حيا ، وان الطائر يراه . حيا .

بعد يوم ثان سأل دون ان يفتح عينيه :

— اين أنا ؟

ووصله صوت ليركا عبر اذنيه المسدودتين ، عبر الطبلتين المشدودتين بقوة ، وهو لا يزال قادما من بعيد :

— حيث كنت ، تهزم الشر وتقر الخير .

طرف بعينيه والتفت . رأى خيوطا غليظة تمتد مباشرة من زوجته ، من ليركا ، اليه ، الى الزوج ! انهما مشدودان برباط محكم الى الأبد .

وبدأت روح الفكاهة تعود اليه . التندر بالأسرة ! هذا هو الموضوع الاكثر تعرضا للتندر اليوم . وعبر الانابيب الشفافة تقاطر شىء صاف وانساب عقدا من الفقاقيع المستديرة بينما مدت الاسلاك مخيفة المنظر ، وكأنها عروق فصلوها من جسد مبث ، ولكن الكرات فى الأنابيب الشفافة تدحرجت على عجل ويفرح وكأنها العصير من شجرة بتولا فى الربيع . المؤسف انه

لا يسمع لها صوتا . ومع ذلك لا بأس ، فهذا حسن ، هكذا ببساطة حسن . حسن ان ثمة شيئا يتحرك ويتعجل ، وينشط . ولكن ما الحكاية . . أهو ما يزال فى المستشفى منذ أن خاطوا له ساقه ام ماذا ؟ أم ان احدا شوهه مرة أخرى ؟

آه ، توجوجيلينو . حظيرة العجول . النساء . فينكا فومين . . . «ما هذا الذى يجرى له ؟ دائما يتعرض للضرب ، دائما يتعرض للتشويه . . . فمتى سينتهى كل ذلك ؟» . احس بالرثاء لنفسه فمال الى البكاء . اراد ان يدير وجهه لكنه لم يستطع ، فالأسلاك تحيط به وتمسك به ، ولا حول لديه . وعندما رأت ليركا ، التى لم تنم منذ يومين ، الدموع على وجه زوجها ، غطت هى ايضا وجهها بيدها ، ولكن الدموع تسربت من بين اصابعها .

— سوف تفقد فى يوم ما رأسك المتهور ! — كانت ليركا توبخه ، فما ألذّ هذا التوبيخ . كان مستعدا أن يسمع منها بلا نهاية . وعموما كان مستعدا ان يسمع كل شىء وكل الناس ، وان ينظر الى الجميع دوما ، فيالها من سعادة .

ومضت ليركا تقول :

— فى قرية نسيها الله والرؤساء والناس قبضت على مجرم ! عندنا دائما مكان للبطولة ، نعم ؟ كدت تنفق !

رفع يده بصعوبة وأنزلها على ركبة ليركا ، وتذكر هذه الركبة القوية المستديرة التى داعبتها الشمس هناك ، فى المسكن الجماعى لعمال مؤسسة قطع الاشجار ، فى ذلك الزمن البعيد ، فى حياة اخرى وعصر آخر . واسترد انفاسه وعثر على اصابعها ، فحاول الضغط عليها .

— هناك ، فى ذلك الركن ايتها الحمقاء . . أنا وأنت . .



فقالت ليركا مكملة :

— التقينا .

— نعم !

— ثم ماذا ؟ «التقينا . . كل ما كان غافيا فى قلبى الخابى استفاق» * ؟ . . .

— نعم ، استفاق !

— عفارم عليك ! الشرطى الجنائى القاسى يميل الى الملاطفات . يندفع الى العواطف . — واستدارت ليركا مولية وجهها الى النافذة ومسحت الدموع من عينيها . — حقا ، انه طائر ! — قالت مندهشة . — يا لك من حاد البصر ، يا لك من صقر ! يا لك من قوى الملاحظة ! آه لو تحصل على قليل من العقل الى ذلك ، اذن لأصبحت رجلا لا مثيل لك !

— ولكنى ذكى اكثر من اللازم ، وبسبب ذكائى اعانى فى حياتى . العقل كبير ، والسروال قصير .

— كفاك كذبا . الأذكياء لا يطعنونهم بالمذارى الصدئة . الأذكياء ، خاصة اذا كانوا كتّابا ، يطلقون عليهم النار من المسدسات .

— لو كنت فى البدلة الرسمية . . . هو ظننى من السياح المثقفين . . . الذين يطوفون بالقرى ويجمعون الايقونـــات والمغازل . . . — والتقط انفاسه ، فرغم انه لم يكن ثمة ما يستدعى العجلة فقد استبدت به الرغبة فى الثرثرة ، فمنذ فترة طويلة لم يثرثر مع زوجته . — المثقفون ماذا يكونون ؟ ينبغى اما ذبحهم واما حلق رؤوسهم . . .

* بيت من قصيدة للشاعر الروسى فيودور توتشيف (١٨٠٣ — ١٨٧٣) . المعرب .

— لا يجوز لك ان تكثر من المزاح . المزاح يستهلك قدرات ذهنية وبدنية . وانت ليس لديك لا هذا ولا ذاك . . .

— كم أرغب في الأكل يا عجوزي !

— أوه ، هذا حديث آخر !

ونجا ! في هذه المرة أيضا نجا ! وفي اليوم الثالث أو الرابع جاءت طاهية المستشفى الحمراء الوجنتين ، التي بدأت تميل الى السمنة ، جاءت «لتدهش» لقريبها : فقد نقلوا دمها الى سوشنين لأن فصيلتها مناسبة لفصيلته .

وقفت الفتاة على مبعدة وحيت باللغة الاوكرانية :

— «دمتم بصحة ! كيف الصحة الآن ايها الرفيق الملازم ؟

وبذل سوشنين جهدا هائلا لكي يمنع نفسه من البكاء مرة أخرى ، ودعا الفتاة اليه قائلا :

— اقتربي ، اقتربي ! — وانخلع قلب سوشنين من موضعه . — «نعم ، من اجل أمثالها . . .» — صحتي . . . تتحسن . — وأمسك بيد الطاهية وقبّل اصابعها المغسولة حتى العروق والمدبوغة بالخل والنشاء والتي تفوح منها رائحة البصل وروائح اخرى حبيبة ، روائح الخالة لينا والخالة جرانيا . واستجمع بعض قواه فقبل الصبية في خدها ، خدها الممتلئ المشدود المتورد ، والملوّح قليلا ، الأمر الذي اربكها تماما . ولكي يزيل عنها الحرج اشار الى ليركا التي كانت تبتسم من خلال الدموع وقال : — هذه زوجتي ! زوجة بدون أفكار بالية . وهي لا تغار لأنها عصرية . . .

شهر ونصف في المستشفى ، ثم شهر اجازة مرضية ،



وأحالوه الى مجموعة المعاقين لمدة سنة مؤقتا . فماذا بعد ذلك ؟ بالطبع سيجدون لـه في ركن مـا عملا غير خطـر فقسم المدينة كبير والادارة الاقـليمية للشرطة مؤسسـة متفرعة ، وهناك يعيش في هدوء حتى يحال الى التقاعد بحكم السن . ولكن ما حاجته الى هذا العمل ؟ لقد قال لافريا القوزاقي : — ان من حارب في الجبهة في وحدات الاستطلاع ، يتكيف بصعوبة في مكان آخر وفي وحدات أخرى . ومن عمل في المباحث الجنائية في قسم العمليات يتقبل الهدوء والاستقرار بصعوبة .

تقرر اجراء المحاكمة الاستعراضية لفينكا فومين في قرية توجوجيلينو . وفتحوا نادي توجوجيلينو المغلق منذ زمن بعيد ، ولكنه كان شديد البرودة وتهدمت مدافئه الى درجة قرروا معها نقل المحاكمة الى مقر المجلس القروي في بوتشينوك ، المركز الرئيس للمزرعة التعاونية . وكانت دار الثقافة مغلقة ، اذ بدأوا ترميمها في الصيف ، ولكن عمال الترميم المرتزقة القادمين من الكاربات تأخروا في العمل .

والى ان جاءوا بالمتهم ونقلوه من هنا الى هناك كان هو قد تمكن من ارتداء ثياب نظيفة ومن تناول الطعام بل وابتلاع جرعة كبيرة من الشراب . كانت صديقة فينكا فومين ، آرينا تيموفييفنا تاريتيشوفا ، التي غفرت له كل الاساءات ، تجاهد كي تكون قريبة من «حبيب الروح» ، وتدس له خفية في جيوبه السجائر والكبريت والحلوى ذات الاغطية الورقية المدعوكة .

جاء الى المحاكمة حشد لا حصر له ! جاءوا من جميع

القرى المجاورة ، لابسين حلل العيد ، على متن الدراجات والموتوسيكلات ، وصدحت انغام الاكورديون ، وظهر السكارى . كان الناس الذين يعيشون بملل ورتابة فى القرى شبه الخالية يفرحون لأى مناسبة تجمعهم لكى يتكلموا ويسأل بعضهم بعضا عن أمور الحياة والأحوال . واذ أدرك فينكا فومين انه هو السبب فى هذا الانفعال الشعبى فقد تاه خيلاء ، وراح يروى للنساء شيئا ما وهو يلوح بيديه ويسرف فى الحركات ، وانتهز فرصة فاقترب من المجنى عليه ، وربت على كتفه الجريح وسأله عن صحته . وكان فينكا فومين قد علم من آرينا ان الرجل كاد يموت ، وانه احيل الى المعاش ، فأطلق ضحكة قصيرة وهو يحك قفاه قائلا انه كان من الافضل لو ان سوشنين هو الذى طعنه بالمذراة ، اذن لقبض الرفيق فومين المعاش وعاش مستمتعا على هواه ، ولاستمر سوشنين فى القبض على المجرمين .

ثم مال فينكا فومين الى الجدية وقال فى الختام :

— على العموم سامحنى ! لم اكن اعرف انك من نواحينا ، انا ، الوغد ، احافظ على رجال نواحينا . فهم قليلون .

وخلال المحاكمة كان فينكا فومين عملى المسلك ، يحرص أشد الحرص على ان تمضى المحاكمة وفق جميع الاصول ، ويصحح القاضى والمحلفين والمدعى والمحامى اذا ما صدرت عنهم مخالفة اجرائية او خرجوا عن أصول الاحكام والقوانين . وعندما أدرك الجمهور ان فينكا فومين مستوعب عمليا أمور القضاء المعقدة اخذ يصغى اليه باحترام . وقالت النساء فيما بينهن انه لا بد يملك رأسا ذكيا ما دام قد استوعب هذا العلم الصعب ، ولكنه رأس كان من نصيب أحمق .

سارت المحاكمة طويلا وتشعبت . وتضاربت شهادات



النساء ، بعضهن بسبب غبائهن ، والبعض الآخر بتحريض من آرينا حتى يخفف الحكم على فينكا فومين . وانتشرت بالفعل شائعة بأنهم سيحكمون عليه بثلاث سنوات ويرسلونه الى «الكيمياء» ، لأن هناك نقصا فى كوادر العمل فى كل مكان .

ولكن سوشنين كان يعلم بأنهم سيحكمون على فينكا فومين بعقوبة كبيرة ، لأن هذه هى السابقة الثالثة له ، كما انه جمع عددا من المواد ، كل منها اقسى من سابقتها . وحكموا عليه بعشر سنوات سجن مشدد . وعلى الفور ثاب فينكا فومين الى رشده . وراح يمسح فمه بكمه ، وارتعش القميص على ظهره ارتعاشا خفيفا . وأعولت النساء بصوت واحد . وعندما اعطيت الكلمة الأخيرة للمتهم اشاح بيده بحركة ضعيفة . ودفعت آرينا تارينتشوفا الحارس ، وارتمت معولة على عنق فينكا فومين . وهدر عربيد ثمل ليس من هذه النواحى : «امتحان غلط ! تلزيقة ! يرمى على الاكاديمية حتة بعشرة ؟ علشان ايه ؟ جرح كلب صيد ؟ دول اكثر من الهم على القلب . امتحان غلط ! انا عارف لما تسيّح دم تاخد كم . اعمل استئناف يا أخينا . وان ما نفعش — رش ! ..»

خلص ليونيد نفسه من حشرة المجلس القروى ومضى الى شاطىء النهر ، الى غيضة الصنوبر القليلة الاشجار ، ومن هناك رأى كيف اخذوا فينكا فومين . استطاعت النساء العطوفات فى زحمة الرحيل ان «ينعشن» بالفودكا المحكوم عليه أما هو فراح يعانق آرينا تارينتشوفا الغارقة فى الدموع والمستسلمة ، وصرخ فينكا فومين فى الآفاق الريفية مهددا بقبضته العظمية :

ـــ انتظربنى . سوف اعود ، كيدا فى كل الشياطين !»
انتظرونى كلكم ! سأرى البعض ، انا الوغد ، كيف تتكسر القرون ! انا الوغد ، سأعلمكم حب الحرية . . .

تغدى ليونيد عند باشا سيلاكوفا ، وسافر الى خايلوفسك فى عربة مارة دون ان يعرج على حميه وحماته ، ومن هناك استقل قطارا شبه خاو ، ناعسا ، مر به على الأماكن المعروفة ذات المستنقعات ، وجلس هو الى النافذة يتطلع الى الحقول المعروفة له منذ زمن بعيد ، الحقول الآمنة التى سواها الشتاء ، والى القرى والضياع واكشاك السكة الحديدية ، والى الاشجار السوداء النادرة البارزة من المستنقعات البيضاء ، الى اشجار الحور العارية واشجار البتولا الزاهية ، تطلع الى ذلك وقد استسلم تماما لحزن عميق أصبح مستديما . كلا ، لم يكن يرثى لفينكا فومين ، بيد انه لم يحس فى الوقت نفسه بأى انتصار بله شعورا بالحقد . بدد فيه عمله فى الشرطة الاحساس بالشفقة على المجرمين ، تلك الشفقة الروسية الكونية ، غير المفهومة حتى النهاية وغير المفسرة ، والتى تحافظ فى بدن الانسان الروسى الحى الى ابد الآبدين على الظمأ الذى لا يروى الى العطف والسعى الى الخير ، وحيث يختفى فى ذات البدن ، فى الروح «المريضة» ، فى احدى زواياها المظلمة ، الشر المختلف المعانى ، السريع التهيج ، الاعمى الغضب .

---

* استشهاد محرف بقصيدة شهيرة للشاعر السوفييتى قسطنطين سيمونوف . **المعرب** .



. . . ثمة شاب ، أنهى مؤخرا المدرسة المهنية الفنية ، اقتحم وهو سكران المسكن الجماعى الحريمى لعاملات مصنع الكتان ، لكن الفرسان «الكيميائيين» الذين كانوا ضيوفا هناك لم يسمحوا لهذا الغر بالدخول . ونشب عراك ، وحطموا للشاب سحنته وأرسلوه الى البيت لينام . اما هو فقرر ، انتقاما ، أن يقتل أول من يلقاه . وكانت اول من لقيه امرأة شابة ، حسناء بارعة الجمال ، وحامل فى الشهر السادس ، على وشك ان تتخرج بتفوق من جامعة موسكو ، وقد جاءت فى العطلة الى فيسك لزيارة زوجها . وألقى بها الشاب عند أسفل الجسر الترابى للخط الحديدى ، وظل طويلا يحطم رأسها بحجر فى اصرار وعناد . وعندما طرحها ارضا أسفل الجسر وقفز فى اثرها ، ادركت فى ساعتها انه سيقتلها فتوسلت اليه : «لا تقتلنى ! أنا ما زلت شابة وسيكون لدى طفل قريبا . . . .» فما زاده ذلك إلا ضراوة .

ومن السجن أرسل ذلك الشقى رسالة واحدة لا غير . . . شكوى الى نيابة المحافظة من التغذية السيئة . وفى الكلمة الأخيرة له اثناء محاكمته دمدم : «على كل حال كنت سأقتل احدا ما . فهل الذنب ذنبى فى اننى صادفت تلك المرأة الجميلة الحسنة ؟ . . .»

. . . وثمة ماما وبابا . . من هواة الكتب ، ليسا صغيرين وليسا كبيرين ، تجاوزا الثلاثين ، وولد لهما ثلاثة ابناء ، وكانا يطعمانهم بصورة سيئة ولا يهتمان برعايتهم . وفجأة ظهر طفل رابع . وكان الوالدان يحبان بعضهما حبا ملتهبا ، والاطفال الثلاثة يعرقلونهما ، فما بالك بالرابع . فراحا يتركان الطفل وحده ، وكان طفلا كثير الحيوية فأخذ يبكى ويصرخ ليل نهار ، ثم كف عن الصراخ واكتفى بالصرير والنعيق . ولم تطق الجارة

فى المسكن صبرا فعزمت على اطعامه عصيدة ، ودلفت عبر النافذة ، ولكنها لم تجد من تطعمه ، لأن الديدان كانت تلتهم ما تبقى من الطفل . ولم يختف الوالدان فى مكان ما مظلم تحت السقف ، بل فى قاعة المطالعة بمكتبة المحافظة التى تحمل اسم دوستويفسكى ، اسم ذلك الانسانى العظيم الذى اعلن ، ولم يعلن فحسب بل صرخ بصوت غضوب على مسمع العالم اجمع ، انه لا يقبل اى ثورة اذا كان سيعانى منها ولو طفل واحد . . .

وثمة واقعة اخرى . . . تشاجر أب وأم وتعاركا ، فهربت ماما من بابا ، وخرج بابا من البيت وأغرق فى الشراب . ألا فليسكر هذا الملعون وليغص بالشراب ، ولكن الوالدين نسيا فى البيت طفلا لم يبلغ الثالثة بعد . وعندما كسروا الباب بعد اسبوع وجدوا الطفل يقتات الاوساخ من بين شقوق خشب الأرضية ، وقد تعلم حتى صيد الصراصير التى كان يأكلها . واستطاعوا فى ملجأ الاطفال أن ينقذوا الطفل ، فانتصروا على الضعف الشديد والكساح والتخلف العقلى لديه ، ولكنهم لم يتمكنوا للآن من جعله ينسى حركات الخطف ، فهو لا يزال يصطاد اشياء ما . . .

قد يختلف العيش ويتعدد ، ما بين طيب وسيئ ، مستقر ومزعزع ، صالح وطالح . ها هو مثلا زميله فى مدرسة الشرطة فيديا ليبيدا ، عاش عيشة صالحة ، لم يصب بجرح واحد بل ولا حتى خدش . وفى خارج المدينة لديه دار صيفية من ثلاثة طوابق تقريبا ، وكلها من الخشب المحفور ، بل وفيها مدفأة مكسوة بالسيراميك ، الذى يشبه بلونه وشكله ذلك السيراميك الذى كسى به دون ذوق ولكن ببذخ مبنى ادارة شرطة المحافظة . وفى الدار الصيفية لفيديا كثير من معدات الموسيقى ،



وتليفزيون ملون وسيارة صغيرة ، رغم انها ماركة «زابوروجيتس» الا انها ملكه . كل شىء مثلما لدى الناس الطيبين ، وكل ذلك ليس مسروقا او مختلسا ، بل تم اقتناؤه براتب الشرطى الفقير . «عليك ان تعرف كيف تعيش !» — تعلن تماركا زوجة فيديا بتحد ، وهى تعمل نادلة بمطعم «سيفير» . حسن أن ليركا لم تلق بالا الى هذا الشعار لاهتمامها بنفسها وبالفن وبقراءة ماياكوفسكى ، او ربما بسبب «الخطوط الخلفية المضمونة» فى قرية بوليفكا . ولا يعنى هذا أنها لم تهتم بهذا الشعار تماما ، وانما لم تكن توليه الدرجة الأولى من الاهمية ، مثل تلك المرأة المسكينة التى رآها سوشنين منذ ثلاث سنوات فى قطار الضواحى وهو عائد من خايلوفسك الى مسقط رأسه فيسك . كانت المرأة جالسة قبالته وهى تبكى طوال الطريق تقريبا وقد مالت برأسها الى جدار العربة ، وتمسح دموعها بمنديل ، ثم عندما تبلل المنديل وتملّح راحت تمسحها بمنديل رأسها الجوخى الذى اخذت تشده تدريجيا من على رأسها الابيض الشعر الذى تلبد كالصوف وبدا مهملا من اثر تجعيد قديم .

«اعذرنى — قالت المرأة وقد لمحت نظرة سوشنين فسوّت قليلا شعرها وهندامها واستطردت : — لقد قضيت على زوجى . كان رجلا طيبا . . .» وغصت بالبكاء ثانية . ولكنها كانت ترغب فى الافضاء بما فى نفسها ، فروت له رواية ، هى على العموم بسيطة ، بسيطة الى حد يجعلك تعوى بعالى الصوت من بساطتها .

عاش فيما مضى زوج وزوجة ، من الموظفين السوفييت المتواضعين ، براتب متواضع وامكانيات متواضعة . كانا يعملان كثيرا ويحبان احدهما الآخر . وقبل ان يولد لهما ابناء ، ابنة

وابن ، كانا يذهبان الى السينما ، ويترددان على المسرح ، وفى الآحاد يذهبان الى النهر ، وفى الشتاء يتزحلقان على الزلاجات خارج المدينة . وكانا يقرآن الكتب ، رغم انهما لم يقرآ كثيرا ولم يقرآ «الكتب الحقيقية» ، ويشاهدان التليفزيون ، ويشجعان الهوكى .. كانا يعيشان فى وئام ، وشب الصغار وانقضى الوقت دون ان يلحظ بين الكد والمشاغل . ولكنها بدأت تلاحظ السيارات فى الفناء ، والدور الريفية خارج المدينة ، والسجاد والكريستال والمسجلات والملابس الموضة والأثاث الجميل فى بيوت الاصدقاء والمعارف . . .

وارادت هى ايضا ان يكون لديها كل ذلك فراحت تحرض زوجها على الانتقال الى وظيفة أخرى اكثر فائدة . ولكنه عاند . فهددته بالطلاق وبفراق الاولاد . وانتقل الزوج الى وظيفة اكثر فائدة ، واذ به يأتى الى البيت بنقود زيادة على المرتب بما قيمته تليفزيون ملون ! وفى المرة التالية جاء بما قيمته سجادة كاملة ، وفى المرة الثالثة . . . لم يعد الى البيت . وعليها الآن أن تنتظره خمس سنوات . . . .

وها قد زارته فى المعسكر اول مرة وحملت اليه أول زيارة . «انظرى ، انظرى الى زوجك المجرم ! متعى عينيك ! أنت التى اردت هذا ! . . .» . «وركعت على ركبتى امامه وقبلت يديه وساقيه ، لكنه تحول عنى وهو لا يستجيب لشىء ولا يبكى ولم يأخذ منى الزيارة . وأمرنى الا أظهر امام عينيه عاما على الأقل ، ولم يقل اخيرا الا انه يشفق على الأولاد . . . .»

نعم ، ما اشد تنوع الحياة ، وبالامكان ان تحياها بطرق عديدة . فمنذ فترة قريبة ، وكان سوشنين قد احيل الى التقاعد، انطلقت اشارة التحذير فى صندوق التوفير الجديد فى الحى



الجديد ، حيث لم يكن هناك نقود تقريبا . وتوجه فيديا ليبيدا ، الذى انتقل بهدوء ، رويدا رويدا ، من المباحث الجنائية الى شرطة المرور ومنها الى حراسة المنشآت ، توجه حسب الاشارة ، مع شرطى جديد قد تخرج لتوه من مدرسة الشرطة فى قيسك ، وكان لدى فيديا سلاح ، ومع ذلك فقد كان الشرطى الشاب ، غير المسلح ، هو الذى توجه الى الصندوق . وعندما وصل رأى رجلا يعبث بقفل الباب . وكما هى العادة بادره : «هويتك يا مواطن !» — «حالا» — اجابه ذلك الشخص وهو يمد يده فى عبه ويخرج منه مسدسا ويردى الشرطى بثلاث رصاصات مباشرة .

واذن فقد بقى فيديا ليبيدا حيا يرزق . وكتب فى المذكرة الايضاحية يقول ان الهدف لا يمثل اى خطورة ، ومن كان يدرى ان ذلك الأحمق المتشرد الذى قام بالسطو كان مسلحا ؟ وكان فيديا ليبيدا نقيبا فأصبح ملازما أول ، وهو اليوم يناوب فى القسم ، فقد نقلوه من العمل الهادئ ، من الحراسة ، الى العمل «غير الهادئ» ، ولكنه هنا ايضا سيعمل وفق مبدأ : «لا تلمسنا ولن نلمسك» . . . وربما مع الوقت وصل الى رتبة رائد أو عقيد . أما ذلك الشاب فقد حصل على رتبة الخلود : الفقيد ، ذلك لأنه على حد وصف فيديا ليبيدا الصارم السرى له كان غبيا . وكان سوشنين — وليس سوشنين وحده — يعرف مسبقا افكار وأعمال هؤلاء الاشخاص غير المعقدين وثقتهم فى الصحة المطلقة للخط الذى اختاروه فى الحياة . حسن ان فيديا ليبيدا قد ولد فى سنوات لا تلائم الحرب ، لأنه لو ذهب الى الجبهة لعرّض للرصاص اكثر من شاب انقاذا لنفسه .

وقال ليونيد مستشهدا بكلمات اليكسى اخلوستين : «تلك هى صورة الحياة» . أما المثقفة صيروكفاسوفا فتقول : «سي لا

في التى لا تخضع للتحليل النظرى بسهولة» . ويقول لافريا القوزاقى متنهدا : «امرأة سمينة هى الحياة ، أود لو احضنها . . هيهات !» . اما العم باشا فيقول : «فى الحياة دائما كما فى صيد السمك ، مرة تغمز ومرة لا تغمز . . .» ، ويبدو ان فلسفته هذه هى الأقرب الى الواقع ، والاهم من ذلك انها الاكثر فهما .

ذلك الرجل الشاذ الذى ارتكب جرائم جزاؤها مائة وعشرون عاما من السجن ، والذى شرع فى عبادة الله وتعلم القراءة والكتابة فى المدرسة المسائية للمعسكر المشدد الذى يقع هناك ، خلف تلك الغابة ، فى مستنقعات الخث . . . وباشا سيلاكوفا التى تطير بالموتوسيكل فى الآفاق الحبيبة باجرأ مما يفعل الشبان . . . وصهره ماركيل تيخونوفتش الذى لم يحضر المحاكمة حتى لا تتكدر نفسه . . . وحماته التى جاءت الى بوتشبنوك فى حلة الاعياد ، وفى جوارب نايلون ، مبدية بمظهرها كله انها تعتبرهم لا يحاكمون الشخص المقصود ولا بالصورة الواجبة . . . والناس الذين استقبلوا العمل القضائى وكأنه مسرحية تثير المعاناة . . . كل هؤلاء هم الحياة التى «مرة تغمز ومرة لا تغمز» ، الحياة المرحة ، الخالية ، القاسية الى حـــــد لا يعقل ، المعقدة غاية التعقيد والبسيطة ، مثلما ينطلق خلف نوافذ القطار من قرى ساكنة ، وغابات ، ومستنقعات ، وطيور ناعسة منسحبة ببطء الى الغابة ، وكلب يشد سلسلته بجوار كشك السكة الحديدية مستعدا لعض القطار .

وفى الوقت نفسه ينام فينكا فومين ، الذى ارهقته المحاكمة وغلبه التعب فى الطريق والخمر ، ينام خلف حاجز عربة سجن المدينة ولا يفكر فى شىء . وآباء وامهات اولئك الاطفال التعساء ، والشاب خريج المدرسة المهنية الذى قضى على الأم الصبية ،



وذلك المجرم الذى يقضى حكما اطول من عمره وذو اليد المبتورة بالرصاص اثناء هروبه والذى انكب على العبادة . . . كل هذا ، هناك خلف تلك القرى والغابات ، التى وجدت قبلهم وستبقى بعدهم . . كل هذا هو الحياة ، كل هذا هو الواقع يا رفيق سوشنين . فلتحاول اذن ان تستوعبه ، ولترتفع الى مستوى فهم حقيقة الحياة ، والا فلماذا تقدم على اعمال النجارة اذا كنت لا تجيد الامساك بالفأس ؟

ان الواقع ، ووجود كل ما هو كائن على وجه الارض ، والحقيقة . . هو الارض ، والسماء ، والغابات ، والمياه ، والفرحة ، والحزن ، والدموع ، والضحك ، وانت نفسك بساقيك المعوجتين ام المستقيمتين ، واطفالك . والحقيقة هى الحالة الاكثر طبيعية للانسان ، ولا يمكن اخراجها مع الصياح او الأنين او البكاء ، رغم ان الحقيقة تئن وتبكى وتزفر وتضحك وتموت وتولد فى كل صيحة ، فى كل أنة ، فى كل اغنية او بكـاء ، وحتى عندما تكذب على نفسك أو على الآخرين بصورة معهودة ، فذلك ايضا حقيقة ، وأعتى القتلة ، واللصوص والعرابيد ، والرئيس المتسلط ، والقائد الماكر الخبيث . . كل ذلك حقيقة ، وهى أحيانا حقيقة مزعجة ، منفرة . وعندما هتف الشاعر العظيم بأنين : «ليس فى الأرض حقيقة ، لا وليست فى الأعالى !» لم يكن يتصنع بل كان يتحدث عن العدالة العليا ، عن تلك الحقيقة التى يستوعبها الناس من خلال العذاب ويحاولون بلوغ قمتها فتزل اقدامهم ويسقطون محطمين مصائرهم ومصائر شعوب بأكملها ، ولكنهم ، مثل متسلقى الجبال ، يواصلون ويواصلون الزحف على الصخرة العمودية المهلكة . ان بلوغ الحقيقة هو الغاية الأسمى للحياة الانسانية ، وعلى الطريق الى بلوغها يُصنع الانسان ،

فهو لا يمكن الا ان يصنع ، تلك الحقيقة التي تصبح سلّمه ونجمه الهادى الى النور الأسمى والعقل الخلاق .

ولكن السجين المعاقب على محاولات الهرب وهو فى منتصف عمره بعدد تفوق عمرين والذى راح يصلى لانقاذ روحه ، هو مع ذلك حقيقة ميتة . وهى أفظع من الكذب .

تحامل سوشنين على نفسه رغم كل شىء واجبرها على النهوض من الفراش ، ودعك وجهه براحتيه امام المرآة ، فلسبب ما نبت شعر ذقنه بسرعة . كلا ، بل هو الظلام يلف المكان بقرب حوض الغسيل ، ام ان وجهه هو الذى اظلم بفعل الذكريات . هذا هو الاحتمال الاقرب الى الصواب . فقبل أن يتوجه الى دار النشر ، فى الصباح ، غير المبكر ، كحت ذقنه جيدا وتهندم . وبلل سوشنين المشط وقطّع به شعره الملبد ، ومسد رأسه وخرج ليأتى بالبريد . وتحت السلم كانت نفس القذارة السابقة . . اعقاب السجائر والزجاج المحطم واغطية الزجاجات المعدنية وعلب الكبريت والسجائر الفارغة ، ومزق الأوراق والقصدير ، ورؤوس السمك المملح المدعوكة وقطع الخبز . وعلى صحيفة مفروشة على الأرض جلس زائر مستمتعا بكل وسائل الراحة : بكوب مسروق من جهاز المياه الغازية ، وفى ورقة القصدير الممزقة بقايا جبن مسيّل ، وتفاحة مقضومة ، وزجاجة ضخمة داكنة جهمة من الخمر الرخيص بانتفاخات على ورقة الغلاف .

وتناهى من تحت السلم :

ــ يا صد ــ يـ . . ق . . . كم الساعة الآن ؟



ــ صباحا .

ــ صباحا ؟ ها هو صباح جديد قد حل ــ يجرى الزمن ، يجرى . . هكذا يصرف العمر . . .

صعد ليونيد السلم حاملا الصحف تصاحبه دندنة اغنية رومانس : «يا صباح الضباب يا صباح الشيب ، يا آفاق اللازورد يغطيك الظلام» . كان ضيف المنزل رقم سبعة سوداوى المزاج ، كان مغنيا سوداوى المزاج .

وجد فى طى الجريدة رسالة من ماركيل تيخونوفتش ففض المظروف على عجل :

«نهارك سعيد ! طاب وقتك يا ابنى العزيز ليونيا قلبى يتمزق قلقا على صحتك . لو كان لى اجنحة لطرت اليك ، ولكن يستحيل الطيران ، فالبقرة تمسك بى كما تمسك المرساة بالسفينة . والاعمال من حولى ما اكثرها ، والعجوز تخاف البقاء وحدها ليلا . فيما مضى لم تكن تخاف احدا ، لا شيطانا ولا قسا ولا زوجا ، ولكن أعصابها انهارت من كثرة معاركها ضد اعداء الاشتراكية وضدى . . . » .

ابتسم سوشنين وراح يقرأ الرسالة لمحا لكى يعيد قراءتها بتأن قبل النوم .

«وقد بلغنا انكما عدتما الى الانفصال عن بعضكما انت وزوجتك . وهذا أمر يحزننا غاية الحزن . فما العمل وما الحل ، لا أعرف . لكنى اقول لك شيئا ، علينا نحن الرجال ان نشفق عليهن ، هؤلاء الحمقاوات ، فماذا يفعلن بدوننا ؟ لست ادرى هل اخبرتك ام لا بأنى فى عام تسعة واربعين هجرت البيت ، اذ لم يعد فى وسعى ان احتمل . ولجأت الى امرأة طيبة ، من القرية المجاورة توجوجليتو ، وهى ارملة كنت اعرفها ونحن بعد

صغار . وأصلحت لها البيت ، ووضبت لها كل المتاع ونظفت البئر ، ورعيت الماشية ، وعشنا معا فى منتهى السعادة . اما زوجتى ، تولكا ، فخارت قواها تماما ، لأنها لا تجيد عمل شىء ، اللهم الا النباح والصياح . فكانت تأتى وتحطم زجاج النوافذ . وشعرت بالقلق ، لأن تولكا فى احوالها العادية لا تهتم بشئون المنزل ، فماذا يجرى هناك الآن اذا كانت فى مثل هذه النوبة العصبية . وهكذا عدت الى البيت اجرّ أقدامى كالأسير . وجدت كل شىء فى البيت مهملا ، والطعام غير مجهز ، والبقرة لم تحلب وخوارها يسمع فى القرية كلها ، والنحل لا يدعهم يخرجون من البيت . وجدت ليركا مصابة بداء الخنازير . فماذا افعل بقدرى ؟ هل اترك هؤلاء يهلكون ؟ وهكذا بقيت . عجوزى تدعونى بالضال ، وتقول انها باغتتنى فى موقع الاحداث . . .

اسمع ، هلا جربت ان تضرب ابنتى النطّاحة ؟ لا تضربها حتى الموت ، بل الى حد الاحساس والادراك . ولكن كيف يمكن ضربها ؟ انها امرأة . ولية . ام الطفل الحميم .

انتظر الجواب مع مرجوع الخطاب ! تعال الينا مع سفيتلانا ولو بعد رأس السنة ، ولو فى اى وقت . نحن دائما نسعد بمجيئكم . البقرة ستلد وسيكون لدينا لبن طازج ، وهذا مفيد للصحة . انا لا أريد ان اتدخل فى حياتكم ولا اسمح للعجوز ، ولكنى ارثى كثيرا لكم جميعا ، وها انت ذا الذى اصبت بالعاهة وانت تحمى النظام العام ، ترقد فى الشقة كما فى العرين ، لا طعام مطبوخ ولا فرن مشتعل ، فيسيل دمعى على لحيتى . . .»

فى عيد رأس السنة سيرتدى ماركيل تيخونوفتش حلته الزرقاء



ذات النياشين المثبتة فيها بمتانة ومنذ زمن بعيد ، ويشرب قليلا من «الميدوفوخا» وهو يبتسم ببشاشة وهناء ، ويشرع فى تقديمها للجيران ، ثم يعتمد بخده على يده ويغنى : «آه ، آه ، يا لى من فقيرة ، وثيابى . . . كم هى حقيرة ، وبهذه الثياب لن يقبلنى الخطّاب . . .» وستلوح يفستوليا سيرجييفنا بيدها نحوه فى استعلاء قائلة : «لم يكن لدى الذئب سوى اغنية واحدة ، وحتى هذه الاغنية استعارها» ، ثم ترفع باندفاع صوتها رنانا لا يعرف المهادنة : «نحن حدادون ، وروحنا صبية ، للسعادة نصنع المفاتيح . . .» ، فترد عليها العجائز «المفاتيح ، المفاتيح» وهن فرحات لأنهن يذكرن شيئا من الاغانى التى كن يرددنها فى صباهن فى جوقة مصاحبات يفستوليا تشاشينا النشيطة . وهى الى الآن ، ما أن تغنى حتى تلمع عيناها بنظرة حديدية ، ويتفصد جبينها بالصفرة ، وتنظر الى الجميع نظرة تحد ، وتضرب على الطاولة بقبضتها هاتفة : «حياتنا كلها ليست سوى كفاح ، كفـ . . . ـاح !»

وتتسابق العجائز الى تملقها كما تعودن : «طبعا انت يا توليا تستحقين كل هذه التشكرات والشهادات التى اعطوها لك . تستحقينها ! فالكفاح هو المحصلة !»

ولكى لا يفسد ماركيل تيخونوفتش بهجة العيد ، وحتى لا يشتبك فى نقار مع عجوزه التى تؤمن ايمانا صادقا بأنها أعطت الوطن وللحقول المحلية اكثر بما لا يقاس من كل هؤلاء الفئران بمن فيهم زوجها البليد التفكير . . سينزوى فى الركن الذى وضع فيه فى مكان الايقونات جهاز تليفزيون من طراز «ريكورد» ، حيث تتزحلق الراقصات على الجليد بالسراويل الداخلية فقط والجوارب الشفافة وجونلاتهن ترتفع الى ما فوق السرة .

«يا للعار ، يا للعار ! ألا يرى الأباء ذلك ؟ والسلطات أيضا . ستصبح البنات عقيمات من البرد ، او يلدن أولادا لا يصلحون للجندية ، فمن سيدافع عن الوطن اذن» — هكذا يعرب ماركيل تيخونوفتش عن مخاوفه أمام التليفزيون . أما يفستوليا سيرجييفنا فتصرخ بصوت حاد ناطقة بالعيب : «انه ينتظر يا بنات أن تسقط السراويل من الراقصات ! لكنها لن تسقط ، لن تسقط ! أتعرف كم الأستك متين فى هذه الايام ؟ أستك صناعى ! فى الماضى كنا نربط بالخيط فينقطع . . . أو يقطعه المراقصون فنرقص ممسكات بالسراويل . . .»

وتثنى صديقاتها : «هكذا يا توليا ! كانت حياة سيئة ، متخلفة ، مظلمة . فكيف لا نعيش الآن ؟ الكرهباء فى كل مكان . نتفرج على التليفزيون . ونطبخ اشياء لذيذة . المهم أن تبقى لنا الصحة . . .»

نضجت الدجاجة منذ زمن بعيد . وسبحت فى الغرفة رائحة نباتات بحرية أو تلك الرائحة اللصيقة لحظيرة توجوجيلينو التى لم تفارق سوشنين منذ أن تخبط غائبا عن الوعى فى السائل الروثى ، وفى المنام ، عندما يرهقه التعب أو اضطراب الاعصاب ، تزوره العرسة فتعذبه وهى تتخبط وتزحف على الاسفلت المحبب بينما تنقض عليها الغربان لتجهز عليها وتنقرها فى رأسها .

مزق سوشنين بأسنانه فى وهن ، ودون أدنى شهية ورك الدجاجة الزلقة وكأنما سلقت فى صابون . وشرب شايا . وحاول أن يجلس الى الطاولة فأخذت تصر وتتأرجح ، واحيانا كانت



لسبب ما تزحر فى الأماسى ، وفى الاماسى التى يسوء فيها الطقس يزداد الألم فى قدمه واللسع فى كتفه . اما اليوم فالألم فيهما لا يطاق — يبدو انه حرك المفاصل ونكأ الجراح وهو يضرب بكل قوته الحمقاء اولئك الأوغاد الذين سيغرقون فى الشراب بدون مساعدته وينفقون .

لم يخابروه من القسم ، وهذا يعنى ان الشطار الذين ضربهم لم يتقدموا بشكوى ، بل ضمدوا جراحهم ونظفوا أنوفهم وشربوا «المزيج» وينامون الآن نوما عميقا ، ثملا ولا شىء يؤلمهم او يعذبهم ، وقلوبهم لا تتمزق الما على شىء او على أحد .

مد سوشنين يده الى التليفون وهو راقد على الكنبة ، ودون ان يشعل الضوء جمع الرقم متحسسا . ردوا عليه «من تريد ؟» سمى الاسم وسمعهم يدقون على الجدار من الممر .

— مرحبا بأهل الطب ! الهاتف العمومى عندكم يعمل اليوم كالساعة .

— لم يسرقوا منه السماعة بعد . كيف الحال ؟

— رائع .

— ماذا حدث ؟

— لماذا تظنين ان شيئا حدث ؟

— لو لا ذلك لما خابرت . هل تحتاج ثانية الى تشجيعى ؟ الى حماية من الاعداء ؟

— كلا . الاعداء سحقتهم .

— آه ، هذا كلام جدى . أين ؟ من ؟ كم ؟

— فى البيت . تحت السلم . ثلاثة .

— هل قدمت المساعدة الطبية ؟

— لم تكن هناك حاجة لذلك .

— ستكون نهايتك سيئة ايها العسكرى المتهور . سيغمدون خنجرا فى ظهرك . . .

اراد ان يرد على «العسكرى» فيناديها «بريمادونا» ولكنه كبت نفسه وامتدحها : «شاطر ! احسنوا تدريبك ! . . .»

— ماذا تأكل ؟

— سلقت دجاجة . ابوك ارسل لى خطابا .

— ارسل لى ايضا . ولحما . لقد ذبحوا الخنزير قبيل رأس السنة .

شعر سوشين انها تلعثمت وكادت تقول «قبيل مجيئنا» . وكان ينبغى أن يشجع «هذا الوتر الذى تحرك» وأن يتقدم لملاقاتها ، بيد أنه كان رجلا أبيا ، سليط اللسان ، عصريا ، حاضر الكلمة ، فقال :

— حظك أحسن ، — ثم اضاف : — بالمناسبة ، نصحنى ابوك ان اضربك .

— لعله قرأ ذلك فى صحيفته المحببة «حياة الريف» فى ركن «نصائح مفيدة» . لكن أمهلنى حتى افرغ من الغسيل وتنظيف الغرفة واستعد . — ثم قالت لبركا وهى تغالب دموعها :

— ولكن لم يعد هناك ما تضربه .

لزم كلاهما الصمت .

— اذا لم يكن لديك شىء عاجل . . فأنا بالفعل أغسل سفيتا قرب الغسالة .

فاستدرك قائلا :

— نعم ، نعم .

— لكى تطرد عنك الكآبة خذ سفيتا فى نهاية الاسبوع ، وسوف تسليك . انها ذكية من الصف الأول وعصرية . سمعت



عن الأجور الرهيبة فى مشروع بام فقررت ان تسافر الى هناك بعد التخرج من المدرسة . وهى تهتم أيضا بالمعاهد التى تتخرج منها الممثلات ، وابتداء من اى صف يسمحون بارتداء السلسلة الذهبية والاقراط ؟ وكم مرة يحب الانسان فى عمره ؟ ومن أين يأتى الاطفال ؟ وغير هذا كثير مما يدرّسونه بالمجان فى بيتنا المرح . أخشى ألا تكفى مكافآتك الأدبية لملابسها . أوه ، لا بد أن اجرى !

— مهلا ، مهلا ، سفيتا آخذها ، وانت الى اين ؟

— كيف ؟ الى الموعد الغرامى . جارنا سائق البلدوزر يخطبنى . فقلبه الظمآن ينشد الحنان . . . انه يبحث عن شريكة حياة . يكسب اربعمائة روبل شهريا . . .

— سائق البلدوزر ملوث بالمازوت ، بينما ينبغى ان يكون رداؤك نظيفا معقما .

— سأغسل البقع . فالمنظفات الكيماوية الآن . . أوه ، اننى فعلا قلقة . اخشى أن تدس سفيتا يدها فى الغسالة . انها فى غاية الفضول .

— اذن الى اللقاء !

— الى اللقاء . خابرنى عندما يكون لديك مزاج . او بالأحرى عندما لا يكون .

— اتفقنا .

— حسنا ، انا ذاهبة .

— طيب ، اسمعى ، اذا حدث يعنى . . .

— اذا حدث ماذا ؟

— طيب . فهمت كل شىء . نوما هادئا !

— اتمنى لك العكس !

— نعم ، سأحاول أن اعمل قليلا .

— مبارك كل عمل ، بالتوفيق !

— نشكركم . مهلا .

— ماذا بعد ؟

— هل رأيت الخالة جرانيا من زمان ؟

— آه ، هذا ما تسأل عنه ؟ كلا ، مؤخرا . كانت تسرع الخطو فى شارع السلام وتحمل علبا كثيرة . انها تعمل الآن فى ملجأ الاطفال . تجمع ملابس واغراضا للاطفال .

— كيف التحقت بالعمل هناك ؟

— بكل بساطة . نزلت بالمستشفى الشخصية المعروفة للجميع أليفتينا ايفانوفنا جورباتشيفا ، مديرة ملجأ الاطفال . ولم يكن من الممكن ان تفوت فرصة اغراء مثل هذا الكادر بالعمل عندها .

— آ . . . اذن فالخالة جرانيا تجمع الثياب القديمة لتعين الاطفال الذين يرتع آباؤهم فى رحاب الوطن الرائع ، متمرسين فى الكد والكفاح .

— هكذا جرى الحال دائما . . البعض يرمى والبعض يجمع . . . اوه ! ينبغى ان اتمكن من تحميم سفينا وارقادها . أريد ان اقول لك انه من بين جميع خسائرك فان الخالة جرانيا هى الخسارة التى لا تغفر أبدا . ولا تنتظر فى هذا الصدد عزاء .

— ما العمل ؟ اذن فالحياة فى واقع الأمر اكثر جدية مما كنت اظن .

— انك تصبح مثقفا . فهذه هى الذريعة الأولى التى يتذرع بها المثقف العصرى حتى لا يحمل دلو القمامة الى الشارع . . . دعنى أرجوك ! — وبهذه الكلمات ركضت ليركا .



ظل سوشنين ممسكا بالسماعة طويلا . وتناهى اليه فى الظلام أزيز الهاتف المتقطع القادم من ذلك العالم ، المغاير ، المكتظ ، المشغول بالعمل والكلام والمرح .

## الفصل الثامن

ذلك العالم ، المغاير ، شد اليه سوشنين . قفل الباب وتدلى فوق حاجز السلم . كان هناك شخص غريب ينام تحت الدرج مطمئنا وقد انقلبت بجواره على جنبها زجاجة فارغة .

«أوه يا الهى ، شد ما مللت هذا !»

فى الخارج مال الجو الى الصقيع . لم تعد القطرات الذائبة تنهمر من السطوح بل تسربت قليلا ، وامتدت العروق المائية المتجمدة متخذة مسارات السطح المتعرج وفى نهاية كل منها لمعت كالنجمة قطرة فى طريقها الى التجمد . وفى السماء ايضا لاحت آثار النجوم عبر العكارة والقتامة . وبدت اضواء محطة السكة الحديدية أشد وضوحا ، وتقاربت عمارات المدينة من بعضها البعض ، ووقفت على شاطئ نهر فيكا كـــانت المصابيح لا تزال تسبح بقعا صفراء فى الابخرة المصفرة المبيضة . وكانت التلال البادية بمزيد من الوضوح خلف المحطة ملفعة كعادتها بالغموض الملغز والأهمية .

تناهت من المحطة أصوات الاعلان عن القطارات ، وكانوا يعلنون عن وصول القطار المتوجه الى لينينجراد ، فشعر سوشنين برغبة صارخة فى الرحيل الى آخر الدنيا ، الرحيل بهدوء ، خفية عن الجميع ، وقبل كل شىء عن نفسه . وعاد يغبط

اولئك الذين كانوا الآن مسافرين الى مكان ما ، لأمر ما ، فقد كانت لديهم اهداف معينة ، واعمال وافكار ، وثمة اشياء او اشخاص شدوهم الى الرحيل أو دفعوهم اليه ، بل وربما كانوا الآن في انتظارهم في مكان ما . . .

في الحادية عشرة والنصف كان قطار «فجر الشمال» المعطر الخاص يتوجه من محطة ڤيسك الى موسكو ، وبجوار البوابة المفتوحة وقف صف محترم من السيارات المختلفة الماركات مولية ظهرها للرصيف ، وكانت بينها سيارة «الفولغا» السوداء ، ذات الرقم المعروف لسوشنين من زمان .. فقد كانت هذه السيارة تقل شخصا هاما الآن في المدينة ، هو فولوديا جوريانشيف .

كان عم فولوديا جوريانشيف ، مدير فرع السكة الحديدية في ڤيسك ، رجلا حازما ، من القيادات المحلية البارزة وشخصية اجتماعية مرموقة ، صنع الكثير من اجل مصلحة المواصلات والمدينة والمواطنين . وكانت زوجته ، اليفتينا ايفانوفنا ، انسانة في غاية الطيبة ، ولسبب ما لم تكن قادرة على الانجاب ، وعندما ماتت شقيقة جوريانشيف في قريتهم جوريانشيفكا وتركت اولادا كثيرين ، قررا أخذ فولوديا ، اصغرهم ، اليهم في المدينة . واخذوه . وأحبوه . وربوه ، مع تدليل . وشب الصبي جسورا ، ملحاحا ، ساعيا الى الاستقلال المبكر ، بالطبع فمثل هذا «الكادر» لم يكن من الممكن الا ان يهبط من «الجبل» ــ هكذا كانوا يسمون الجسر الترابي الذي قامت عليه بيوت موظفي ادارة السكة الحديدية ومبنى ادارة الفرع ذاتها ــ وينضم الى الشعب الكادح في زقاق الخالة جرانيا .



وراح فولوديا جوريانشيف يكدح ويلوث ثيابه . فتهبط اليفتينا ايفانوفنا الى «تحت» وتحاول التأثير على فولوديا وانتزاعه من أسرة العاملين ، ولكن أنّى لها أن تتغلب بمفردها على المجتمع !

وذات مرة مرض فولوديا ، ولزم الفراش وقد ارتفعت حرارته ، ولم يأكل شيئا ، واخذ يصرخ في أليفتينا إيفانوفنا طالبا منها ان تذهب وتأتي له ببطاطس مشوي وتفاح مر . وهجمت أليفتينا إيفانوفنا على الخالة جرانيا تعنفها : «أفسدت الولد ، شوهته ! جمعته بالاشقياء ! هيا تحملي المسئولية !»

وفكرت الخالة جرانيا مليّا .. انها لم تطعم الأولاد تفاحا ابدا ، فليس لديها مال لشراء التفاح . لكنها تهللت بعد ذلك اذ أدركت شيئا ما ، فربطت في منديل حبتي بطاطس مشويتين وحفنة من البصل الصغير وقليلا من الملح الرمادي وارسلت هذه الهدية الى العامل الصغير العزيز . وقد التهم ذلك البك الصغير كل ذلك ، التهمه دون ان يترك ذرة ، وقد لوث عن عمد بالبطاطس المشوية المفرش الناصع البياض . واذ به يتماثل للشفاء ، وعندما شفي هبط هذا العاق من «الجبل» الى خط السكة الحديدية ليعمل .

وتخرج فولوديا جوريانشيف من المدرسة الثانوية بميدالية ذهبية طبعا ، ثم تخرج من المعهد التكنولوجي بامتياز طبعا ، ثم التحق بأكاديمية ما ثم انطلق صاعدا الى اعلى ، ولكن لا الى جبل السكة الحديدية بل الى جبل قطاع البناء ، واستوعب المنصب الكبير بسرعة ، وأدار الأمور بجدارة ــ الى الدرجة التي يمكن بها ذلك في ايامنا هذه ــ في أكبر مؤسسة من مؤسسات البناء في مدينة ڤيسك ، مؤسسة البناء المدني ، حيث يعمل

أكثر من عشرة آلاف شخص ، أما عدد المتسكعين فيها فلا يعرفه حتى مدير المؤسسة نفسه .

وكان سوشنين يلتقى بجورياتشيف أكثر ما يلتقى فى مقر اللجنة التنفيذية للمحافظة ، حيث كان يناوب فى مكان هادئ بعد أن خرج من المستشفى بساق عرجاء .

— مرحبا بحضرة الرئيس ! — هكذا كان فولوديا جورياتشيف يحيى دائما بنفس العبارة زميله القديم فى العمل بالسكة الحديدية ويرفع يده بالتحية العسكرية قرب صدغه ، ثم يدسها كالمجرفة فى الأرض فى يد الآخر ويشد عليها عمدا مختبرا قوته .

ويرد سوشنين بترحاب :

— أهلا وسهلا «بالكيميائى» المقبل !

ويضغط على يد فولوديا جورياتشيف حتى يكاد هذا يقرفص من الألم .

ويدمدم فولوديا جورياتشيف وهو يهز يده المرفهة الآن فى الهواء :

— «كيميائى» دفعة واحدة ! ألك هذه القوة وتدعى العجز عن العمل !

فيضحك سوشنين بسخرية :

— بدون ذلك لا نستطيع . بدون القوة لا يمكن التفاهم مع أمثالكم . انت مثلا ، وهذا ما أراه بوضوح ، ستقع حتما فى أيدى العدالة ومن هناك تمضى مباشرة الى «الكيمياء» . لأنكم تسرقون .

— نحن لا نسرق ، نحن نوفّر .

— سمعت ذلك ، سمعته فى الاذاعة المحلية — ويتقر



سوشنين بظفره على صندوق جهاز الراديو — مؤسسة البناء المدنى فى فبسك قد وفرت آلاف الاطنان من الخرسانة والطوب والحديد ومواد البناء ، وهكذا فالظاهر انكم تتسلمون منها أكثر من حاجتكم ؟

— بالضبط . لا تتوقع ذلك . اتظنهم يجرون وراءنا ويقولون خذوا ؟ عندما تأخذ من الكثير شيئا قليلا ، فذلك لا يسمى سرقة ، بل قسمة ! * هل تذكر طفولتنا الذهبية ؟ وفيلم «بطاقة للحياة» ، أتذكر ؟

— انا أذكر كل ما لم تنسه أنت . . .

— ومن نحن ؟ نحن لسنا الا اطفالا فى الروضة . اما الأولاد الشطّار فى سيبيريا فقرروا توفير مليار روبل . هذه هى الأبعاد !

— مليار ؟ يلهفون مليارا ؟

— يا للألفاظ التى اخذتها عن «زبائنك» ! لماذا يلهفون ؟ لا داعى لأى لهف . فلو جمع السيبيريون الاخشاب المرمية فى الأنهار وفى غابات التايجا ، ولو اكملوا بناء المشروعات غير المكتملة ونظموا الأمور فى الزراعة فسوف يعيدون للشعب لا مليارا بل خمسة ، وربما عشرة . يعيدونها مع الاعتذار قائلين ان السلف قد أهدروا وسكروا ، اما نحن الشطار فقد جمعنا !

— يا له من أمر مدهش !

— فلتدهش كما يحلو لك ! واذن فأنت تقول انه لا محيد لى عن «الكيمياء» ؟

— ليس مستبعدا .

---

* هذه العبارة رددها أحد أبطال فيلم «بطاقة للحياة» عن الأولاد المتشردين فى السنوات الأولى للسلطة السوفييتية . المعرب .

— هناك عصر جديد فى حياتنا سوف يبدأ ! لا وقت حتى للتلفت فطوال الوقت تزحف عصور وعصور وعصور . . .

كانوا يودعون «صاحب فخامة» من أهل العاصمة ، وقد مضت فخامته المدللة من جانب الشعب المحلى الودود تعبث ثملة ، وهى لا تتمكن ابدا من الولوج الى باب عربة القطار المفتوح ، وتسقط من هناك على الايدى الممدودة لتلقفها بحدب . وكانت هذه «الفخامة» ، على ما يبدو من كرشها غير الأصيل المنزلق جانبا ، غير كبيرة المنصب ، فهى من المؤسسة العامة أو من الوزارة ، من طابق لا يتعدى الطابق الثانى ، ولكن انظر كيف تدفقت «الاوساط الاجتماعية» فى فيسك على المحطة وملأت الرصيف . وكان هنا كبير مهندسى مؤسسة البناء المدنى فيديرنيكوف ، والطبل الأجوف ، النقابى الحرك خايوسوف ، فكيف يمكن بدونه ؟ وسيدتان من النشيطات الاجتماعيات مسجلتان فى عداد موظفى قسم الأمن الصناعى . وكان هنا ايضا دوبتشينسكى وبوبتشينسكى من قسم التصميمات* ، الحديثا التخرج من المعهد البوليتكنيكى وغيرهم مما كان سلوكهم يتميز بمزيد من الرصانة وكانوا ثملين قليلا .

وعلى مبعدة من الجمع يقف فولوديا جورياتشيف مرهقا من الانتظار ، ووجهه المكفهر مغطى كله ببقع حمراء . كان هو ايضا يجامل «صاحب الفخامة» ، فيبتسم له ابتسامة معذبة ، ويشرب الكونياك مع الضيف قرب عربة القطار ، عندما يدعونه من كأس واحدة ، بينما النشيطتان الاجتماعيتان تصفقان

* دوبتشينسكى وبوبتشينسكى شخصيتان من مسرحية «المفتش العام» الهزلية للكاتب الكبير جوجول تعتبران نموذجا للتملق . **المعرب** .



وتصيحان بحماس : «اشرب للقعر ، اشرب للقعر» . اما دوبتشينسكى وبوبتشينسكى اللذان وصفهما نيكولاى فاسيلييفتش جوجول بصورة لا يمكن ان تصفهما بأحسن منها ، ولذلك سأعيدها الى الاذهان مع انحناءة اعتذار لأستاذنا العبقرى : «بيوتر ايفانوفتش دوبتشينسكى وبيوتر ايفانوفتش بوبتشينسكى ، مالكا أراض يسكنان المدينة ، كلاهما قصير ، واطئ ، فضوليان للغاية ، يشبه احدهما الآخر الى اقصى حد . كلاهما ذو كرش صغير ، كلاهما يتحدث بلهجة سريعة ويكثر من الحركات المساعدة والتلويح باليدين . دوبتشينسكى اطول قليلا واكثر جدية من بوبتشينسكى ، ولكن بوبتشينسكى أكثر خفة وحيوية من دوبتشينسكى» .

وكان بوبتشينسكى ودوبتشينسكى المحليان يختلفان عن بطلى جوجول فى الاسماء ، اذ كان احدهما يدعى إيديك والآخر فاديك . وعدا ذلك لم يكن الموظفان التقنيان يرتديان الردنجوت من الجوخ الرقيق بل يرتديان حلتين عصريتين من حلل الأعياد من طراز أجنبى ، ومن تحت معطفى فرو الغنم اليوغسلافيين المفتوحين ذوى اللون البيج كانت تلوح بين الحين والحين على باقتى السترة «عوامتان» زرقاوان الغرض منهما اظهار ان هذين الشخصين ذوا تعليم عال جدا . وبدلا من الخصل الأمامية المجعدة كان لدى دوبتشينسكى وبوبتشينسكى عرفان يجعدانهما ليلا باسطوانات التجعيد النسائية ، وكان فماهما مملوءين بالاسنان الصناعية رغم شبابهما ، ويحملان خاتمين ذهبيين كبيرين وازرار اساور ذهبية ، وربطتى عنق أنيقتين لا بد انهما جيء بهما من بلاد العرب أو الفرس . وكان دوبتشينسكى وبوبتشينسكى يسندان بمهارة واستعداد مؤخرة «صاحب الفخامة» المستديرة بينما يهم هو بالافلات والسقوط ، بل وكان يفلت بين الحين والحين ،

الأمر الذي يثير اعجاب دوبتشينسكي وبوبتشينسكي . وتركض السيدتان الاجتماعيتان على الرصيف صارختين وهما تلاحقان غطاء الرأس المتدحرج ، ثم تروحان تغمدانه بتأثر فوق صلعة الضيف العزيز الحكيمة .

وفى تلك الاثناء حملوا الى العربة علب وبرطمانات الفطر الابيض المخلل ، وسلالا من الغصون بها توت برى مجمد ، وسُلافة من الدبر المحلى فى جرار مجدولة من لحاء الشجر ، وعلقوا فى رقبة «صاحب الفخامة» ثلاثة ازواج من احذية اللابتى التذكارية المصنوعة من لحاء الزيزفون ، ورنت الزجاجات المكفوفة فى صندوق مزركش ، وغادرت قبسك أيقونة أخرى قديمة خشبية صغيرة ، سلمت فى زمانها من التدمير ، وقد لفت فى ورق مشمع مربوط بشريط كنسى بمربعات .

وفى تلك الجوقة اخذ كوستيا شايماردانوف ، «المحارب بالقلم» المحلى ، يجرى ويصرخ ويغشى ابصار الجميع بومضات التصوير ، مفكوك الأزرار حتى وسطه ، منفلتا ومستفزا باستعراضه ، ثملا . كان قد جاء الى سوشنين مؤخرا فى المستشفى «ليعكس» عمله البطولى ، فراح سوشنين يحثه على القيام بجولة فى قرى ناحية خايلوفسك لكى يكتب فى الصحافة بجدية ومبدئية دفاعا عن الريف . «وما حاجته الى القرية ، هذا المنافق ، لأى غرض ؟»

تحرك قطار «فجر الشمال» باحترام ، وقام ملاحظ العربة المتكبر ذو الحلة الرسمية بازاحة الضيف بوقار ورفع العتبة الحديدية . وفى تلك الاثناء راح «صاحب الفخامة» يلوح بطاقيته المصنوعة من فراء السمور ، ويرسل القبلات فى الهواء للجمهور . وناحت السيدتان الاجتماعيتان وهما تصيحان : «تعال الينا ، شرفنا ! نحن دائما فى الخدمة . . .» وركض دوبتشينسكي وبوبتشينسكي



خلف القطار وهما يتعثران ويحاولان لمس «اليد الكريمة» ، ولو كان القطار يسير بسرعة عصر جوجول لركضا وراءه حتى موسكو دون ان يلحظا ذلك . ولكن العصر الآن هو القرن العشرون ! دوت كباش العربات وصلصل حديد القطار وعوت محركات القاطرة الكهربائية ، وطار القطار مخلفا دوبتشينسكي وبوبتشينسكي وحيدين كاليتامى على الخط الحديدى المتسخ الكئيب بعيدا عن المحطة ، بجوار مركز التفتيش الفنى على العربات .

أراد سوشنين ان يمر بفولوديا جوريانشيف دون ان يتوقف ، ولكن هذا على ما يبدو كان قد لاحظه من فترة طويلة ، فأومأ اليه برأسه ومضى الى جواره ناظرا الى الافق ، الى اعالى السماوات الخاوية . لم تزايل البقع وجهه ، وبدا لسوشنين انه يشتم فى سره .

ودمدم جوريانشيف من بين أسنانه المزمومة :

— هيا ضعنى ! ضعنى فى مسرحية هزلية ! ولا تنس فى النهاية ان تذكر ان جميع طلباتنا سوف تلبى منذ الآن فى المؤسسة العامة . فهذا القرن اللامع سيخبر جميع الاشخاص المهمين بأن الاستقبالات فى قبسك أحسن منها فى تشيبوكسارى مثلا . ليس المال ماله ، وسوف يحتال فى وطنه ويسرق لكى يعطينا المعدات والآلات والعربات التى كانت مخصصة لتشيبوكسارى ، ويمدنا بقطع الغيار . وبذلك ننفذ نحن خطة بناء المساكن ، ونسلم مبنى مزرعة الدواجن قبل الموعد ، ونشغل مجمع اللحوم ونكمل اخيرا بناء مسرح الاطفال ! ويهنأ الجميع : العمال ، والفلاحون ، والمثقفون . أما فى تشيبوكسارى فستهال عليهم الجزاءات بسبب عدم تنفيذ الخطة والبعض

سيعزل من منصبه . . . تفو ، . . امك ، — وبصق فولوديا جورياتشيف تحت قدميه واستطرد — متى ينتهي كل هذا ؟ وهل سينتهي ؟ — رغم كل جهود أليفتينا ايفانوفنا لم يتسم سلوك فولوديا جورياتشيف بالرصانة منذ ايام الصبا . كانت اليفتينا ايفانوفنا ، التي تنهي دهرها عند فولوديا ، تمسك بقلبها عند سماعها تعبيراته السليطة ، وتقول للجميع انه ، مثله مثل خاله ، قد تسبّب في المنصب الكبير ، وبعد تخرجه من الاكاديمية أصبح لا يمكن التحكم فيه ، وهي تسعى بكل قواها لحماية الروح البريئة الطاهرة ، حفيدها يورا ، من تأثير ابيه السيئ .

فتح فولوديا جورياتشيف باب سيارة «الفولجا» واومأ برأسه :

— اجلس يا حضرة الرئيس ، سأوصلك . فربما بعد ذلك سمحت بتوصيل زيارة لي في السجن بدون دور .

— شكرا يا فولوديا ، سأتمشى .

— الا تؤلمك ساقك ؟

— وماذا تكون ساقي ؟ — قال وهو ينظر الى كوستيا شايماردانوف وهو يركض بآلة التصوير من سيارة الى سيارة وينادي : «هيا يا رجال ، فلنذهب ! الموائد في الدير ما زالت عامرة بكل الأطايب ! لا تدعوا الخير يضيع ! . .»

— هذا الوصولي ! — قال فولوديا جورياتشيف مشمئزا لدى سماعه نداء شايماردانوف ، ونوه مفتخرا وهو يمسك بباب السيارة : اننا الآن لا نستقبل الزوار في المطعم ، بل في طرابيزة الدير سابقا ! نسقيهم شراب الكفاس المخمر ، ونطعمهم القُرَص والكرنب المخلل في البراميل ، والفطر ، وحساء السمك من السلمون المجفف . . . أنظر على اى مستوى نناضل من اجل التقدم والخطة ! — واغلق باب السيارة بغضب ، واندفع الرئيس المتعب



بالسيارة ليكمل السباب والبناء ، وليتحايل ، ويسلم المشروعات في مواعيدها وقبل مواعيدها . . وباختصار ، مضى ليعمل ، وليدبر الأمور وهو يعمل .

بالقرب من حمّام سازونتيفكا ، المغلق الآن ، اصطدم سوشنين بحصان لافريا القوزاقي الأبلق ، اذ لم يكن لافريا قادرا على مفارقة اصدقائه : العم باشا والعجوز أريستارخ كابوستين وشلة كاملة من المحاربين السابقين الذين هرموا امام ناظري سوشنين . والتقط ليونيد سوشنين لجام الفرس ، وادار العربة ، وأمر اللاهين بالركوب ، ونقلهم الى بيوتهم القريبة ، وكان لافريا القوزاقي آخر من أوصله الى زوجته .

— انه ذلك الغر الذي كاد أن يرسلك الى العالم الآخر ، هه ؟ اتدري ، كنت انوي ان ازورك في المستشفى ، ولكن أين اذهب بالحصان ، وزوجتي تطاردني . انها لا تترك لي اى منفذ ، وخاصة في المساء . كم سرحت ومرحت في فيسك بعد الحرب ، آه كم سرحت ! فلم اعد موضع ثقتها . اسمع يا ليونيد ، هل ممنوع عليك ان تشرب ؟ ولا نقطة ؟ انا عندي الكثير ، أنظر ! — واخرج لافريا القوزاقي زجاجة من عبه ، داكنة اللون ، عليها ورقة تحمل عبارة «قطران للعجلات» .

— ممنوع يا عم لافريا ، ولا قطرة !

— أنظر الى الكلب كيف افسدك ! هل تستطيع يا ليونيد ان تأخذ حصاني . . يبدو انني سكرت . .

— بكل سرور يا عم لافريا ، لكن سأحملك أولا الى بيتك ، اتفقنا ؟

— اتفقنا يا ليونيد ، اتفقنا . أما جرحك فسيشفى قبل

الزواج . سيشفى حتما ! أنظر الى جراحى ، ومع ذلك لا بأس ! لا . . . ب . . . أ . . . س ! وسوف اشرب . وأحيانا اندس فى فراش العجوز ! ها — ها — ها ! لا تؤاخذنى يا ليونيد انا العجوز الاحمق ! الخمرة هى التى تتباهى . اما زوجتى فستدخل معى معركة تبدو الحرب بالمقارنة معها لعبة ! . .

أوصل سوشنين لافريا القوزاقى الى باب الشقة واسرع يهبط الدرج وساق الحصان بقوة ، وذلك لأن زوجة القوزاقى المحارب ، كانت كأنما استجابة لاشارة الاستنفار تنقض على الشخص الذى يأتى مع زوجها . ولا بأس لو انتهى الأمر بمجرد توجيه الاتهامات ، فمن الممكن ان تذوق طعم المكنسة .

كان باب الشقة السفلية المبطن ببطانة سميكة من السراويل القطنية الميرى مواربا ، وما أن خبطت الجلّة الحديدية التى تزن بودين * ، والمنقولة أيام الحرب من فناء عربات البضائع الى البيت رقم سبعة المبنى حديثا آنذاك ، ما ان خبطت خلف ظهر ليونيد فى عارضة الباب حتى خرجت الجدة طوطيشيخا على صوت الخبط المألوف الذى كان يهز المبنى الخشبى هزا ، ونادته بحركة من أصبعها :

— يا ليوشا ، يا ليوشا ، تعال هنا ! تفرج على ما عندنا . . — واستغرقت فى ضحك سعيد قصير القهقهات .

فى ردهة المدخل دارت بولكا ، حفيدة الجدة طوطيشيخا أمام المرآة ، وهى تغرق أيضا فى الضحك من الفرحة المبهرة .

---

* البود مقياس وزن روسى يساوى ١٦ كيلوغراما . المعرب .



لقد تحقق أمل يولكا ، فقد كان عليها تايير من المخمل الداكن بلون لا يمكن تحديده : اهو ازرق أم بنفسجى اسود ، بشريط ذهبى على الجيب والاردان ، أما أهم شىء فى هذه الحلة فهو السروال ، الذى كان مرصعا بالكبسولات النحاسية من الجانبين ، وهنا ايضا ويا للروعة ، يا للسحر ! — اجراس صغيرة ، كل ثلاثة منها فى خيط ، ولكن ما اروع رنينها ، سيمفونية ! جاز ! روك ! بوب ! كل ذلك ، كل شىء معا فيها ، فى هذه الاجراس ، كل موسيقى العالم ، كل الفنون ، كل مغزى الحياة واسرارها الجذابة ! ومع هذه الحلة الداكنة بلوزة ناصعة البياض برقبة من اصل ايطالى ، وحذاء بكعب مشطوف مطلى بماء الذهب ، وباروكة كالحرير الأشيب ، كأنها نكشت دون قصد .

— أوه يا عم ليوشا ! — وألقت يولكا بنفسها على ليونيد وطوقت عنقه بذراعيها — كم أنا سعيدة ، كم انا سعيدة ! هذا أحضره بابا وماما لى . اشتروه من البحارة فى ريجا . غـــال بالطبع ، ولكن فى المقابل ، ما أروعه ! . .

قطب سوشنين وجهه وقال فى نفسه : «دفعوا الضريبة ! دفعوا الضريبة لابنتهم ثانية !» وفك ذراعى يولكا العظميتين وانزلهما عن عنقه .

— اخشى ان تخنقينى من فيض المشاعر !

— وقد اخنقك ! قد اخنقك — ولولت يولكا وهى شبه غائبة عن الوعى .

وعلى المائدة زجاجة «بلسم ريجا» وزجاجة صغيرة من الفودكا وحفنة من السلمون الدقيق المدخن ، وعلبة «شبروت» مفتوحة على عجل ودون اتقان ، وكومة من التفاح ، وقطعة خبز



12—1344

ريجا من الجودار فى غلاف ورقى ، واشياء اخرى مفتتة ومدعوكة ، ملقاة على المائدة فى عجل . وقال سوشنين فى نفسه «وللجدة ايضا دفعوا الضريبة» وتنهد بلا مبالاة وجاهد كى يرسم على وجهه علامات المشاركة فى الفرحة .

— مبروك يا يولكا ، مبروك ! هذا لائق عليك جدا . . . — قال بلهجة سعى ان تكون أرق ما يمكن — يمكنك ان تعتبرى ان جميع عرسان بلدة السكك الحديدية ، لا ، بل عرسان جميع البلدات ! جميع الشوارع والاحياء فى مدينة فيسك قد اصبحوا مشكوكين فى الاسياخ كالكباب .

— اخص عليك يا عم ليوشا ! انت دائما تسخر منى . لا ، قل الحق ، أبليق علي يا عم ليوشا ؟ صحيح ؟ — وتراجعت عنه ، وبحركة غزل مازح ، شدت السروال بحيث ترن الاجراس . ومن شدة الاعجاب رقصت الجدة طوطيشيخا وأخذت تصفق :

— اشرب يا ليوشا معى ! فرحتنا كبيرة — عرضت الجدة طوطيشيخا عليه ان يشرب من سخاء نفسها وصبت له فى الكأس «بلسما» خالصا — انه شراب مفيد — وحملقت فى حفيدتها قائلة : لن اعطيك !

— انا لا أريد ، فهو مر . . فقد ذقته . الشمبانيا شىء آخر !

افرغ سوشنين قليلا من البلسم من كأسه ، وخفف الباقى بالفودكا ، وبعد أن أوصى الجدة بالا تشرب بعد ، استعد للانصراف الى شقته .

— ربما كنت بحاجة الى طهى شىء يا ليوشا ؟ أو تنظيف البيت ؟ سنأتى اذا أردت . — وصاحت الجدة طوطيشيخا



بحفيدتها صيحة مترفقة : — اسكتى أنت يا غرة ! هيا اخلعى البدلة !

— أوه يا جدة ، اريد ان اذهب الى البنات فى المسكن الجماعى ، حسنا ؟

فسمحت الجدة :

— طيب ، روحي . رجل هنا ورجل هناك !

كتم ليونيد تنهيدة وصعد الى شقته ، كانت الساعة حوالى الثانية صباحا . ستركض المتأنقة الصبية لتعرض ثوبها بينما تجرع الجدة اثناء ذلك المزيد من الشراب ثم تنام . وستأتى يولكا فى الصباح ، وربما لا تأتى . وتشتم الجدة حفيدتها ، وتلوح لها بالمنشفة .

## الفصل التاسع

ظهرت الجدة طوطيشيخا لدى ابنها ايجور آداميتش فى منزل السكك الحديدية رقم سبعة منذ حوالى ثمانية عشر عاما ، أوربما عشرين ، غير انه بدا وكأنها تعيش هنا منذ الأزل ، لم تغادر الى اى مكان ولم تأت من اى مكان . بيد ان سيرة حياة الجدة طوطيشيخا كانت متنوعة للغاية كما ان حياتها كانت خصبة بما فيه الكفاية . قالت الجدة طوطيشيخا عن نفسها وهى تلوح بيدها الى ما وراء النافذة : «أنا أصلى من هناك ، من الغرب» . كانت عاملة بوفيه فى محطة السكة الحديدية ، وأولعت مبكرا بالخمر وجنس الرجال . . والطريق ما بين هذا الولع والجريمة طريق قصير . . وبعد أن بددت نقود العهدة نزلت

باصلاحية نسائية بعيدة ، فيما وراء البايكال . وهناك عملت فى مد سكة حديدية . . طويلة . كان العمل كثيرا ، معظمه حفر ونقل أتربة . وسلموا لزويا عاملة البوفيه جاروفا والحقوها بقطاع تعلية الجسر الترابى . ولم تكن مهيأة للعمل الشاق ، منذ الطفولة . فأمها ، التى كانت طاهية بمطعم المحطة ، لم تكلفها بأى عمل ، ومن المعروف منذ القدم أن فرس الحوذى مكدودة ، وابنة الأرملة مفسودة .

رفعت زويكا التراب بالجاروف يوما ، ثم آخر ، فأسبوعا . . ولم يعجبها هذا العمل . وعندئذ اخذت «تحتك» بكتف رئيس الحراسة كأنما بمحض الصدفة ، عفوا ، وتصرخ «أوه ، يا عسلى العينين ، كدت توقعنى ارضا . . .» ورغم بلادة قائد الحراسة فقد أدرك ما ترمى اليه ، فدعاها الى الشعلة ، واعطاها تبغا ، ولم يمر شهر الا وزويكا عاملة البوفيه قد نقلت من الاشغال العامة الى المطعم غسالة اطباق ، ومن هناك لا يفصلها الا مرمى ذراع عن المنصب المأمول ، فى بوفيه الطاقم القيادى ، حيث راعت زويكا ان يكون سلوكها لائقا ، واذن فلم تكن تشرب كثيرا على مرأى من الرؤساء ، ولا تقيم علاقات غرامية بالرجال المتزوجين .

هذه الفتاة الشقراء ، المرحة العينين ، المستديرة الجسد ، المبتسمة بلا انقطاع عندما يتطلب الأمر تليين عريكة أحد ما ، المتدفقة ضحكا رنانا خالى البال ، قضت فترة عقوبتها الثلاث سنوات بلا تعب وخرجت بشهادة فى جيبها باتجاه الغرب . ولكن السفر الى هناك كان طويلا ، بينما الحرية المنتظرة تغرى بمتع الحياة . وسافرت زويكا ، ورأت فى الطريق محطة قطار ، وبجوار المحطة جنينة بأريكة ، وعلى الاريكة المغطاة بأوراق



الخريف الصفراء جلس رجلان وبينهما زجاجة فودكا وخيارة ضخمة على جريدة وقالب خبز .

نزلت زويكا من القطار وقالت للرجلين :

— هلا صببتما لى ؟

فصبّا لها . وتجاذبوا اطراف الحديث . وعندما افاقت زويكا كان القطار قد مضى ! ولكنها كانت تذكر انه مضى الى الغرب ، وهى لم تكن مستعجلة ، ولم يكن هناك احد فى انتظارها . وسارت على القضبان نحو مغرب الشمس ، اذ كانت تذكر منذ أيام المدرسة ان الغرب هو حيث تغرب الشمس . وسارت حتى تعبت ، ونظرت فرأت فى الامام كشكا مطليا باللون الأصفر . وحول الكشك مبان مختلفة ، وسياج ، وبئر الى جانب الكشك بها دلو ، وكلب مربوط بسلسلة ، يتطلع ناحية الخط الحديدى منتظرا أحدا ما .

انعطفت زويكا عن الخط الحديدى . واذا بالكلب المربوط يهجم عليها ويكشر عن انيابه مزمجراً . «حسنا ، فلتأكلنى يا كلب ، ولكن السكان فى الاتحاد السوفييتى مائتا مليون ، فكم يبقى ؟ أرأيت ، لن تستطيع التهام الجميع !» وبعد بضع دقائق فهم الكلب ، مثل رئيس الحراسة ذاك ، كل شىء ، فألقى برأسه على صدرها ، وراح يقبلها لاعقا شفتيها باستمتاع ويبصبص بذنبه ويعوى تعبيرا عن الولاء .

وخلف السياج ، وراء المبانى نغش الدجاج ، وخلف باب مبنى منخفض تلوى جسد ثقيل واشتكى من الوحدة بصوت خنزير «آه ، آه ، آه» . وفى مزرعة الخضروات ، بين رؤوس الكرنب التى لم تجمع بعد ، تجولت بقرة وعندما رأت زويكا

خارت «ما ، ما ، مواء» . فردت زويكا :

— نعم نعم ، آماه .

واقتربت من البقرة وعانقتها ، وحننت قلبها بدموع النساء العاثرات الحظ . كانت البقرة الطيبة الحنون بلون الأوراق الذابلة ، وفى جبهتها بقعة بيضاء ، وكان احد قرنيها ، كما ينبغى له ان يكون ، فوق رأسها ، يضوى كهلال شاحب ، اما القرن الآخر فكان لسبب مجهول فى رأسها من الأمام ، يكاد يسقط على عينها ، لا بد ان صاحبها كان مضغه صباحا للافاقة من السكر .

لم يكن باب الكشك موصدا . ودلفت زويكا ونظرت حولها . كشك من نصفين ، به فرن روسى بفتحة وقود . فى النصف الاول الذى كان اضيق يوجد مطبخ بكل مستلزماته . . وخلف الحاجز المصنوع من شرائح الخشب الرقيقة والمكسوة بصفحات جريدة «جودوك» ، غرفة بها سرير ميرى وطاولة من شجرة باكملها . وعلى النافذة زهور ، وفيما بين النافذة والركن صور فوتوغرافية ، والى اليمين صوان بوفيه بآنية ، والى اليسار صوان ، وبحذاء الجدران كنبة خشبية من كتب المحطة . وعلى جميع المصنوعات الخشبية حفرت حروف ثلاثة صارمة MIIC تدل على انها تعود لوزارة السكك الحديدية .

لا بأس بأثاث هذا المبنى ، لكن كل شىء تبدو عليه بصمات اليد الرجولية الخشنة وتفوح منه رائحة الكيروسين .

لكن رائحة اخرى فاقت رائحة الكيروسين وغطت عليها كالورقة الرابحة فى لعبة الورق . . تلك كانت رائحة حساء الكرنب الدسم باللحم . واطلت زويكا فى طاقة الفرن . . فعلا ، هو كذلك . هناك قدر من حديد الزهر به حساء ، وبجواره مقلاة



بها بطاطس مهروسة محمرة بقشرة مقددة . كانت زويكا جائعة ، فاخرجت كل ذلك من الفرن ، ووجدت فى المدخل برميلا به خيار مخلل ، ووجدت حبات طماطم كبيرة فى سلة فوق الفرن ، كان بعضها قد تعطن . ووضعت الضيفة الطعام على الطاولة ووقفت وسط الغرفة مستغرقة فى التفكير . كانت فى الركن ايقونة لعذراء ما وامامها كأس ازرق مطفأ النار هو القنديل . وفتحت زويكا الصندوق الموضوع بجوار الحاجز ، فلم تجد فيه ما تبحث عنه . وفكرت زويكا قليلا ثم اندفعت صارخة نحو المدخل حيث يوجد صندوق وبجواره وعاء به رمل ، وفى الصندوق كيروسين فى صفائح مغلقة ، ومصابيح ومجارف ، وفرامل قطارات ، وزمزميات وبرطمانات وغيرها من معدات السكك الحديدية . وفوق الصندوق صوان الصيدلية ، وفيها بالطبع — واين يمكن ان يكون ؟ — كحول فى صفيحة صغيرة من الالومنيوم وعليها نفس الحروف "MIIC" . خففت زويكا الكحول بالماء فى كوب وانتظرت حتى يهدأ المحلول الكيميائى الثائر ، وشربته حتى اخر قطرة وتغدت بشهية عظيمة . كانت فى الحساء قطعة لحم خنزير كبيرة فقسمتها بالعدل قسمين ، وخففت وجبة اخرى من الكحول وتركتها على الطاولة وقد غطتها بورقة لكى لا تتبخر . وفكرت زويكا قليلا ثم حملت بقايا الغداء الى الكلب الذى سمته «بلكان» . وكان للكلب اسم آخر ، ولكنه تجاهله منذ اليوم ونسيه الى الأبد ، وتقبل ، كما تتقبل المكافأة ، هذا اللقب الجديد الذى اطلقته الضيفة عليه . . هذه الضيفة التى طالت اقامتها ، كما اتضح فيما بعد .

ونظفت زويكا الطاولة ورغبت فى ان تنام . وبسطت الفراش فشمت فيه رائحة رجل ، وكيس المخدة لم يُغسل من زمان

والغطاء ايضا . واخرجت زويكا من الصندوق ملاءة وكيس مخدة ومنشفة ، وذهبت الى البئر فغسلت ساقيها ، ثم تطلعت الى الغابة بحذر وراحت تغسل ما فوق الساقين وهي ترتعش من البرد ، وغسلت ايضا وجهها المتضرج بالحمرة من الماء البارد ، ومسحته بيديها ، ومشطت شعرها ، ثم نظرت في مرآة الحائط وغمزت لنفسها بعينها اليسرى . . فأما الغمز فهذا ما كانت تجيده .

كان آدم ارتيموفتش زودين ، ملاحظ الخطوط بالسكك الحديدية ، ما يزال أعزب كما ينبغي لآدم ان يكون ، اذ لم يعثر بعد على حواء . واحيانا كانت بنات حواء يزرن الكشك قادمات من المحطة او من ثكنات السكك الحديدية التي تقع على بعد عشرين كيلومترا من موقعه ، ولكنهن سرعان ما يهربن من هذه الحياة الموحشة الرتيبة في قلب الغابات . وها هو ذا آدم يعود من التفتيش على الخط الحديدي . فماذا يرى ! في كشكه ، في المسكن الميري الذي خصصته له السكك الحديدية وفي فراشه تنام حواء ، حواء شقراء بوجه منتعش . لا بد انها قديسة ! دخلت المسكن فوجدت كل ما تطلبه ، واكلت وشربت بعد ان قسمت كل شيء قسمين . هكذا ينبغي لحواء ان تفعل : ان تترك لآدم الكادح نصف كل شيء ، لأنها تسمى النصف ، وينبغي للناس ان يعيشوا بالعدل والقسطاس سواء في هذا العالم ام في العالم الآخر . هكذا راح آدم يفكر وهو يجرع الحساء على عجل . وكان الحساء ينسيل من الملعقة على صدره لأن عينيه كانتا مثبتتين على حواء ، وكلما جرع المزيد من الحساء تملكه المزيد من التعجل ونفاد الصبر . انه الله .



الله الذي ارسل هذه المرأة اليه ، هو الرجل المتوحش من الوحدة . هو الله ، راعي الخلق . فمثل هذه البضاعة لا يمكن ان تأتي من ادارة قطاع الخط ، فهم لا يعطون الكيروسين وفتيل المصابيح الا بالكاد ، اما الادوات فلا يمكن ان تحصل عليها منهم ، بل يأمرونك ان تجدها بنفسك ، وعليك ان تجد بنفسك الطعام والمرأة ! ولكن النساء لسن مكدسات على خطوط السكك الحديدية . واحيانا كان آدم ، مدفوعا بالرغبة الممضة ، يذهب الى ثكنات السكك الحديدية تحت المطر ، وفي الزمهرير ، وفي العاصفة الثلجية ، حسب الظروف ، ولكنه لا يدري ان كان سيحصل على نصيب ام لا .

استولى القلق على آدم فتململ في جلسته الى المائدة . فمن المعروف ان الرجل العجوز يفرح للعصيدة ولو كانت مطبوخة منذ ثلاثة ايام ، فما بالك بهذه ؟ «فليذهب هذا الحساء الى الشيطان ، بل والغذاء كله !» والقى آدم بالملعقة وهو يخلع ملابسه ويتخبط فيها ، وبقي في ثوبه الداخلي ، ومسح قدميه بالفرشة على الارض ، ورفع الغطاء ودلف بحذر الى الفراش المريح المدفأ جيدا . وقد في هدوء ، مشدود الاطراف خوفا من ان يطرد من الجنة ، ولكنه لم يطرد . عندئذ تحرك حتى التصق بحواء فسمعها تقول : «آه من هؤلاء الرجال . خلقوا وحوشا وظلوا وحوشا . يأتون من الصقيع ، من الريح . . . وعلى الفور يدسون مخالبهم المبردة في الجسد الحي . . .»

هكذا تزوج آدم وهو في دهشة من امره . وهكذا عاش آدم وحواء في مرح بل وفي مرح فياض . وكم طارد آدم حواء

بالعتلة الحديدية ومفتاح الصواميل ، رافعا هذه العدة فوق رأسه . لكنه لم يستطع اللحاق بها ولا مرة . ما اسرعها . واطلق عليها النار من بندقية الصيد فاخطأها . وشنق آدم نفسه بالحبل امام نوافذ الكشك فلم يمت اذ انقطع الحبل . وكل ذلك بسبب الغرام الدهرى العنيف الذى كان يغيب عقله ، اذ كانت حواء تحب الجميع ، والجميع يحبونها .

ولم توافق زويكا على كتابة عقد القران الا بعد ان ولد لها ولد اطلقت عليه اسما عصريا هو ايجور . وشب الولد فى الحرية فنما جيدا وبسرعة ، فهدأت ثائرة زويكا اذ شغلت به ، واصبحت اما عطوفا ، ولم تعد تراوغ للانفلات الى بوفيه المحطة . ووضع آدم خطة : ان يصنع طفلين آخرين ، ابنا وبنتا ، لكى يربط حواء به . لكنها لم تسمح له بأن يكبلها باعباء الحياة وبتعدد الاطفال . فعندما كبر ايجور والحق بمدرسة السكك الحديدية للحصول على مهنة سائق قاطرة كهربائية ، عادت حواء الى القصف واللهو بالقوة السابقة .

وكان ايجور آدموفيتش قد التحق بوظيفة وتزوج عندما حلت امه بمدينة فيسك ، فى بلدة عمال السكك الحديدية ، فى المنزل رقم سبعة ، فاعلنت ان زوجها كان فى سن متأخرة عندما اجتمعت به ، وقد ادركه البلى حتى الموت ، ولذلك فسوف تعيش منذ الآن مع ابنها ، لأنه لم يعد هناك مكان تعيش فيه ولا من تعيش معه .

وعاشت . . عاشت طويلا . منذ زمن بعيد . واصبح من المألوف ان يدس سكان المنزل ذى الشقق الثمانى اولادهم خلف



باب شقة الطابق الارضى ، عندما تدعوهم شئونهم للذهاب بسرعة ، او عندما يذهبون للسينما او يستدعون على وجه عاجل لأمر ما ، وتتردد من شقة آل زودين الاصوات المعهودة : ا — طو — طى — طو — طى . . . . ا — طو — طى — طو — طى . .» كانت تلك هى الجدة زويا تهدهد وتقذف على ركبتيها بابن ساكن من السكان ، واحيانا بعدة ابناء دفعة واحدة .

وكانت الجدة زويا بذيئة اللسان بصورة رهيبة وتهوى شرب الخمر . وعندما تسكر تغنى مقطوعات «تشاستوشكى»* محورة اياها قليلا «لكى تكون لائقة» . وعندما تكون غاضبة تميل الجدة الى الذكريات ، فتروى كيف كانوا فى المستعمرة «يضغطون على المصارين» ، وبلغة البشر فذلك يعنى ان المجرمين والقتلة وغيرهم من الحثالة كانوا يغازلون النساء اللائى هن «من وسطهم» .

والاطفال قوم مبدعون . . كانوا يعيدون مقطوعات الجدة الى نصها الاصلى ويرفعون عقيرتهم بها فتسمع البلدة كلها . وكان فولوديا جورياتشيف يذهب سرا الى المنزل رقم سبعة ليحفظ فولكلور الجدة زويا التى فقدت اسمها الحقيقى تدريجيا ، لأن الناس لم تكف عن التكاثر ، فلم ينقطع تردد عبارة الجدة «ا — طو — طى» . . ليل نهار ، فأصبحت الجدة طوطيشيخا .

وبظهور الحفيدة لانت حدة طباع الجدة ، وطغى على ذكرياتها السوداء شعور الحب المشرق لبولكا ، حتى وان كان حبا اخرق ، او ان هذه الذكريات انطفأت من تلقاء نفسها .

---

* هى مقطوعات غنائية شعبية قصيرة (عادة من اربعة ابيات) تلقى حسب لحن ايقاعى معين ، وكثيرا ما تتناول موضوعات الساعة والقضايا الاجتماعية بلهجة ساخرة واحيانا بعبارات مالحة . **المعرب** .

وعندما تكون الحفيدة فى صحة جيدة — فقد نشأت عليلة ضعيفة بكاءة ، سائلة المخاط دائما — تغمض الجدة عينيها وتبعث فى ذاكرتها ما طمسته الحياة والسنون : «على ذلك الشاطئ قطعت غصون البطم ، وعلى هذا الشاطئ تنزهت مع الحبيب» . «لا تقف على الجسر ، ولا تلوح بالطاقية ، فانا الآن لست لك ، فلا تدعنى بالعزيزة» . وذات مرة تذكرت بحزن هادئ بلا دموع : ايتها الحبيبة ، ايتها الحسناء يا شمعة لا تنطفئ ! اشتعلت ثم ذابت ، احبت ثم هجرت . . .» غنت هذه الكلمات ، ورفعت رأسها وتلفتت لترى هل ثمة من يختلس النظر اليها ، ثم الصقت جبينها المغضن بزجاج تلك النافذة المفتوحة على الغرب ، على موطنها الذى هجرته منذ زمن بعيد .

كانت والدة يولكا امرأة مكاتب ، كثيرة المرض ، ممنوعة من الولادة ، لكنها كانت تأمل بأن تكتسب الصحة من الولادة ، فصحت لدرجة انها راحت كل عام تستقل المواصلات الحديدية بالتذكرة المجانية لتذهب مع زوجها او بدونه الى المصيف ، وذات مرة لم تعد من هناك ، وقيل انها غرقت فى البحر الاسود .

ولم يبق ايجور آدموفتش ، الذى كان ما يزال بعد شابا وان مال الى الرصانة ، والذى كانت له مهنة جيدة وراتب كبير ، لم يبق ارملا فترة طويلة ، لأن فكتورينا ميرونوفنا تساريتسينا المدرسة بمدرسة شباب العمال ، التى كان يصارع فيها التعليم الثانوى ، قد ساعدت تلميذها بسرعة على تأسيس اسرة كما ساعدته فى غير ذلك من امور التعليم . وكان لديها



منذ الصبا تقريبا ، عندما درست فى معهد التربية ابنتان توأمان : كلارا ولارا .

وكان لدى فكتورينا ميرونوفنا شقة فى منزل موظفى الادارة . فسرعان ما نسى ايجور آدموفتش رقم المنزل القديم ، وبقيت يولكا — اليتيمة تقريبا ولها والدان — فى رعاية المربية العظيمة الجدة طوطيشيخا التى كانت تسب حفيدتها سبا فاحشا اذا تخلفت فى دراستها ، وتلاحقها بالمنشفة اذا عصت اوامرها .

وعندما بلغت يولكا السادسة عشرة ، ورأت الجدة طوطيشيخا انها بدأت تتزين وتتابع الصبيان بنظراتها وتقلق فى نومها دفعت بها الى احد المحتالين السكيرين ، فلم تتمكن يولكا ذات الوجه الازرق والقدمين النحيفتين من البقاء حتى فى معهد التربية ، فقامت فكتورينا ميرونوفنا بحشرها فى مدرسة تربية لاعداد مربيات رياض الاطفال ، وظلت فيها عدة سنوات تعذب نفسها وتعذب معها علوم التربية . وبعد ان قام والد يولكا وزوجة ابيها بتربية البنتين التوأمين فى بيت موظفى الادارة ، احبا السباحة والاستجمام فى المصحات وعاشا على هواهما . فطافا حول اوربا وبالبلدان القريبة ، وتملكا دارا ريفية بحديقة خارج المدينة وانهمكا فى تربية الازهار . وفى تلك الاثناء كانت يولكا تدمر نفسها مع العشاق ، الذين كان من بينهم ، كما تذكر ليونيد ، ذلك الشاب العصرى الذى كان يرتدى معطفا من فراء الغنم بزخرفة . يبدو انه كان ينتظر يولكا مع جماعته تحت السلم ولكن الاقدار القت اليهم بجار يولكا ، ساكن الطابق الثانى .

لم يكن بوسع الجدة طوطيشيخا ان تعيش بدون يولكا ، وكانت تعلمها اصول المعيشة ، كالصول فى سرية المشاة ،

دون اهتمام باختيار الكلمات . كانت تقول بصوت عميق مؤنبة بولكا :

ــ لا تسلمي نفسك لكل من هب ودب ، واحسبى حساب الدورة ، او ابلعى امبولة .

ــ كبسولة يا جدتى ، الأمبولة فى زجاج .

ــ وماذا اذا كانت فى زجاج ؟ عذاب مرة ولا كل مرة ، وبعدها تصبحين حرة . دعى عنك هذه الموضة : كل مرة خمسون روبلا * . من اين لأبيكم ان يأتى لكم بهذه الخمسينات ؟ عنده ثلاث دواهي وكلهن شهوانيات . يا ترى لمن يشبهن ؟ انا كنت جريئة ، ولكن كان عندى عقل . وهذه التساريتسا ** ، ابنتاها مدرستان ، ولكن لهما فــرجين مرجين . . .

تنام الجدة ، بعد ان جرعت من «البلسم» اللذيذ فأتت على زجاجة الفودكا الصغيرة . واقضت بولكا بحلتها مضجع صديقاتها فى المسكن الجماعى لمدرسة اعداد مربيات رياض الاطفال ، صديقاتها اللائى يشبهنها من حيث مستوى الذكاء والمتطلبات الروحية . وما زال العم باشا يزمجر ويحاول ان يهدى الى الصراط المستقيم العجوز اريستارخ كابوستين الذى فقد «صورة الضمير» ، هذا الصياد الكاسر الذى يغرف كل ربيع من البرك والبحيرات

---

* الاشارة هنا الى تكاليف عملية الاجهاض السرى . **المعرب** .

** «تساريتسا» بالروسية تعنى «قيصرة» ، الاشارة هنا الى ام الفتاتين فكتورينا ميرونوفنا تساريتسينا . **المعرب** .



السمك المختنق من قلة الاوكسجين فى الماء تحت الجليد ، ولا يتجاهل ادوات الصيد الممنوعة ، فلا يفصله عن اللجوء الى المتفرجات الا القليل ، وبعدها السجن . اما لافريا القوزاقى فقد صمد لثورة البركان وهو ينتظر اللحظة التى تبرد فيها الحمم الملتهبة وتستقر فى فوهة البركان الهادر ، وعندئذ يمضى على اطراف اصابعه الى دورة المياه حيث توجد خلف كرسى التواليت ذى الخرير ، بين زجاجات الطلاء وعلب مسحوق الغسيل قارورة ذات غلاف عملى كتب عليه «قطران عجلات» . . وفيها قطرة لعينة لا تدع له ان يخلد الى النوم فى هدوء . وفــى ملجأ الاطفال تتمدد الخالة جرانيا بين النوم واليقظة ، وهى تحرس بعين يقظة نوم الناس الصغار الذين يتّمتهم المصائب وهجرهم اباؤهم وأمهاتهم او تخلوا عنهم بعد ان غرقوا فى الشراب .

بمجىء الليل تغلق النوادى والملاعب والمطاعم والمكتبات وقصور الثقافة ابوابها ، ولكن الطائرات تطير ، والقطارات تسير ويقف رجال الشرطة والحراس فى مراكز الحراسة . وفى عربة السجن الضيقة فى مكان ما ينام فينكا فومين من توجوجيلينو مع امثاله من الاشقياء ولا يدرى الى اين يسوقونه ، بينما يساق الى مكان بعيد ولأمد طويل ، لن تكفى بقية حياته المبددة بسخاء للعودة منه .

وينام الزوجان تشاشين منفصلين ، فى دار مدفأة بشدة ، محكمة الاقفال والمزاليج الخشبية والحديدية ، ويتنهد ماركيل تيخونوفتش بحذر حتى لا يزعج نوم «حضرتها» ، ويغالب الارق والحنين الى حفيدته ، ويفكر فى صهره وفى ابنته ، وربما يتذكر ايام الحرب ، فهو لا يتذكرها امام الناس جهرا الا فى احيان

نادرة لسبب ما ، يتنهد فقط ويقول : «اعوذ بالله من ان يحدث ذلك ثانية . . .»

وبعد ان ترقد ابناءها النجباء تجلس المفكرة وداعية الثقافة المحلية اكتيابرينا بيرفيليفنا صيروكفاسوفا وهى تغالب النعاس وتقلب مخطوطة مهترئة للمدعو سوشنين .

ويهم المسئول الكبير فولوديا جورياتشيف بالنوم ، ويوجه سبابا يبدو له انه لا يتفوه به جهرا موجها الى الضيف والى كافة النظم التى لم يضعها هو ولكنها تجذبه الى مدارها حيث ينعدم الوزن . اما اليفتينا ايفانوفنا التى تخلط بين صوتى المرحوم زوجها وابنها هبة الله العميقين فتغطى حفيدها يورا حتى رأسه ، وتبعد عن وجهه نور المصباح الليلى الازرق ، وتتطلع الى ضوء الشارع وراء النافذة وهى تفكر فى اطفال الملجأ الذى عهدوا به اليها ، حيث تحاول ان تمحو من ذاكرة الاطفال ، وكأنما تكفيرا عن عقمها وعدم قدرتها على الانجاب ، قسوة النساء الفاجرات المجرمات ، وتسعى الى تقويم ما اعوج من حياتهم من اجل المستقبل .

وتنام ليركا وسفيتا مجهدتين من العمل ، متعانقتين على الكنبة الضيقة فى غرفة ضيقة خانقة فى عنبر حجرى مكتظ بالبشر ، اطلق عليه حسب مسميات العصر الحديث اسم : مسكن من النمط الفندقى . وتذكر سوشنين : «دائما عصور ، عصور . . .»

ترى من الذى حل محل فيديا ليبيدا للمناوبة فى القسم ؟ والابطال الثلاثة الذين جرحت كرامتهم فى المنزل رقم سبعة سيضربون او يشوهون شخصا ما هذه الليلة لان جرح الكرامة اثار فيهم ظمأ الانتقام .



وراء النافذة يهتز المصباح وتتكسر عروق الثلج المدلاة من الاسقف بفعل الريح . وحفرت القاطرة الكهربائية بكشافها الامامى الظلام وانزلت السكينة فى قلوب المسافرين بصفارتها الغليظة . . هذه القاطرة التى ربما استقلها فى اول رحلة والد بولكا السخى بعد ان استجم فى مصح عصرى على ضفاف البلطيق . ويقل عدد المارة فى الشوارع ، ويتباطأ دوران الارض ، بينما ليركا وسفيتا غارقتان فى النوم . . . «انا اعرف انك تخدعيننى . كم قطعت على نفسى العهود بأن اذهب ، بان اقطع كل صلة بالمخادعة الشريرة . ولكن ما ان يصل الامر الى حد الوداع حتى اقول : كيف امضى ؟ وهل استطيع ان اكون مع غيرك ؟. .» — «اوه يا الهى ، ما هذه الموهبة لديك فى تذكر الحماقات ، ورؤية ما لا داعى لرؤيته ، والعيش لا كما يعيش الناس الطيبون ، بلا حذلقات ، وتمزقات ، بل مجرد العيش . . . .» — فكر ليونيد فى نفسه كأنما يفكر فى شخص آخر ، وخيل اليه انه نام بضع دقائق فحسب ، واذ بصرخة حادة مفاجئة تلقى به من على الكنبة . . يبدو ان احدا ما كان يفتك باحد ما ، او ان احد الشقاة هجم على بولكا العائدة سرا فى ساعة متأخرة وسحبها الى تحت السلم .

شد سوشنين السروال عليه وهو ينظر بدهشة عبر النافذة ، الى ما وراء «الجاردیروب» المتفتح ، حيث كان برد الفجر يندفع ككتلة جليد ، واذا بالباب الذى نسى ان يوصده يرتج وتسقط بولكا على العتبة وتزحف مادة نحوه يديها :

— يا عم ليو . . يا عم ليوشا . . . . . جدتى . . .

قفز سوشنين من فوق بولكا ، وطار طيرانا الى الباب السفلى وفتحه على مصراعيه .

كانت الجدة طوطيشيخا راقدة على السرير فوق الغطاء ، طاوية ذراعيها الصغيرتين الجافتين فوق صدرها وهى تبتسم نصف ابتسامة بشوش بريئة ، وكانت فى ثياب الخروج وفى شبشب منزلى مكرمش ، ونظرت الى ليونيد بعين نصف مفتوحة . جس ليونيد جفنى الجدة طوطيشيخا الباردين ، ورج الزجاجة الفخارية الفارغة من «بلسم ريجا» . . لم تسمع الجدة كلامه واجهزت على الشراب «النافع» .

كان ينبغى عليه ليلا ان يصادر الزجاجة من الجدة ولكنه لم يفعل ، فقد كانت لديه شئونه ومشاغله . لكل منا شئونه . وقريبا لن يعود احد يحفل مطلقا بشئون الآخر .

وصاح صيحة غضب قصيرة فى يولكا التى كانت تعوى عند الباب :

— كفى . اجرى واحضرى والدك وفكتورينا ميرونوفنا ، ايتها العابثة الغريرة . ماذا ستفعلين الآن بدون الجدة ؟ كيف ستعيشين ؟

— اوه يا عم ليوشا ! لا تذهب ، انا خائفة . . لا تنصرف . . — وراحت تردد وهى ترمى على كتفيها المعطف ولا تستطيع ان تدخل الازرار فى العرى — انا حالا ، انا فورا .

شيعوا الجدة طوطيشيخا الى العالم الآخر بجنازة بلذخة ، تكاد تكون فخمة وحضرها عدد كبير ، فقد بذل الابن ايجور آدموفتش جهده من اجل امه الحبيبة لآخر مرة . ودفنوا الجدة فى المقابر الجديدة التى اوصلوها مؤخرا بالمقابر القديمة ، فوق ربوة ، وكانت المقابر القديمة قد حددت فى عام خمسة واربعين



فقط ، واقيمت ايضا فوق ربوة حجرية طينية عارية ، بيد ان المكان اصبح مغطى بالاشجار التى غرس الناس قسما منها ، اما القسم الآخر فحملته الريح بذورا من وراء النهر من منطقة الغابات المحمية حول مدينة فيسك ، ومن مشاتل السكة الحديدية ، او نقلته مع التربة النعال وعجلات العربات والسيارات وعربات الدفن . . كانت الحياة على وجه الارض مستمرة ، والسماد فى الارض يزداد . وسار كل شىء كما هو مقدر له .

وبعد ان القى ليونيد قبضة تربة على تابوت الجدة طوطيشيخا المغلف بالحرير الاطلس ، سار مباشرة عبر الثلج الذى هطل بعد فترة الدفء ، جذلان مندفعا لا يلوى على شىء ، متجها الى المقابر القديمة ، باحثا بعينيه عن شجرة الحور الرجراج البرية الغليظة الجذع ، التى كانت مرشدا له الى قبر امه والخالة لينا .

وبجوار سياج القبر المطلى حديثا والحوض المعتنى به رأى ظلا يتمايل على الثلج العميق برقبة مائلة ومعطف من معاطف السكة الحديدية وبيريه ، فلم يقطع على الخالة جرانيا صلاتها ومضى فى طريقه مارا بها ، مبديا دهشته فقط من ان الخالة جرانيا ، هذه المرأة الوافرة البدن ، اصبحت بطول قامة التلميذة . كانت صورة زوجها تشيتشا على شاهد القبر قد بهتت او غسلتها الثلوج والامطار حتى اصبحت بقعة رمادية ، ولكن الخالة جرانيا ، على ما يبدو ، ظلت تتعرف فى هذه البقعة على زوجها ، فراحت تصلى لله لكى يغفر له ولا ينساها هى الاثمة ، وان يأخذها اليه فى هدوء ودون عذاب . وكان مجلس المدينة قد اصدر قرارا استثنائيا تقديرا لها على ما بذلته من جهود وتضحيات لصالح المجتمع ، يسمح بدفنها فى المقابر القديمة

المغلقة ، مع رفيق حياتها ، ذلك الذى ارسله لها الله على علاته .

فى حوض قبر امه والخالة لينا تراكم ثلج سميك مختلطا بنقط الهباب السوداء التى طارت الى هنا من مداخن المدينة . ولم يشأ ليونيد ان يفك السلك الذى يربط باب المقبرة ولم يدخلها . وقف ممسكا بالحراب الحادة الاسنان ، الموصولة باللحام الكهربائى بالزوايا العرضية لسور المقبرة وأخذ يتطلع الى هذا المكان الساكن ، محاولا دون نجاح ان يتصور كيف يمكن ان تكون هاتان المرأتان الحبيبتان راقدتين هناك تحت الثلج ، فى باطن الارض ، فى هذا البرد ؟ وليس فى وسعه ان يفعل لهما اى شىء ، ليس فى وسعه ان يساعدهما ، او يدفئهما او يمنحهما الود والعطف . ما هذا اليوم ، وهذه السماء العالية ، الساطعة من الثلج ومن الشمس التى افلتت فجأة من الاعالى ، وهذه المقبرة المكتظة بالبشر ، التى تنام فى ثناياها تحت الثلج امرأتان لا يند عنهما صوت ، ولا يعرفها احد من الناس سواه ؟ اين هما ؟ لقد كانتا على قيد الحياة ، نعم كانتا . والناس ، كل الناس الراقدين هنا ، كانوا ايضا على قيد الحياة . كانوا يعملون ، ويفكرون ، ويسعون لشئونهم ، ويتناسلون ، ويجمعون الخيرات ، ويشربون ويغنّون ، ويتشاجرون ، ويتصالحون ، يسافرون الى مكان ما او يعقدون العزم على السفر ، يحبون اشخاصا ما ويكرهون اشخاصا ما ، يتعذبون ويفرحون . . .

والآن لم يعودوا بحاجة الى احد او الى شىء ، توقف كل شىء بالنسبة لهم ، ومهما اجهد الاحياء انفسهم لكى يفهموا ويستوضحوا سر الموت فلن يظفروا بشىء . ومهما جرم الاحياء انفسهم فلن ينمحى ذنبهم فى حق من غادروا الحياة الدنيا .



فى الربيع احرقوا القمامة فى ارض المقابر ، وهبت الريح فى تلك الاثناء فانتقل اللهب الى القبور والصلبان . احترق كل ما كان مصنوعا من الخشب ، اما الحديد فقد احترق عليه الطلاء . وصل الشتاء على كثير من القبور وهى مدمرة ، وعلا الصدأ الاسيجة والتماثيل ونحوت القبور ، وغطى الثلج البقايا المتفحمة وقد سحب عليها كفنا ابيض — جاءت الكلمة مناسبة للمقام — كفنا حزينا سحبه الثلج على ملجأ المصائر البشرية والاحزان .

وطال اللهيب قبر آل سوشنين فصهر الطلاء على السياج واحرق الصورتين فى الفتحتين المقوستين . وفى الصيف طلى ليونيد السياج بطلاء ازرق وكذلك شاهدى القبرين البسيطين ودق اريكة فى الارض ، لكنه لم يضع صورا جديدة ، فما الداعى ؟ فى الصور القديمة كانت المرأتان شابتين لا تشبهان الا قليلا تلكما اللتين كان سوشنين يعرفهما . فخلال الحرب كان لدى امه ما يشغلها عن التصوير . اما الخالة لينا ، بعد عودتها من مؤسسة الاصلاح ، فلم تذهب الى استوديو التصوير ، بل الى الكنيسة ، خفية عنه ، هو ليونيد . فلا داعى اذن لتسلية الغرباء واللامبالين بهذه الصور ، فما اكثر المظاهر حتى بدون المقابر . انه يذكر امه ، ولكنه يذكر اكثر الخالة لينا ، ويحبهما ، ويحزن لفقدهما ، ويتعذب ككل الناس الذين بقى لديهم فى صدورهم قلوب لأنه حى ، اما هما فترقدان عن قرب ، حتى لتكاد اليد تطالهما ، وفى الوقت نفسه بعيدتان الى حد لن يستطيع معه احد ابدا ان يبلغهما او يراهما او يؤذيهما او يفرحهما او يدفعهما او يسبهما . والسماء التى اشرقت بسطوع من الشمس اللامبالية التى لا تدفئ احدا ، لا علاقة لها بهما ، فهما

ترقدان فى الارض ، فى الاسفل ، تحتهما الارض وفوقهما الارض التى لا بد انها سحقتهما منذ زمن بعيد واحتوت رفاتهما كما احتوت من قبل ملايين وملايين الناس ، من البسطاء والعباقرة ، السود والبيض ، الصفر والحمر ، من الحيوانات والنباتات ، من الاشجار والازهار ، امما بكاملها وقارات ، فهكذا ينبغى للارض ان تكون : بلا قلب ، خرساء ، مظلمة ، ثقيلة . فلو انها كانت قادرة على الاحساس والمعاناة لتبعثرت منذ زمن بعيد وتبددت هباء فى الفضاء . وهى اذ تحتوى فى جوفها ما سبق لها ان ولدته تحتوى ايضا آلام الناس ومصائبهم ، وتبقى لهم القدرة على مواصلة الحياة وتذكر من عاش قبلهم .

— طيب ، سامحينى يا ماما ويا خالتى لينا . . .

ونزع ليونيد طاقيته الشتوية وانحنى بشدة ، ولسبب ما لم يستطع ان يقيم ظهره على الفور ، لسبب ما ثقل حزنه الذى تراكم فى نفسه حتى انه لم يجد فى نفسه القدرة على رفع هامته نحو الشمس الشتوية الساطعة وعلى التحرك من مكانه .

وأخيرا احس بالبرد فى رأسه فاغمده فى الطاقية بكلتا يديه ، ودون ان يلتفت مضى نحو بوابة المقابر وهو يسعل طويلا طاردا العبرات التى غص به حلقه ويخشى ان يبصق بلغم السعال على ثلج المقابر .

---

عند بوابة المقابر القديمة لاحظ خيالين . . كان احدهما يرتدى معطفا قصيرا ، مضيق الخصر ، وطاقية من فراء الثعلب ، ويتواثب راقصا وهو يدق فردة الحذاء الطويل الموضة بالاخرى من البرد ، اما الخيال الآخر فكان صغيرا برأس كبير . . الحمد



لله انها فطنت الى لف الصبية فى شال الخالة لينا الوبرى القديم ، والبستها الحذاء اللباد مع الخف ، وقفازا ريفيا من صوف الغنم ، ومعطفا فرائيا ثقيلا لا تستطيع فيه الحركة ، فهاهى تقف ممدودة الذراعين فى وضع مضحك . ولكى يقطع ليونيد الطريق على الحديث الفارغ الذى يمكن ان يبدأ ، مثل : «لقد تأخرنا على الباص ، والسيارات كلها انصرفت ، فجئنا من المقبرة الجديدة الى هنا ، هكذا . .» التقط سفيتا وهو سائر ورفعها وضمها اليه . وظلت هى صامتة ، تعانق اباها بقوة ، ومالت على اذنه بفمها وهى تتنفس فيها بدفء حذر .

ولسبب ما سار ليونيد غاضبا ، او هكذا خيل لليركا وازداد عرجا عن المعتاد ، واز حذاؤه المشبع بالثلج ازيزا باردا على سطح الطريق الزجاجى المتجمد . ولم تدر ليركا ماذا تقول له وماذا تفعل ، فاذا بها فجأة تأخذ فى اغاظته ولكن فى سرها بمقطوعة طفولية قاسية «يا للا هاث . . خمس روبلات . . طب والعمل ؟ . . روح اشتغل . . .» ثم هدأت نفسها : «ماذا جرى لى ؟ هل جننت تماما ؟ ام توحشت نهائيا ؟ يبدو ان حالة ساقه سيئة جدا ، لا يستطيع ان يرتدى الحذاء الميرى الخشن . . .» واسرعت ليركا الخطو فى اذعان وراء الرجل فأخذ حذاؤها هو الآخر يئز .

ارادت ان تحتج وتعارض : «الى اين انت ذاهب ؟» — عندما انعطف سوشنين من المقابر الى المنحدر المؤدى الى بلدة عمال السكك الحديدية ، بيد انه سيصرخ ، حتما سيصرخ : «الى البيت . كفى تسكعا فى بيوت الآخرين !» — ثم ان لديهم هناك ، فى المنزل رقم سبعة ، وليمة تأبين ، فربما كانت الخالة جرانيا وفكتورينا ميرونوفنا فى حاجة الى مساعدة . ومن

يعلم ماذا هناك ايضا . . فالايام الاخيرة كانت اياما صعبة بالنسبة له ، حافلة بالهموم ، فالعمل مع صيروكفاسوفا ، وهجوم الاشقياء عليه . . دائما يهاجمه احد ما . وعموما فهو يحيا حياة متوترة طوال الوقت . فلماذا هذا ؟ كم عدد القبور الحديثة فى المقابر الجديدة ؟ لا حصر لها . مع ان هذه المقابر لم تفتتح الا فى الخريف . لماذا يقصر الناس اعمار بعضهم البعض ؟ لماذا يدفعون بعضهم بعضا الى هناك فى عجلة ؟ ينبغى ان يفعلوا العكس . ينبغى ان يتجاوزوا المصاعب معا ويسلموا بالنواقص . . .

---

— اين تتسكع ؟ — فحت الخالة جرانيا على ليونيد ما ان دوى صوت ثقالة الباب خلفه فى المنزل السابع . — ينبغى ان نجلس الدفعة الثانية الى المائدة ، ولكن بعضَ قدامى المحاربين قد انحشروا هنا ، ويحاولون رفع عقيرتهم بالغناء . . .

— وما دخلى انا بذلك يا خالة جرانيا ؟

— خذهم من هنا . اكسحهم . لكى لا يشوشوا على الناس . . .

— انا لا اعمل الآن فى الشرطة يا خالة جرانيا .

— وكيف اذن ؟ لا بد ان يفرض احد النظام مع ذلك . صاحب البيت سكر ، لا يريد ان يرى او يسمع احدا . حزين على امه .

لسبب ما كانت الخالة جرانيا غاضبة على غير المألوف ، تكاد تكون مغيظة . فى الغالب بسبب العمل فى ملجأ الاطفال . فمصائر وحياة الاطفال ، المقوضة منذ الولادة على ايدى الامهات والاباء الاعزاء ، لا تحنن القلوب كثيرا على الارجح بل تحولها الى قلوب قاسية حتى لدى الصابرات العظيمات مثل الخالة



جرانيا . لقد توصلت احدى الامهات الى طريقة ماكرة تماما للتخلص من رضيعها : دسته فى صندوق حفظ الامانات ذى الارقام السرية بمحطة القطار . ومن حسن الحظ ان رجال شرطة فيسك يعرفون جميع خبراء فض الاقفال ، الاحياء منهم والاموات ، فاستطاع احد لصوص الشفق العتاة ، الذى كان يسكن قرب المحطة ان يفتح الصندوق فى غمضة عين ، واستل منه لفة بشريط وردى ورفعها امام الحشد الغاضب وصاح : «بنية . صبية صغيرة . اهبها حياتى ، حياتى ، لها . لأنه . . اه يا بنات الكلب ! الصبية الصغيرة تدسونها . . .» ولم يستطع ان يكمل كلامه هذا اللص العتيد المعذب ، الذى حوكم وطورد واعتقل وسجن مرارا . اجهش فى البكاء وخنقته العبرات . اما الطريف فهو انه كرس بالفعل حياته للصبية ، فتعلم حرفة النجارة ، واشتغل فى مصنع «بروجرس» للاثاث ، حيث وجد له زوجة رقيقة القلب ، وهاهما يرعيان الصبية ويزينانهـــــا ، ويخافان عليها من النسيم ، ويسعدان بها وبنفسيهما حتى ليجدر ان تكتب عنهما الصحف ايضا تعقيبا بعنوان «سلوك نبيل» .

فك سوشنين الاغطية عن سفيتا ، ووضع حلة الحساء على النار ، واشعل قصاصة ورق واخذ يدس الحطب فى الفرن . وجلست سفيتا بجوار باب الفرن على كرسى صغير ، ثم تناولت المكنسة وراحت تكنس الغرفة .

ووقفت ليركا مستندة بظهرها الى عارضة الباب وهى تتطلع الى باب الغرفة الوسطى الصغيرة التى لاح منها طرف «الجارديروب» اللعين . لم يدعها رب الدار الى الدخول وخلع معطفها . كان يلقى بالحطب فى الفرن . وهى ، عروسه «البريمادونا» لم تعاشر



14—1344

رجلا بعده ، وتخاف ان تخلع ثيابها ، تخشى ان تصبح «بيتية» . ستكون بحاجة الى الوقت للتعود من جديد عليه ، وعلى البيت ، وللتغلب على خجلها او على اشياء اخرى ليست مفهومة لأى احمق .

— انا سأذهب الى هناك — وأومأ سوشنين برأسه الى الباب . — ضرورى . وانت يا سفيتا تناولى حساء ساخنا ، واذا اردت فالعبى ، او اقرئى ، او شاهدى التلفيزيون . ولكنى لا اعرف هل يعمل ام لا ؟ لم افتحه من زمان . . .

كفت سفيتا عن الدوران بالمكنسة على الارضية ، وتطلعت اليه شذرا ، ثم حولت عينيها الى امها . انفصلت ليركا عن عارضة الباب فى صمت ، واخلت الطريق لسوشنين .

تحت السلم تمددت كومة رمادية فى بركة سائحة ، فأدرك سوشنين انها «اورنا» . منذ زمن بعيد لم يعودوا يسمحون لها بحضور الاعراس والحفلات ، ولكن العادة جرت بالا يمنع احد من حضور وليمة التأبين . عادة روسية ، من عاداتنا ايضا .

وجاش صدر سوشنين ، واراد ان ينادى «يا زوجتى ، تعالى وتفرجى على معشوقتى ! . .» لكى يغمز ليركا بذكرى شجارهما القديم ولكنه كبح جماح نفسه اذ تذكر قول لافريا القوزاقى له : «انت يا ليونيد فيكيتييفتش خرجت عن عقلك ، خرجت تماما . قريبا سيأكلك الغضب يا عزيزى . . .»

الوطن ليس عبثا قلدنا النياشين
وهذا ما يعرفه كل مقاتل . . .
نحن على استعداد للقتال ايها الرفيق فوروشيلوف ،
نحن على استعداد للقتال يا أبانا ستالين . . .



كان لافريا القوزاقى يغنى بصوت خافت معتمدا بخده على يده وهو جالس الى المائدة ، وغنى معه العم باشا ، والعجوز اريستارخ كابوستين وسندهم بالغناء الجيران و«خريجو مدرسة» الجدة طوطيشيخا العديدون ، ومجرد المعارف ، فى اتساق مع قدامى المحاربين ، وهم ينشفون عيونهم بأطراف المناديل .

كان ايجور آدموفتش مستلقيا على سرير امه ووجهه الى اسفل ، فى سترته وحذائه اللامع ، ولم تند عنه حركة او صوت . وكانت فكتورينا ميرونوفنا تنظر نحوه باستفهام وقلق وهى تضيف الحاضرين باحترام . وعند طرف المائدة جلست يولكا فى حلة فخمة وبلوزة اجنبية برقبة وباروكة حريرية ، جلست نافرة متوترة ، وكان وجودها هنا سخيفا وبدت غريبة عن الجميع . والتقطت نظرتها ليونيد وهو يدخل فابتسمت له ابتسامة تائهة ، ونادته :

— تعال هنا يا عم ليوشا ، هنا لو سمحت .

سكت المغنون عند ظهور ليونيد ، ولكنه جلس الى المائدة وقال بلهجة بعيدة عن لهجة الصرامة المتوقعة :

— غنوا ، غنوا . لا بأس . كانت الجدة زويا مرحة الطباع ، وكانت تحب الغناء . . . .

وصرخت يولكا بصوت وحشى :

— اه يا جدتى ، يا جدتى !

وسقطت على كتف ليونيد .

ومسد ليونيد باروكتها المنزلقة على اذنها والكبيرة على رأسها الصغير الأحمق ، وسعل بحشرجة مسلكا زوره من عبرة اطبقت عليه فجأة .

وجاءت ليركا ، فتزحزح سوشنين مفسحا لها مكانا بجواره على اللوح الخشبى الموضوع فوق الكراسى بدلا من الاريكة والمغطى

بسجادة منحولة الوبر جاءت بها فكتورينا ميرونوفنا من المنزل .

وقالت ليركا خافضة البصر :

— الرحمة على الجدة الطيبة . .

وغرفت بملعقة صغيرة قليلا من ارز التأبين بالزبيب من طبق واسع وحملته الى فمها وهى تحسبه براحتها ، وظلت تمضغه فترة طويلة دون ان ترفع عينيها .

ورسمت الخالة جرانيا علامة الصليب ، وبكت ، ونشقت النساء الجارات بأنوفهن ومسحن دموعهن ، وقال شخص ما العبارة المألوفة عما لن يألفه احد ابدا : «تلك هى الحياة ، كانت ولم تعد» . ولكن لم يواصل احد هذا الحديث الحزين او يجاريه ، كما لم يحاولوا معاودة الغناء . ولم يفلحوا لا فى تبادل الحديث الطويل المطهر للنفس ولا فى غناء الاغانى الحزينة المسكنة والتى تستميل القلوب الى التصادق والتعاطف .

استلقى سوشنين ليلا على السرير المفروش بملاءة نظيفة . وعلى مقربة ، عبر حاجز خشبى رقيق صفرت سفيتا بأنفها اذ اصيبت بالبرد فى المقابر . ونامت ليركا ملتصقة به فى تردد . ومضت ساعة الحائط القديمة تعمل بانتظام وهى تدق فى صندوقها الخشبى . كانت سفيتا تهوى ملأها بالمفتاح . اما ليونيد فدائما ما ينسى ذلك ، وبعد يوم من انهيار اواصر زواجهما توقفت الساعة عن الحركة ، وساد السكون وتوقف الزمن فى الشقة الرابعة . واخذ يفكر الآن فى الكيفية التى جاءت بها هذه الساعة القديمة الى هذه الشقة العمالية ومن اين جاءت ، وقد اصبحت من جديد موضة وارتفعت قيمتها ، فقد عادت الموضة



الى الاشياء القديمة . ولكنه لم يستطع ان يتذكر او يهتدى الى شىء ، وعموما لم تكن لديه رغبة فى التفكير فى اى شىء ، فقد كان فى قلبه ومسكنه هدوء نادر ، حتى وان كان مشوبا بالحذر . كان يدرك ان عليه ان يرتب امور حياته بطريقة ما ، ويستوضح فيها بعض المسائل ، وقبل ان يجلس من جديد الى طاولة الكتابة عليه ان ينظر نظرة جديدة ، نظرة ربما اوسع واعمق ، الى مغزى كل ما جرى ويجرى له ومن حوله . وان يتعلم كيف يرى الناس ويفهمهم لا كما فى السابق ، بعينى شرطى جنائى حادتين لا يرحم ، بل بعينى رجل له رسالة اخرى فى الحياة . عندما كان يعمل فى الشرطة كان من السهل «تصنيف» الناس الى مدمنى شراب ، ومحترفى طلاق من هواة النساء ، ومحتالين ولصوص صغار وكبار ، الى «خانات» و«ملكات» * ، وقوادين ، ونهابين ، وسكان المحطات وغرف السطح ، والمتسكعين بلا عمل ، والمأجورين الجوالين . ولكن ذلك ليس سوى الشريحة العليا . . . او السفلى ؟ هو الغبار على رف النافذة ، اما وراء النافذة ، خلف زجاجها ، فيسير ، ويهيم ، ويركض ، ويعيش ، ويرقص ، ويمرح ، ويبكى ، ويسرق ، ويضحى بآخر كسرة خبز وبثروة العائلة وبنفسه ، ويولد ، ويموت شتى الناس ، ناس كثيرون ، ارض كثيرة ، غابات كثيرة . . .

«غابات كثيرة ، غابات كثيرة ، خمائل كثيرة . . .» .

ونعس حتى قبل ان يتذكر بقية الرباعية التى سمعها فى قرية

* فى لهجة اللصوص «الخان» هو اللص الكبير ، زعيم العصابة ، و«الملكة» هى صاحبة وكر الدعارة . المعرب .

بوليفكا . رباعية جيدة ، محكمة ، من الادب الشعبى .

نام فى البداية نوما هادئا ، عميقا ، ثم الح عليه وعذبه كابوس فظيع : رأى فى المنام صبية فى طاقية حمراء تسير على الجليد الربيعى الرقيق القشرة ، الذى وسخه الصيادون وتناثرت عليه بقع الحفارات . وكان الجليد قد انفصل عن هذا الشاطئ وذاك ، واوشك النهر ان يتحرك ، ولا احد اطلاقا على الجليد سوى الصبية . وامعن سوشنين النظر اليها فعرف فيها سفيتا ، واراد ان يصرخ ، ولكن النهر تحرك فى تلك اللحظة وراح يحطم كتل الجليد وينثرها . وجرى سوشنين بحذاء الشاطئ ، او بالاحرى حاول ان يجرى ، لكنه لم يستطع . ونادى على سفيتا ، ولكن الهواء فى رئتيه لم يكفه للصياح عاليا . عندئذ القى بنفسه فى النهر ، وراح يحطم الجليد بقبضتيه ، غير ان الجليد لم يتحطم . وسمع صوت فيديا ليبيدا يقول : «حطمه باللوح ، باللوح» ، ومن مكان ما ظهر لوح . ومضى ليونيد يسحق الجليد باللوح مندفعا نحو سفيتا وهو يصطدم بحواف الجليد الحادة بصدره فيؤلمه ، ويتوغل اكثر فاكثر فى الماء العكر الفوار . «لحسن الحظ انه ليس باردا . بسبب المصب . المصب الساخن من مصنع الاطارات . ولهذا فهو ليس باردا» . ورغم كل شىء استطاع ان يصل الى الصبية ، ومد لها يده ، وفى تلك اللحظة تفتت كتلة الجليد الى عدة اجزاء ، واذ بعاصف يدور بالصبية المبتسمة باطمئنان ويحملها ولكن لا على ظهر كتلة الجليد بل على ورقة دفتر ، فى زاويتها علامة «ردىء» حمراء ، ويطير بها الى السماء ، الى الظلام المثقوب بالنجوم . وفطن ليونيد : «هذا هو العالم الآخر !» وكما خيل اليه فقد صاح بأعلى صوته «أ — ا — ه» ،



اما فى الواقع فلم يزد على ان دمدم ، ثم قفز فى سريره ، واستيقظ .

وهمست ليركا مهمهمة :

— ماذا بك ؟

— لا شىء ، نامى ، نامى .

وتنفس الصعداء بارتياح ، وضغط براحته على ليركا فوق الفراش ولم يرفعها عنها الى ان تخدرت يده . ثم نهض ليلقى نظرة على ابنته . كانت تنام وقد طرحت عنها البطانية واسقطت الوسادة ، وتفرقت يداها وساقاها فى شتى الاتجاهات واحتضنت باطمئنان صندوق الجدة لينا القديم ، الذى صنعه الحرفيون المهرة من فياتكا ، هذا الصندوق الذى كانت تدفئه منذ الصغر بجسدها الصغير ، وقبلها استعمله وادفأه قريبات سفيتا البعيدات اللواتى لم ترهن ابدا ولم تعرفهن ولن تعرفهن الآن او تسمع عنهن شيئا . كن يحفظن فيه ثياب الزفاف ، وجهاز العروس القروى البسيط ، وتلك الخيوط ، والمناديل ، والصرر التى تحوى الفضية وقطع الحلوى ، والفرشات ، والمفارش ، والدانتلا . . . «فما معنى الثرثرة عن صلة الازمان . لقد تقطعت تلك الصلات ، تقطعت حقا ، ولم تعد العبارة استعارة ادبية بل اصبح لها معنى شرير لن نستطيع ان تدرك مغزاه وعمقه الا بعد مرور زمن ، وربما لن يتاح ذلك لنا بل لسفيتا ، لجيلها ، الجيل الاكثر مأساوية عبر كل الدهور . . .»

دس سوشنين الوسادة تحت رأس سفيتا بحرص ، وغطاها بالبطانية ، وركع على ركبتيه بجوار الصندوق ، والصق خده برأس ابنته بحذر ، وغاب فى نوبة حزن حلو ، غاب فى أسى يحيى ويبعث من الممات ، وعندما افاق احس بالبلل على وجهه فلم

يخجل من دموعه ، ولم يحتقر نفسه على ضعفها ، ولم يجد حتى ميلا الى السخرية المعتادة بحساسية نفسه .

عاد الى السرير ، فتمدد عاقدا ذراعيه خلف رأسه ، وتطلع بطرف عينه الى ليركا التى دست رأسها تحت ابطه .

زوج وزوجة . رجل وامرأة اجتمعا . يعيشان معا . يتقاسمان الكسرة ، ويغالبان الفاقة والامراض ، يرعيان الاطفال ، طفلا واحدا الآن ولكن بجهد جهيد ، والى ان ينشآنه يكونان قد عذبا نفسيهما وعذباه .

ليسا ذكرا وانثى دعاهما نداء الطبيعة الى السفاد لمواصلة النسل ، بل انسان التقى بانسان ، واجتمعا ليعين احدهما الآخر وليعينا المجتمع الذى يعيشان فيه على الرقى ، وليصب كل منهما الدم فى قلب الاخر ، ومع الدم كل ما هو طيب . وقد اعطاهما الوالدان احدهما للاخر وكل منهما له حياته وعاداته وطباعه . . ومن هذه الخامة المتنوعة ينبغى الان صياغة خلية فى الصرح العريق المسمى **بالاسرة** ، وكأنما ولادة جديدة . كان هو وهى يضربان فى الارض ، بين الكثيرين من اقرانهما ، وقد اتحدا بمشيئة القدر او وفقا لقانون الحياة الجبار . زوج وزوجة . رجل وامرأة ، لم يعرفا بعضهما البعض من قبل ابدا ، ولم يدر بخلدهما شىء عن وجود ذرات غبار حية تدور مع الارض حول محورها فى فضاء الكون اللانهائى ، قد اتحدا ليصبحا اقرب الاقرباء ، ليعيشا بعد الآباء فيختبران حظهم ، وليواصلا طريق الآباء وطريقهما ويقطعاه حتى القبر ، وينفصل احدهما عن الآخر بعذاب وضنى لم يرهما احد .



يا له من لغز عظيم ! تبددت آلاف السنين من اجل كشفه ، ولكن لغز الاسرة ، مثله لغز الموت ، لا يفهم ولا حل له . كانت السلالات ، والمجتمعات ، والامبراطوريات تهلك وتتبدد هباء عندما تبدأ الاسرة فيها بالانهيار ، عندما يضل هو عنها وتضل هى عنه ، فلا يجد احدهما الآخر . كانت السلالات والمجتمعات والامبراطوريات التى لم تؤسس الاسرة او التى هدمت اسسها ، تأخذ فى التفاخر بالتقدم الذى حققته ، وتصلصل بالاسلحة . وفى السلالات والمجتمعات والامبراطوريات كان الوفاق ينهار بانهيار الاسرة ، ويبدأ الشر فى التغلب على الخير ، وتسوخ الارض تحت الاقدام لكى تبتلع اولئك الرعاع الذين يسمون انفسهم بشرا دون ادنى اساس .

غير ان الزوج فى العالم المعاصر المستعجل يريد ان يحصل على زوجة جاهزة ، والزوجة بدورها تريد زوجا جيدا ، والافضل ان يكون جيدا جدا ، مثاليا . والساخرون المعاصرون ، الذين جعلوا اقدس ما فى الكرة الارضية — الاواصر العائلية — مادة لسخريتهم ، والذين يدندنون الحكمة القديمة بالتهكم على المرأة السيئة المذابة فى جميع الزوجات الجيدات ، لا بد انهم يعرفون ان الرجل الجيد هو ايضا متوزع فى جميع الرجال السيئين . وما اجدر ان يوضع الرجل السيئ والمرأة السيئة فى جوال مغلق ويلقى بهما الى قاع البحر . وليس اسهل من ذلك . ولكن كيف يمكن بلوغ تلك السهولة بسفينة الزوجية المهترئة ، التى جفت وتشققت ، ولطمتها عواصف الحياة ففقدت قدرتها على الطفو المستقر .

«الزوجان . . كلاهما شيطان» و«الزوجة للزوج طول العمر ،

وحتى القبر» . ذلك هو كل ما يعرفه سوشنين من حِكَم حول هذه المسألة المعقدة .

«فلننتظر ماذا لدى الرفيق دال ؟» * . واخذ يتخطى ليركا بحذر . ولما كانت ليركا قد اعتادت النوم مع سفيتا ، ومراقبة كل حركة من حركاتها والاحساس حتى بأنفاس طفلها الوحيد ، فقد طبطبت بيدها بجوارها وسألت من جديد بصوت ناعس اصم :

— ماذا بك ؟

فرد سوشنين ثانية بصوت خافت وهو يغطيها بالملاءة :

— لا شيء ، نامي ، سألقى بالحطب فى المدفأة ، سفيتا بردانة .

واشعل المدفأة رغم ان الشقة لم تكن باردة ، وجلس بجوار فتحة المدفأة واستنشق هواء دافئا جافا ، وتطلع الى اللهب المتراقص بجمال وحيوية ، ثم مضى الى الطاولة وهو ينظر بطرف عينه الى ليركا الممدودة الذراعين فى استرخاء وحرية وقد التف عليها شعرها .

فوق طاولة المكتب ، التى شطبت لقدمها من العهدة فى المكتب الفنى بمحطة فيسك واعطيت للخالة لينا دون مقابل ، ثبت رف للكتب المدرسية والدفاتر والادوات المكتبية . اما الآن

---

* فلاديمير دال (١٨٠١ — ١٨٧٢) كاتب وعالم لغويات روسى ، صاحب اشهر معجم مفسر للغة الروسية الحية (فى ٤ اجزاء) وجامع لحكم وامثال الشعب الروسى . **المعرب** .



فاستقرت عليه ، مائلة صوب النافذة ، كتب ادلة ، ومعجم ، والكتب المحببة ودواوين اشعار واغان . وبينها يلوح كضوء السيمافور الاخضر غلاف كتاب «امثال الشعب الروسى» ، فتح الاديب الشاب والزوج الخبير فى الشئون العائلية ذلك الكتاب السميك من وسطه . كان باب «الزوج والزوجة» يحتل اثنتى عشرة صفحة عريضة كاملة . . فقد جمعت الامة الروسية الفتية حتى القرن الماضى خبرة وفيرة فيما يتعلق بالاسس العائلية وعبرت عنه فى الابداع الشعبى .

«الزوجة الطيبة والحساء الدسم . . افضل من كل النعم» . «هذا كلام معقول ، معقول جدا ، وعملى !» — قال المفكر من بلدة عمال السكك الحديدية فى سره وهو يبتسم بتهكم . ولكن سرعان ما توالت عليه الاكتشافات الى درجة انه فقد الرغبة فى التهكم : «الزوجة والمنون . . قدر مرسوم» ، «الزواج موجود ، والفراق مفقود» ، «من كتب الكتاب . . معا ليوم الحساب» . . «قوة الطيور فى جناحها ، وزينة الزوجة زوجها» ، «خلف زوجى امان ، ولا اخاف من انسان» .

«هكذا اذن ، خذ بالك ! — فى هذه المرة لم يتفق ليونيد مع الحكمة الشعبية . — تعالوا اعرفكم بالمرأة الحديثة !» ونظر لا اراديا نحو ليركا . «الزوجة ليست حذاء تنزعه من قدمك» . . «هذا صحيح ولا خلاف عليه» — قال ليونيد فى نفسه وزفر زفرة طويلة وحشر الكتاب فى موضعه .

وقال فى نفسه ان توصيات الجدة المرحومة تكفى وحدها

للحياة الحكيمة دون حاجة الى معجم . تساءلت الجدة طوطبشيخا : «الاسر تنهار والزوجات ينفصلن عن الازواج ، لماذا ؟ — واجابت هى نفسها عن السؤال : — لأنهم ينامون منفصلين . ولا يرون اولادهم ولا بعضهم بعضا بالاسابيع ، فكيف يتماسكون ؟ كنت احيانا اتشاجر انا وآدم ، واحيانا نتعارك ، ولكن الزوج والزوجة ، حتى لو تشاجرا ، ينامون تحت لحاف واحد ! كان يحدث اثناء الليل ان يضع آدم يده عليّ عفوا ، والقى انا عليه ساقى من الحر فاذا بالوئام يشملنا ويعود الهدوء والوفاق الى البيت . . .»

«هذا صحيح ، — قال سوشنين متنهدا ، — الجدة حلت المعادلات الصعبة بدون كسور ، بطريقة بسيطة ولكنها مضبوطة» .

وقف ليونيد وسط الغرفة ، ومسد رأسه . من خلف «الجاردبروب» بدأ يتسلل ضوء خفيف . وقال : «يبدو انى ساضطر الى تقطيع هذه المصيبة حطبا للمدفأة» — ومسح على الصوان المقشر بيده فاحتك بأصابعه كأن كلبا قديما لعقها بلسانه الخشن ، وخزه فى راحته بمودة . «ما العمل يا صاحبى ، الحياة العصرية تتطلب التضحيات ! لا شىء جديد يتأسس عندنا ويستتب بدون ضحايا» — وابتسم صاحب الشقة الرابعة ابتسامة مذنبة .

انحدر الفجر كتلة ثلجية رمادية مقتحما كذلك نافذة المطبخ عندما مضى سوشنين الى طاولة الكتابة ، بعد ان استمتع بالسكينة وسط الاسرة النائمة فى هدوء ، مضى بشعور بالثقة التى لم يخبرها منذ زمن طويل بامكانياته وقواه ، بلا انزعاج او كآبة فى القلب ، ومال على الطاولة مثبتا هيكلها المتداعى بيديه حتى لا يصدر عنه



صرير او خشخشة ، ومد يده الى المصباح القديم ، والعهدة السابقة هو ايضا ، ولوى بشدة عنقه ذا الصحن الحديدى فى نهايته ، ووضع فى بقعة الضوء ورقة بيضاء وانحنى عليها ، وسكن طويلا فى هذا الوضع . . .

١٩٨٢ — ١٩٨٥

افسيانكا — كراسنويارسك